فاطمة اليشرطية الحسنية

رحلة إلى الحق

في

مناقب حضرة والدي وشيخي القطب الغوث الاكبر والوارث
المحمدي الأعظم شيخ الطريقة ومعدن الحقيقة
علم المهتدين ومربي السالكين سيدنا ومولانا
الشيخ علي نور الدين اليشرطي
الحسني الحسيني الشاذلي
التونسي المغربي قدّس
الله سرّه
العالي

اهداء الكتاب

الى النور الذي أضاء قلبي . بالايقان . والاحسان . وسرت على هديه في مقامات الشهود والعرفان .

الى امي

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ،
الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ)

(اللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ)
(وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ)

قرآن كريم

لُذْ بِٱلعَلِيِّ ٱلْيَشرِطِيِّ فَإِنَّـــهُ بَابُ ٱلعُلُومِ وَكَعْبَةُ ٱلتَّحْقِيقِ

الشيخ مصطفى ابي زيشه

مقدمة الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على منبع أسرار العارفين ومصدر أنوار أهل حق اليقين سيدنا ونبينا محمد وعلى آله الأخيار واصحابه الأبرار اجمعين . آمين

●

أما بعد فقد طلب مني بعض إخواني بالله ، تأليف كتاب عن سيدي الوالد قدس الله سره ، وعن حياتنا وحياة الفقراء في زاويته الشريفة في عكا [1] ، وقد تريثت قبل البدء في الكتابة لعلمي ألا سبيل الى وضع ترجمة كاملة شاملة ، إذ الأمر يحتاج الى تآليف عديدة وإني لأعجز عن القيام بذلك الواجب المقدس .

هذا وقد وُضِعت التراجم لأهل الله للتعريف بمراتب الولاية ، ومن عُرفت مرتبته كانت الترجمة له تكلفاً . ومراتب أقطاب السلسلة الشريفة معروفة عند القوم لا تحتاج إلى تعريف . وإنما القصد من تأليف هذا الكتاب هو تعميم النفع لاخواني في طريقتنا الشاذلية اليشرطية ، بذكر بعض

(١) اعني حياتنا وحياة الفقراء في الزاوية في زمن والدي فالكتاب اختص بذلك العصر الذهبي للطريق بوجوده الشريف قدس الله سره .

مناقب وشمائل سيدي الوالد رضي الله عنه ، وحديث موجز عن اخذه الطريق ورحلته وانتقاله من المغرب الى المشرق .

وليس غريباً عني تأليف مثل هذا الكتاب فقد منّ الله عليّ فولدتُ في « بَيْتٍ يُذْكَرُ فِيه اسْم الله وُيسبّحُ لَهُ فيه بالغدوّ والآصال » ، وقد درجت ونشأت على محبة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ، ومحبة اهل الله في ذلك البيت الكريم في الحمى الشاذلي في - عكا - بين يدي والدي وشيخي القطب الرّباني والغوث الأكبر الصّمداني ، صاحب الوقت مرشدنا وسيدنا الشيخ علي نور الدين اليشرطي الحسني الحسيني الشاذلي التونسي المغربي قدّس الله سرّه ، فهو من الذين انعم الله عليهم بالولاية الكبرى والصدّيقية العظمى ، وهو الفرد الكامل خاتم اقطاب سلسلة الطريقة الشاذلية الشريفة ، الطريقة المبنية على سلوك اخلاق الأنبياء والأصفياء . فقد اختصه الله عزّ وجلّ بشرف الدعاء اليه وجعله مظهراً من مظاهر الرحمة والهداية والكمال بالوراثة المحمّدية (والعلماء ورثة الأنبياء [١]) نفعنا الله به وأفاض علينا من بركاته آمين .

وأعترف اني لست بالكاتبة الأصيلة المتعمقة بعلوم اللّغة وفنونها وإنما انا فقيرة الى الله سبحانه ، سائرة في طريقه القويم ، أضع كتابي هذا بالهمة والحال بنفحة من نفحات الطريق .

وكنتُ قرأت أبياتاً معدودات ، للشيخ الأكبر سيدي محيي الدين ابن عربي رضي الله عنه ، سمّاها رحلة الى الحقّ ، فأعجبت بتلك التسمية وسمّيت كتابي بها مقتديةً به .

* * *

وكان لا بد لي ، من كتابة بعض فصول في التصوّف والطريق لزيادة الايضاح ، فيما يحتاج اليه السالك في الطريق وطالب المعرفة والتحقيق ، وقد اعتمدت في كتابي هذا على آراء وأقوال جماعة من أئمة السادة الصوفية ؛

(١) حديث نبوي شريف اخرجه الاربعة .

أخذتها عن مؤلفاتهم القيّمة ، والتي هي من امهات كتب التصوّف إما نقلًا عنها او اقتباساً او تلخيصاً ، ولا عجب في اعتمادي علـــى هؤلاء السادة الكرام ، فهم أئمة فحول جمعوا بين العلم في الشريعة والحقيقـــة ، بالفروع والاصول ، في الفقه والحديث والتفسير والأصول والمنطق ، وغيرها من العلوم . فإن علوم اهل هذا الشأن تُشارك باقي العلوم في العقل والنقل ، وتتميّز عنها بالذوق والوجد [1] ، والمنازلة . وقد ألف جماعة منهم كتباً ذكروا فيها الاسانيد ، فعلوا ذلك رداً على من يقول : إن هذا العلم لم يردْ به الكتاب والسنّة ، فاشتغلوا بما اشتغل به علماء الظاهر بعلم الاسناد ، ولكنهم فاتوهم بما لم يصل اليه فهمهم من علم القرب والوداد [2] .

(وقد نصّ جماعة منهم حيث ذكروا حدّ الفقه ، على ان ابواب التصوف من الفقه ؛ ووافقهم ابن السبكي في – جامع الجوامع – وضمّ إليه مسائل اصول الدين ، التي يجب إعتقادها فقال : هي عندي فقه) .

وقال الشعراني والسيوطي وجماعة من أئمة التصوف : (إن التصوف فقه بلا شك ، فإن اكثره تكاليف واجبة ومندوبة ، ومنها محرّمة ومكروهة . وقالوا : التصوف زُبدة عمل العبد ، إذا خلا عمله من العلل وحظوظ النفس ، كما ان علم المعاني والبيان زبدة علم النحو ، بل هو سرّه ولطائفه ؛ فمَنْ جعل علم التصوف مستقلًا فهو صادق ، ومن جعله من عين احكام الشرع فهو صادق) [3] .

ويحدثنا الشعراني في طبقات الأولياء ، والقُشيري في رسالته ، عن إذعان الشافعي لشيبان الراعي حين طلب الامام احمد ابن حنبل من شيبان ، يسأله عمّن نسي صلاة لا يدري اي صلاة هي ، وإذعان الامام احمد ابن

---

(١) الذوق لطف من الارواح يبرزه — معنى اللسان بما في القلب من حكم

قوانين الاشراف للشيخ ابي المواهب ص ٧٥ .

(٢) كتاب تأييد الحقيقة العلية بتشييد الشاذلية تأليف الحافظ الكبير الإمام السيوطي ص ٣٦ .

(٣) طبقات الاولياء تأليف الشيخ عبد الوهاب الشعراني ، ص ٤ ص ٥ وكتاب تأييد الحقيقة العلية تأليف السيوطي ص ٢١ .

حنبل ، حين قال شيبان : (هذا رجل غفل عـــن الله فجزاؤه ان يؤدّب) وكذلك إذعان الامـام احمد ابن حنبل لأبي حمزة البغدادي ، واعتقاده حين كان يرسل اليه دقائق المسائل ويقول : (ما تقول في هذا يا صوفي ؟) ثم يحدثنا الشعراني عن إذعان ابي عمران للشبلي حين امتحنه بمسائل ، وأفاده بسبع مقالات لم تكن عند ابي عمران [1]

وذكر الامام جلال الدين السيوطي في كتـابه تأييد الحقيقة العلية ، فقال (كان إمام الشافعية ابو العباس ابن سريج احد اصحـــاب وجوه الفضل على جميع الاصحاب حتى قيل انه افضل مـن المزني « كذا » . ذكره الشيخ ابو اسحق الشيرازي في ترجمته ، يحضر مجلس الجنيد ، ويسمع كلامه فيقول (أشهد ان لهذا الكلام صولة ليست بصولة رجل مبطل) وعن ابن سريج انه تكلم يوماً فأعجب به بعض الحاضرين فقـال : (هذا ببركة مجالستي لأبي القاسم الجنيْد) [2] .

وحكى ابن السبكي في طبقـاته عن السّمعاني انه روى : (ان ابا القاسم القشيري حجّ في سنة من السنين ، وقد حج اربعمائة من المسلمين من اقطار البلاد وأقاصي الأرض ، فأرادوا ان يتكلم واحد منهم في حَرم الله ، فاتفق على الاستاذ القشيري ، فتكلم هو باتفاق منهم ، وكان ولده ابو النصر يحضر مجلسه الائمة ، قال ابن السبكي : لزم الائمة مثل الامام ابي اسحق الشيرازي الذي هو فقيه العراق في وقته وعتبة منبره ، واطبقوا على انه لم ُير مثله في تبحُّره ، يحضر مجلس ابي النصر ، ثم قـــال ابن السبكي : وأعظم ما عظـُم به ابو النصر ، ان إمام الحرمين ، وهو عصريه ، نقل عنه في كتاب التوصية ، من النهاية ، وهذا فخار لا َيعدِله شيء [3] .

(١) كتاب طبقات الاولياء للشعراني ص ٥ الرسالة القشيرية ص ٢٤ .

(٢) تأييد الحقيقة العلية بتشييد الطريقة الشاذلية للسيوطي ص ٦٧ .

(٣) تأييد الحقيقة العلية بتشييد الطريقة الشاذلية للسيوطي ص ٦٨ .

تعريف الجنيد رضي الله عنه من كبار ائمة القوم وساداتهم ، بل هو شيخ الصوفية على الاطلاق ، كان من ائمة الفقه يفتي الناس على مذهب ابي ثور صاحب الامام الشافعي رضي الله عنه وراوي مذهبه

قال السيوطي : « ونقل عنه النَّوَوي والرّافعي ، وكان ابو الحسن الشاذلي يحضر عنده الأئمة مثل سلطان العلماء الشيخ عز الدين بن عبد السلام ، والشيخ تقي الدين ابن دقيق العيد ، هذا مع ما صح عن ابن دقيق العيد من تشديد النّكير على الاتحادية ، فلو رأى في كلام الشاذلي ذرة من ذلك لكان اول مبادر الى انكارها ، قال الشيخ تاج الدين بن عطاء الله الاسكندري في لطائف المنن : (سمعت الشيخ تقي الدين بن دقيق العيد يقول : ما رأيت أعرف بالله من الشيخ ابي الحسن الشاذلي ؛ ثم قال : واخبرني الشيخ مكين الدين الأسمر قال : حضرت بالمنصورة في خيمة فيها الشيخ عز الدين بن عبد السلام ، والشيخ مجد الدين بن علي بن وَهبٍ القشيري ، والشيخ محي الدين الاخميمي ، والشيخ ابي الحسن الشاذلي ، ورسالة القشيري تقرأ عليهم ، وهم يتكلمون ، والشيخ ابو الحسن صامت الى ان فرغ كلامهم ، فقالوا : نريد ان نسمع كلامك . فقال : انتم سادات الوقت و كبراؤه ، وقد تكلمتم ، فقالوا : لا بد ان نسمع منك ؛ فسكت الشيخ ابو الحسن ساعة ، ثم تكلم بالأسرار العجيبة ، والعلوم الجليلة ، فقال الشيخ عز الدين بن عبد السلام ، وقد خرج من الخيمة وفارق موضعه : اسمعوا هذا الكلام الغريب القريب العهد من الله ،[1] قال السيوطي : (وكان الشيخ ابو العباس المرسي يحضر

القديم ، كان يفتي الناس في حلقته وهو ابن عشرين عاماً ، اخذ التصوف عن خاله السري السقطي ، وصحبه وصحب الحرث المحاسي ، وقد ترجمه واثنى عليه كثير من العلماء ، منهم الشيرازي والسبكي والقشيري والمناوي والنووي والسيوطي والشعراني وغيرهم ، اذ لا يخلو كتاب من كتب الطبقات من ترجمة له ، قال المناوي: (الجنيد ابو القاسم بن محمد البغدادي هو بالاتفاق شيخ الصوفية على الاطلاق واذا قيل سيد الطائفة فهو المراد) وقد كتب عنه بعض العلماء المستشرقين فقد عنى المستشرقون بترجمة جماعة من السادة الصوفية الاعلام وبدراسة كتبهم ومذاهبهم ، والاشعار الصوفية ، ونقلوا الشيء الكثير من كتب الصوفية واشعارهم الى اللغات الاجنبية من هؤلاء المستشرقين : رينولد نيكلسون ، ولويس ما سينيون ، وآسين يلاس ، وفون كريمر ، وجولد سيهر ، وادوارد جرنفيل ، وماكس هورتن ، ودوزي ، وريتشارد هايتمان ، ومرغريت سميث ، وليوبولد فايس ، الذي اسلم وتسمي باسم محمد اسد ، وتوفي سيدي الجنيد في عام ٢٩٧ هجرية في مدينة بغداد ودفن فيها وضريحه يزار .

(١) تأييد الحقيقة العلية بتشييد الشاذليــة للسيوطي ص ٦٨ لطائف المنن للشيخ تاج الدين بن عطاء الله الاسكندري .

مجلسة الأئمة . قال تلميذه الشيخ تاج الدين بن عطاء الله الاسكندري ، في لطائف المنن : كان علماء الزمن يسلّمون له هذا الشأن ، حتى كان شيخنا العلاّمة شمس الدين الأيكي ، والأصفهاني ، يجلسان بين يديه جلوس المستفيد ، آخذين عنــه ومتلقّين ما يُبديه) وكان الشيخ تاج الدين بن عطاء الله الاسكندري [1] يحضر مجلس وعظه الأئمة ، مثل الشيخ تقي الدين السبكي امام

---

(١) **مولانا** الشيخ تاج الدين احمد بن محمد بن عطا الله الاسكندري ،احد اقطاب سلسلة طريقتنا الشريفة ورث القطبانية عن شيخه مولانا ابي العباس المرسي رضي الله عنهما .

كان الشيخ تاج الدين بن عطاء الله الاسكندري من اكابر ائمة عصره في التفسير والحديث والفقه والاصول ، والكلام والمنقول والمعقول ، وعلوم اللغة وفنونها ، اخذ عنه المجتهد الكبير الشيخ تقي الدين السبكي ، واستوطن القاهرة ، وكان له كرسي في الازهر الشريف يجلس عليه ليشرح آثار السلف ، وله تآليف عديدة (الحكم العطائية ، لطائف المنن في مناقب أبي العباس وشيخه ابي الحسن ، التنوير في اسقاط التدبير ، تاج العروس ، مفتاح الفلاح ومصباح الارواح) وقد توفي في المدرسة المنصورية بالقاهرة سنة ٧٠٩ وقد ذكره واثنى عليه وترجمه في كتب الطبقات وغيرهــا جماعة من الكبراء الفضلاء منهم مولانا الشيخ احمد زروق رضي الله عنه ، والسبكي ، والسيوطي ، وابن عجيبة ، وابن عباد والشعراني ، وغيرهم من الائمة الذين جمعوا بين العــلم في الظاهر والباطن واهتم بعض المستشرقين بكتاب الحكم وكتبوا عنه .

ولما صنف حكمه عرضها على شيخه ابي العباس المرسي فتأملها وقال : « لقد اتيت يا بني في هــذه الكراسة بمقاصد الاحياء وزيادة ، قال في كشف الظنون : ولذلك تعشقها ارباب الذوق لما رق لهم من معانيها وراق ، وبسطوا فيهــا القول وشرحوها » وللحكم شروح كثيرة منها شرح الشيخ ابن عجيبة ، وشرح الشيخ ابن عباد ، وهما من ائمة العلم في الظاهر والباطن ، وشرحت الحكم العطائية باللغة التركية واللغة المالوية ، انظر معجم سركيس ، وفهرست دار الكتب المصرية ، وانظر ما كتب عنه – اي – عن الشيخ تاج الدين ابن عطاء الله في دائرة المعارف الاسلامية .

وقد تحدث الدكتور زكي مبارك في كتابه التصوف الاسلامي في الآداب والاخلاق عن الحكم العطائية فقال : في ص ١٣٨ « يوجد في الكلام البليغ صور واشارات تتفاوت في ادراكها العقول ، وقد يكون النص البليغ واضحاً في لفظه ومعناه ، ومع ذلك يظل كالحسن الفائق لا تجتلى فتنه بنظرة ولا بنظرتين وانما تطالع فيه العين كل يوم باباً من ابواب الفتون ، كالبحر تعرف هوله وجلاله ثم ترى فيه كلما واجهته ضروباً جديدة من الهول والجلال ، وقال في ص ١٥٩ ولو اضفنا الى ذلك ما ظفرت به الحكم العطائية من الشرح والتفاسير وما اوحت الى الناس من مختلف المعاني لرأينا كيف كانت قيمتها من الوجهة الادبية والفلسفية ، ولا يغض من الحكم انها ظلت مجهولة في التاريخ الادبي ، لأن مؤرخي الادب غفلوا عن امثال هذه الفرائد ، فلم يكن لها من عنايتهم نصيب . وقد قلنا في غير

وقته تفسيراً وحديثاً وفقهاً وكلاماً ومنقولاً ومعقولاً ، بل المجتهد الذي لم يأت بعده مثله ولا قبله من دهر طويل » وقد ذكر السبكي في بعض كتبه ، أخذه عن الشيخ تاج الدين وحضوره مجلسه ، ونقل عنه انه متكلم الصوفية على طريق الشاذلية [1] .

قال السيوطي « في المعجم للسبكي : انه قرأ عنه كتاب الحكم وذكر فيه قطعة منه قُرأت عنه واتصلت لنا بالسند » . وقال ابن السبكي : « ان طريقة الجنيد مقوّمةٌ خالية من البدع ، وطريق الشاذلية في المتأخرين ، هي طريقة الجنيد ، دائرة مع الكتاب والسنة ، واقفة مع الشرع الشريف ، زاجرة عن الخواطر التي لم توزن بميزان الشريعة » [2] .

وإيضاح ذلك انهم كلهم ائمة عدول اختارهم الله لدينه ، فمن دقق النظر علم انه لا يخرج شيء من علوم اهل الله عن الشريعة ، وكيف تخرج علومهم عن الشريعة والشريعة هي التي اوصلتهم الى الله .

قال القطب القسطلاني رضي الله عنه ، في علوم هذه الطائفة : « مواجيد ترد عليهم من سوابق اعمال صححوها حصلت لديهم ، واحوال ورثوها عن اعمال صححوها ، فلا يرث الاعمال إلا من صحح الاحوال ، واول

موطن من هذا الكتاب : ان رجال الادب شغلوا باسرى الحواس ولم يهتموا باسرى القلوب ، ولعل هذا الفصل يذكر رجال الادب بعظمة ذلك الاديب المجهول فا تقل كلماته في الادب مع الله عن كلمات ابن المقفع في الادب مع السلاطين . وقال في ص ١٤٣ : نظرة ابن عطاء الله الى الاعمال الدنيوية ادق وأصح من نظرة الغزالي الذي يدعو في مواطن كثيرة الى ترك العلوم الظاهرة ، وينصح بالتجريد المطلق ، ويقبح ما يتصل بالجاه في اعمال الناس ، وعلى ذلك يكون الاهتمام بالعمران وبالمعاش وبالمجتمع مما لا ينافي ادب المريد في نظر ابن عطاء الله وانما يشترط لذلك ان يعرف المريد انه يقف حيث اقامه الله وان لا غرض له من التشبث باعمال المعاش . — انتهى كلام زكي مبارك —

قال شيخنا ابن عطاء الله في كتابه اسقاط التدبير ص ٥٥ « من استرسل من اطلاق التوحيد ورأى ان الملك لله وان لا ملك لغيره ولم يتقيد بظواهر الشريعة فقد قذف به في بحر الزندقة ، وعاد حاله وبالاً عليه ، ولكن الشأن ان يكون بالحقيقة مؤيداً وبالشريعة مقيداً » .

(١) تأييد الحقيقة العلية بتشييد الشاذلية للسيوطي ص ٦٥ لطائف المنن للشيخ تاج الدين بن عطاء الله الاسكندري ص ١١٠ المفاخر العلية بالمآثر الشاذلية للشيخ ابن عباد ص ٤٩ .

(٢) تأييد الحقيقة العلية للسيوطي ص ٦٩ .

ذلك علوم الشريعة المتعيّن عليها من علم الفقه واصول الدين ، على طريق الكتاب والسُّنة والسّلف الصالح »[1] .

فالاولياء رضي الله عنهم . علماء مجتهدون ، لم يأتوا بشرع جديد لكنهم يأتون بالفهم الجديد ، في الكتاب والسنة ، وليس ايجاب مجتهد باجتهاده ، شيئاً لم تصرح الشريعة بوجوبه ، أولى من ايجاب ولي الله حكماً في الطريق لم تصرح الشريعة بوجوبه .

قال مولانا وشيخنا سيدي احمد زرّوق ، قدس الله سرّه : « نسبة التصوف من الدين نسبة الروح من الجسد ، لانه مقام الاحسان الذي فسّره رسول الله صلى الله عليه وسلم لجبريل ، حين سأله عن الاحسان فقال : « أنْ تَعْبُدَ اللهَ كأنّكَ تَراه ، فإنْ لَم تَكُنْ تَراه فإنّهُ يَراكَ »[2] .

وشروط الدخول في مقام الاحسان عند القوم سبعة ، وهي : التوبة ، والانابة ، والزهد ، والتفويض ، والرضا ، والاخلاص ، والتوكل . وهي ليست اجنبية عن الاسلام ولا دخيلة عليه ، فأصول التصوف الاسلامي موجود في القرآن ، والحديث ، والعقيدة الاسلامية ، وشعائر الدين الحنيف . وكل علم لا يؤيده الكتاب والسنة لا يعمل به عند اهل هذه الطائفة .

هذا والاصل في التسمية التي أطلقوها على انفسهم ، وعلى من يدخل في طريقهم ويسلك مسلكهم ، وهي الفقراء : آيات بينات ، واحاديث ، جاء ذكرها فيها ، قال الله تعالى في كتابه العزيز « يا أيُّها الذين آمَنُوا أنتُمُ الفُقراء الى الله[3] » وقال جلّ وعلا على لسان نبيّه موسى عليه الصلاة والسلام « ربِّي إنّي لِما أنزَلْتَ إليّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ »[4] ومعنى الفقر عندهم

---

(١) تأييد الحقيقة العلية للسيوطي ص ٨٣ .

(٢) شرح ابن عجيبة على الحكم العطائية ص ٨ . الحديث اخرجه مسلم ووافقه البخاري على روايته من حديث ابي هريرة ورواه البخاري في خلق افعال العباد والبزار عن انس باسناد حسنه الحافظ ورواه احمد عن ابن عباس وابي عامر الاشعري باسناد حسن .

(٣) سورة فاطر .

(٤) سورة القصص .

ليس من هو في حاجة الى المال ، او الى معونة الغير ، بل معناها ، الفقير الى الله المستغني به عمّن سواه . قال احد الكبراء من اهل المعرفة :

إن الفقير هو الفقيه وإنما راء الفقير تجمعت أطْرافـُها

وقد اختُلف في اصل كلمتَي : صوفيـــة ، وصوفي : فقد اطلقت الأولى على هذا العلم الشريف والثانية على المتحقق به [1] .

---

(١) حديث ملخص عن كتاب الحياة الروحية في الاسلام تأليف الدكتور محمد مصطفى حلمي، مدرس الفلسفة الاسلامية بكلية الآداب في جامعة فؤاد الاول ، قال في ص ٩ (مما لا شك فيه ان التصوف جزء من الاجزاء التي يتألف منها التراث الديني والعقلي والشعوري) ثم هو يرد التصوف الى تحنث النبي صلى الله عليه وسلم – في غار حراء – في الجاهلية اولاً ، ونفسية الرسول صلى الله عليه وسلم وحياته في الاسلام ونسك الصحابة والخلفاء الراشدين واهل الصفة . وبعد ان أفاض بحديثه عن تحنث النبي عليه الصلاة والسلام ، قال في ص ١٣ : « فهذه الحياة التي كان يحياها محمد والتي كانت سبيله الى هبوط الملك عليه ، وسبيل قلبه الى اشراق نور الوحي فيه ، اذا امعنا النظر فيها ، ووازنا بينها وبين حياة العباد والزهاد والصوفية ، رأينا ان التصوف وهو الاسم الجامع لطوائف اولئك وهؤلاء ، وتعاليمهم ، وما يعمدون اليه من رياضات ومجاهدات ، وما يصطنعون في تهذيب نفوسهم من محاسبة ومراقبة ، وما ينتهون اليه بعد هذا كله من الهام مشرق ، ليس من شك في انه وجد بذوره الاولى في هذه الحياة الروحية ، التي كان قوامها عند محمد ذلك التحنث ، والذي كانت ثمرته لديه هذا الوحي المتألق بآيات النبوة : وحقائق التوحيد ، ودقائق العرفان ، فحياة محمد صورة اولى للحياة التي يحياها الزهاد والعباد والصوفية ، بعد ذلك . ويتساءل ، فيقول : « اليس هذا التأمل الذي كان يمعن فيه محمد ويغيب فيه عن كل شيء حتى عن نفسه ، اساساً لهذه الاذواق والمواجيد الصوفية ؟ وعلى الجملة ، اليس التصوف هو رياضة ومجاهدة ، وذوق ووجد ، وكشف ومشاهدة ، واتصال بالمصدر الاول الذي صدر عنه الكون ، وكل ما في الكون ، من آيات الحق والخير والجمال ؟) . ويمضي بحديثه فيقول : (بلى ان محمداً وجد في تحنثه ما يجده الصوفية في مجاهداتهم ورياضاتهم الخ) . وقال في ص ١٥ : « ولو سلمنا جدلاً مع المعترضين بأن رد هذه الحياة الروحية الاسلامية الى هذا التحنث الذي جعل منه محمد رياضة لنفسه معناه ، رد هذه الحياة الى اصل جاهلي لا اسلامي ، فاننا واجدون مع ذلك في حياة محمد النبي الذي تحققت نبوته ، وتمت رسالته عنصراً نفسياً ، يصح ان نتخذ منه اساساً لاذواق الصوفية ومصدراً اول لمواجيدهم ، وقال في ص ٢٤ بعد ان استشهد بالاسراء والمعراج ، وافاض بحديثه عنهما قال : (ينتهي بنا هذا كله الى ان الحياة الروحية الاسلامية ، وجدت بدايتها في تحنث محمد العربي، الجاهلي، اولاً ، وفي حياة محمد النبي المرسل ثانياً، وفي نسك الصحابة وزهدهم بعد هذا وذاك، فحياة الزهاد والعباد والصوفية ومنازعهم في السلوك ومذاهبهم التي عبروا عنها في اقوال منثورة تارة واشعار منظومة تارة اخرى ، كل اولئك ليس في الحقيقة الا ترديداً لهذا اللحن الرائع الذي تغناه محمد لاول مرة في

واستعملت ، كلمة تصوّف ، للدلالة على السلوك ، وكلمة متصوّف ، للدلالة على السالك في الطريق ، وقد اختلف في اصل اشتقاقها ، قيل انها مشتقة من الصوف ، لأن الصوفي مع الله ، كالصوفة المطروحة في الهواء التي لا تدبير لها ، وقيل : انها الصّفة إذ جملته اتصاف بالمحامد وترك الأوصاف المذمومة ، وقيل : انها من صُفّة المسجد النبوي الشريف ، الذي كان منزلاً لأهل الصّفة اصحاب رسول الله عليه الصلاة والسلام ، لأنّ الصوفي تابع لهم فيما أثبته الله عنهم من الوصف ، حيث قال عزّ شأنه (واْصْبِر نَفْسَكَ مَعَ الذينَ يَدْعُونَ ربَّهم بالغَدَاةِ والعَشيِّ يُرِيدُون وَجْهَهُ) [1] .

وذكر مولانا الشيخ تاج الدين بن عطاء الله الاسكندري رضي الله عنه في كتابه لطائف المنن ، عن شيخه سيدنا ابي العباس المرسي قدس الله سرّه انه قال : « الصوفيّ منسوب لفعل الله به ، اي صافاه الله فصوفي » قال وسمعته رضي الله عنه يقول : « الصوفي مركب من حروف اربعة : الصاد ، والواو ، والفاء ، والياء ، فالصاد صبره وصدقه وصفاؤه ، والواو ، وجده

تاريخ الاسلام ورتله معه الصحابة هذا الترتيل الجميل ، الذي كان له صداه القوي في نفوس من استمع اليه واستجاب له) .

وقال المستشرق الانجليزي الاستاذ نيكولسون ، في دائرة المعارف الاسلامية مادة تصوف : « ان اطلاق الحكم بان التصوف دخيل في الاسلام غير مقبول ، فالحق اننـــا نلاحظ منذ ظهور الاسلام ان الانظار التي اختص بها متصوفة المسلمين ، نشأت في قلب الجماعة الاسلامية نفسها إبان عكوف المسلمين على تلاوة القرآن والحديث وتفرسها ، وتأثرت بما اصاب هذه الجماعة من احداث وبما حل بها من نوازل) اهـ .

وقال ابن خلدون في مقدمته : (ان التصوف علم من العلوم الشرعية الحادثة في الملة الاسلامية ، وان اصله يرجع الى ما كان عليه السلف الصالح من الصحابة والتابعين ، ومن بعدهم من اتباع طريق الهدايه ، واصلها العكوف على العبادة ، والانقطاع الى الله تعالى ، والاعراض عن زخرف الدنيا وزينتها ، والزهد فما يقبل عليه الجمهور من لذة ، ومال ، وجاه ، والانفراد في خلوة للعبادة) اهـ.

(١) ايقاظ الهمم لابن عجيبة ص ٦ سورة الكهف .

وقال بعض الادباء وجماعه من المستشرقين : « ان كلمة صوفية مشتقة من كلمة تيوصوفية اليونانية بمعنى الحكمة الربانية . فالصوفي هو الحكيم الالهي ، وقيل : انهـــا مشتقة من الصوف ، لان شعار السادة الصوفية لبس الصوف .

ووده ووفاؤه ، والفاء فقده ، وفقره وفناؤه ، والياء ، ياء النسبة ، إذا تكمل فيه ذلك اضيف الى حضرته »[1] .

وقال الشيخ محي الدين بن عربي رضي الله عنه « التصوّف صافاك الله امره عجيب وشأنه غريب وسِره لطيف ، ليس يُمنح إلا لصاحب عناية وقَدم صدق[2] » وقد صحح هذا كثير من الفضلاء فقال الشيخ ابو الفتح البُستي رضي الله عنه :

تنازع الناس في الصوفيّ واختلفوا جهلًا وظنّوه مشتقاً من الصوفِ
ولستُ امنح هذا الاسم غير فتىً صافىَ فصوفيَ حتى سميَ الصوفي[3]

---

(١) لطائف المنن للشيخ تاج الدين بن عطاء الله الاسكندري ص ٢١ .

(٢) التدبيرات الالهية بالمملكة الانسانية للشيخ محي الدين بن عربي . عن نسخة قديمة خط يد ص ٩ .

(٣) ايقاظ الهمم في شرح الحكم للشيخ ابن عجيبة ص ٦ لطائف المنن للشيخ تاج الدين بن عطاءالله الاسكندري ص ٢١٠ .

تلخيص : عن بعض ما جاء في المحاضرة التي القاها الدكتور احمد غلوش ، رئيس جمعية منع المسكرات في مصر ، والحاصل على درجات علمية شرفية من الجامعات الاوروبية والاميركية صوفي ، منسوب الى الطريقة الخلوتية ، وقد القى المحاضرة باللغة الانجليزية عن التصوّف الاسلامي ، بالجامعة الاميركية بالقاهرة بدعوة من عميد الجامعة ، وقد ترجمت المحاضرة الى اللغة العربية ونشرت في مجلة المقتطف في الجزء الثاني من المجلد الثالث والتسعين ، قال :

بنى ائمة الصوفية الاولون اصول طريقتهم علـى ما ثبت في تاريخ الاسلام نقلًا عن الثقاة ، انه حدث في العام الاول للهجرة ، ان اجتمع بضعة عشر رجلًا من المهاجرين ، ومثل ذلك من الانصار من اهل المدينة ، وتقاسموا بينهم ان يزهدوا في الدنيا ونعيمها الزائل ، ويقبلوا على الله ، ويشغلوا اوقاتهم سيا اوقات السحر والغسق بصنوف العبادات حباً بالله واقتداء برسوله ، فكان هذا بمنزلة قسم قطعوه على انفسهم ، وذلك ما يسمى بالعهد عند اهل الطريق ، وكان اساس زهدهم في الدنيا قول رسول الله صلى الله عليه وسلم (الفقر فخري) ومن هنا جاءت التسمية بالفقراء .

قال « ويروى ان ابا بكر الصديق اول الخلفاء ، كان يقود فريقاً من اولئك الفقراء . كما ان علياً ابن ابي طالب وابن عم النبي ورابع الخلفاء كان يقود فريقاً آخر ، وبعد وفاة ابي بكر خلفه على طريقته سلمان الفارسي احد اكابر الصحابة من اهل فارس ، وبعد وفاة علي تولى خلافة طريقته الحسن البصري ، وكان كل منهما يتسمى خليفة ولهذا صار اسم الخليفة يطلق على كل شيخ من مشايخ الطرق « الصوفية » قال : ويتمسك المتصوفون في اقبالهم على الله بالهمة وصدق العبودية ، بما جاء في

واختلف اهل الطريق في كلمتي ، الفقر والتصوّف ، وهل هما سواء او ان احدهما أتم من الآخر فقال قوم : هما سواء ، وقيل الفقر أعلى لان الكتاب والسُّنة نطقا به ، واسم التصوّف محدَث ، لم يكن في السلف الصالح اطلاقه ، على ان الذي عليه أئمة هذا الشأن ورجَّحه السهروردي الشهاب ، ان اسم التصوّف والصوفي أعلى مرتبة وأوْلى وأخص بالمعنى والمراد [1] .

ويتساءل الكثيرون عن السبب في عدم ظهور الدعوة الى التصوّف في العصر الأول إلا بعد عهد الصحابة والتابعين وفي عدم تسمية الصحابة صوفيِّين ، والجواب على هذا انهم رضوان الله عليهم كانوا بحكم شرف صحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والاقتداء به اهلَ ورع وتقوى وارباب مجاهدة وفناء في حب الله ورسوله ، وكان شرف الصحبة والانتماء اليها أفضل وأشرف من جميع ما يسمّى به [2] .

ولما كان المراد من التصوف التضحية في سبيل القيام بحقوق العبودية لله تعالى والاتصاف بالأوصاف المحمدية ، والاقبال على الله بالعبادات والطاعات ، وبذل النفس والنفيس في سبيل الجهاد الأكبر والأصغر ، في سبيل الله عزّ وجلّ [3] والتفاني في حب الله وحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولذلك كان صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم صوفيِّين

القرآن وهو قوله تعالى « قل ان كان آباؤكم وابناؤكم واخوانكم وازواجكم وعشيرتكم واموال اقترفتموها ، وتجارة تخشون كسادها ، احب اليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين) ولهذا اوجب الفقراء المتصوفون على انفسهم ان يكونوا في جميع الحالات على الاستعداد للتضحية بهذه المصالح الدنيوية في سبيل القيام بحقوق العبودية » .

قال وقد تطور التصوف على مدى الاجيال ، حتى صار علماً قائماً بذاته يسترشد به ، وقد بدأ بتدوين هذا العلم ، وهذبت حواشيه ونظمت مبادؤه حوالي نصف القرن الثاني من الهجرة وكان تأسيس اول طريقة نظامية في سنة ١٤٩ هجرية وبعد ذلك توالى انشاء الطرق الاخرى » اه.

(١) ذكر هذا في معظم كتب التصوف .

(٢) الرسالة القشيرية ص ٧ الى ص ٨ .

(٣) الجهاد الاكبر جهاد النفس ، والجهاد الاصغر جهاد الحرب .

وإن لم يطلق عليهم اسم صوفية [1] .

واما التابعون ، فلقرب عهدهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كانوا اهل عبادة واجتهاد ورياضة ، فلم يكونوا بحاجة لتلقينهم علماً يرشدهم الى امر هم قائمون به ، ولكن بعد ان مضى عهد هؤلاء السادة الكرام ، كانت الدعوة الى التصوف ضرورة ، بعد فترة اصبح الناس فيها يتناسون الاقبال على الله ، بالالتفات الى الدنيا ، واستيلاء الغفلة على نفوسهم ، مما دعا أئمة هذا الشأن ، الى الدعوة اليه . وكذلك كان الحال في امر تدوين علمه ، واثبات شرفه ، في عصر قام فيه كل فريق من العلماء والفقهاء ، وغيرهم بتدوين العلم او الفن ، الذي يجيده اكثر من غيره من العلوم .

لقد كان جمع القرآن في عهد الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم ، ثم نشأ في الصدر الاول بعد تدوين النحو علم الفقه ، وعلم التوحيد وعلوم الحديث واصول الدين وغيرها ، وكان تدوين علم التصوف ايضاً ، كما يجب ان يكون ، من ارباب الهمة والرياضة والزهد والاقبال على الله ، لحاجات النفوس اليه ، تعاوناً على البر والتقوى بالارشاد الى سبيل الله تعالى .

قال شيخنا سيدي احمد زرّوق نفعنا الله به وبأقواله : (لا متّبع إلا المعصوم لانتفاء الخطأ عنه ، او من شُهد له بالفضل ، لان مزكي العدل عدل ، وقد شهد رسول الله عليه الصلاة والسلام بان خير القرون قرنه ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم ، فصح فضلهم على الترتيب والاقتداء بهم كذلك . لكن الصحابة تفرقوا في البلاد ، ومع كل واحد منهم علم ، كما قاله مالك رضي الله عنه ، فلعل مع احدهم ناسخ ومع الآخر ما هو منسوخ ، ومع واحد مطلق ، ومع الآخر مقيّد ، ومع بعضهم عامٌ ، وعند الآخر مخصص ، كما وجد كثيراً ؛ فلزم الانتقال لمن

(١) مقتبس من كتاب قواعد التصوف لشيخنا سيدي احمد زرّوق .

بعدهم ، إذ جمعوا المتفرق من ذلك وضبطوا الروايات فيما هنالك ، لكنهم لم يستوعبوه وإن وقع لهم بعض ذلك ، فلزم الانتقال الثالث اذ جمع ذلك وضبطه وتفقّه فيه فتم حفظاً وضبطاً وتفقهاً ، فلم يبق لاحد غير العمل بما استنبطوه ، وقبول ما اصّلوه واعتمدوه ، ولكل علم في القرن ، أئمة مشهود فضلهم ، علماً وورعاً ، كمالك والشافعي واحمد والنُّعمان للفقه ، وكالجنيد ومعروف وبشر للتصوف ، وكالمحاسبي لذلك ، وللاعتقادات ؛ اذ هو اول من تكلمَ في اثبات الصفات كما ذكره ابن الاثير [1] .

قال : (ولما كان علم التصوف علماً وعملاً ، كان اخذ العلم عن المشايخ اتمّ من اخذه دونهم (بَلْ هُو آياتٌ بَيِّنَاتٌ في صُدُور الذين آمنوا) فلزمت المشيخه سيما والصحابة رضي الله عنهم اخذوا عنه عليه الصلاة والسلام ، وهو اخذ عن جبريل عليه السلام ، واتبع اشارته في ان يكون عبداً ونبيّاً ، واخذ التابعون عن الصحابة ، فكان لكلٍّ اتباع يختصون به كابن سيرين ، وابن المسيّب والاعرج في ابي هريرة ، وطاووس ووهب ومجاهد لابن عباس وغيره . فالعلم والعمل اخذه جلي فيما ذكر كما ذكروا) .

قال : وأما الافادة بالحال والهمة ، فقد اشار اليها أنسُ بقوله : ما نفضنا التراب عن ايدينا من دفنه عليه الصلاة والسلام ، حتى انكرنا قلوبنا ، فأبان ان رؤية وجهه الكريم كانت نافعة لهم في قلوبهم ، إذ مَن تحقق بحالة لم يخل حاضروه منها ، فلذلك امر بصحبة الصالحين ، ونهى صحبة الفاسقين .

وهنا امور لا بد من شرحها ، ولذلك وجدتني اكتبها في ثلاثة فصول : الاول ، في ماهيّة التصوف ، الثاني ، في العقيدة التي اجمع

---

(١) قواعد التصوف لسيدي الشيخ احمد زروق . ص ٣١/٣٣/٣٤ . قرآن كريم الآية ، سورة العنكبوت .

عليها السادة الصوفية ؛ الثالث ، في الطريق ، والطريقة الشاذلية وكلمة موجزة عن شيخنا ومولانا الامام عليٍّ ابي الحسن الشاذلي قدّس الله سرّه ، فإن حصل التوفيق بتأليف هذا الكتاب ، فهذا من فضل ربي ، وإلا فمن عجزي وضعفي ، راجيةً من الله سبحانه ان يمد لي يد المعونة فهو نِعم المولى ، ونعم النصير ، وهو ولي التوفيق .

الفقيرة اليه سبحانه

فاطمة اليشرطية الحسينية

فاتحة الكتاب

في

١ ــ ماهية التصوف

٢ ــ العقيدة التي أجمع عليها السادة الصوفية

٣ ــ الطريق والطريقة الشاذلية

ماهية التصوف

•

لقد اجمع ساداتنا الصوفية رضي الله عنهم ، على ان التصوف ، هو الحكمة التي تعطي سعادة الدارين ، بالمعارف الالهية . قال تعالى. (وَمَنْ يؤْتَ الحِكْمَةَ فقد أُوتِيَ خيراً كثيراً [1]) وقال جلّ وعلا (هُوَ الذي بَعَثَ في الأُمّيّين رَسولاً منهم ، يَتْلو عليهِم آياتِه وَيُزكّيهمْ ، ويُعَلّمُهُمُ الكتاب والحِكمة [2]) ولا بدّ لمن يريد الحصول على شيء من الحكمة الالهية ، من أن يتأدب بآداب الشرع ، وآداب الباطن الذي هو مراقبة الخواطر ، وتمييز الصحيح منها من الفاسد ، والممدوح من المذموم ، وتصفية القلب من حظوظ النفس والعِلل ، وتطهيرها ؛ فإذا تزكت النفس وانجلت مرآة القلب تنعكس فيها انوارُ العظمة الالهية والمعارف القُدسية ، فتنبثق في ذلك القلب انوارُ المعارف اللّدُنيّة ، وتتفجر ينابيع الحكمة الالهية . قال مولانا ابن عطاء الله الاسكندري في الحِكَم : (ربما وردت الانوار فوجدت القلب مشحوناً بالآثارَ ، فارتحلتْ من حيث أتت ، فرّغ قلبك من الأغيار ، يملأه بالأسرار والأنوار [3]) .

فخلاصُ النفس والظفر بمعرفة الله ؛ ميراث التزكية . وقالوا : (إن

---

(١) سورة البقرة .

(٢) سورة الجمعة .

(٣) كتاب الحكم العطائية لسيدي الشيخ تاج الدين بن عطاء الله الاسكندري .

علم التصوف أشرف العلوم وأفضلها على الأطلاق [1]) لأن موضوعه معرفة الله تبارك وتعالى ، بأسمائه وصفاته وأفعاله . والعـــلم يشرُف بشرف المعلوم وبثمراته ؛ فالعلم بالله أشرف من العلم بكل معلوم ، من جهـة ان متعلّـقه أشرف المعلومات وأكملها ، ولأن ثماره أفضل الثمرات ، فإن معرفة كل صفة من الصفات ، توجب حالاً عليه ، وينشأ عن تلك الحال مُلابسة اخلاق سنيَّة ، ولهذا كان العلم بما يتعلق بالله تعــالى من صفات الفعل وصفات الذات ، كما أثبت بذلك السادة الصوفية ، يرقى بصاحبـــه الى التخلّـق بأخلاق الصفات ، فيتخلق من الرحمة باسمـــه الرحيم ، ومن الاحسان باسمه المحسن ، ومن نفع العباد باسمه النافع ، ومن المضرّة باسمه الضّار ، وكذلك باقي الأسماء ، يتخلق فيها فيما هو لائق ، فإذا حصـل ذلك يرقى الى تأثيرها في الموجودات وسرَيان اسرارها في الأكوان ، ثم الى الفناء في شهود الذات الصادر عنها انواع المبدعات .

وهذا معنى الايمـــان بالذوق والوجدان ، وعدم الوقوف عند حد التصديق واليقين وقد اثبت الحق عز وجل تفاوت درجات الايمان بقـوله تعالى في كتابه العزيز (هُوَ الذي أنزلَ السَّكِينَةَ في قُلوبِ المؤْمنينَ لِيَزْدادُوا إيماناً مَعَ إيمانِهِمْ) [2] فقد ينقص الايمان الى حد ان يكون ظنّـًا ، وقد يتزايد الى ان يكون قرباً ووصلاً إذ ما من كمال إلا وعند الله أكمل منه .

ويدور علم الباطن على أصلين : علم بالله وبمعرفة تجلياته باسمائه وصفاته وافعاله ، وعلم بالنفوس ومراتبها وتمامها ونقصها ومحاسنها ومعايبها ، لأن مفتاح معرفة الله عند القوم ، معرفة النفس ، وكيف يعرف ربّــه من لا يعرف نفسه ؟ (فمن عرف نفسه فقد عرف ربَّه) .

وقال الله تعالى « سَنُرِيهِمْ آياتِنا في الآفاقِ وفي أنفسِهِمْ حتى يَتبَيَّنَ

---

(١) هذا ما اجمع عليه السادة الصوفية .

(٢) سورة الفتح .

لَهُمْ أنَّهُ ٱلحَقُّ . » وقال : « وفي أنفُسِكُمْ أفَلا تُبْصِرونَ » [1] .

ثم هناك معرفة حقيقة الدنيا ، ومعرفة احوال الآخرة ، ومراقبة النفس وإيثار حبّ الله على كل شيء . ويتفرع من هذه المعارف الالهية ابحاث عامة واسعة النطاق ترجع كلها الى صدق التوجه الى الله . قال مولانا الشيخ زرّوق : « قد حد التصوف ورسم وفسر بوجوه تبلغ نحو الألفي باب ترجع كلها الى صدق التوجه الى الله ، وإنما هي وجوه فيه » ثم قال : « الاختلاف في الحقيقة الواحدة انْ كثر دل على بعد ادراك جملتها ، ثم هو ان رجع لأصل واحد يتضمن جملة ما قيل فيها ، كانت العبارة عنه بحسب ما فُهم منه ، وجملة الاقوال واقعة على تفاصيله ، واعتبار كل واحد على حسب مثاله علماً او عملًا او حالاً او ذوقاً ، وغير ذلك والاختلاف في التصوف من ذلك » [2] .

فمِن ثَم ألْحق الحافظ ابو نعيم رحمه الله بغالب اهل حليته عند تحلية كل شخص ، قولاً من اقواله يناسب حاله قائلًا : وقيل « إن التصوف كذا) فاشعر أن من له نصيب من صدق التوجه ، له نصيب من التصوف ، وأن تصوفَ كل احدٍ صدق توجهه ؛ فافهم [3] .

وقال ابو نعيم : (قاعدة صدق التوجه مشروطة بكوْنه من حيث يرضاه الحق وبما يرضاه . ولا يصح مشروط بدون شرطه . وقال : فلا تصوُّف إلا بفقهٍ إذ لا تُعرف احكام الله تعالى الظاهرة إلا منه ولا فقْه إلا بتصوف إذ لا عمل إلا بصَدق توجه ، ولا هما إلا بإيمان ؛ إذ لا يصح واحد منها بدونه ، فلزم الجمعُ لتلازمها في الحكم كتلازُم الأرواح للأجساد ، إذ لا فرق إلا فيها ، كما لا كمال لها — أي للأشباح —

---

(١) سورة فصلت .

(٢) قواعد التصوف لسيدي احمد زروق ص ٢ ص ٣ ايقاظ الهمم على شرح الحكم للشيخ ابن عجيبة ص ٤ ص ٥ .

(٣) قواعد التصوف لسيدي الشيخ احمد زروق ص ٢.

إلا بها [1] .

والاعمال عند اهل الفن على ثلاثة اقسام : عمل الشريعة ، وعمل الطريقة ، وعمل الحقيقة . او تقول : عمل الاسلام ، وعمل الايمان ، وعمل الاحسان . أو تقول : عمل العبادة ، وعمل العبودية ، وعمل العبودة [2] . او تقول : عمل اهل البداية ، وعمل اهل الوسط ، وعمل اهل النهاية . فالشريعة ان تعبده ، والطريقة ان تقصده ، والحقيقة ان تشهده . والكلام هنا على الاعمال التي توجب التصفية والتطهير . إذ العلم عند الناس كثير ، والعمل به قليل ، وعلى تقدير وجود العمل ، لا يخلو من طلب الحظوظ وقصْد الحروف ، وذلك مُناف للاخلاص [3] .

قال ابن عجيبة (وقد أشكل على بعض الفضلاء قوله تعالى (أُدخُلوا الجَنَّةَ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلون) [4] مع قوله صلى الله عليه وسلم : (لَن يَدْخُلَ أحدُكُم الجَنَّةَ بِعَمَلِه) . ثم ذكر الشيخ اجوبة كثيرة عن هذا الاشكال ، أذكر منها قوله : إن الله سبحانه لما دعى الناس الى التوحيد والطاعة على أنهم يدخلون فيه من غير طمع فوعدهم بالجزاء على العمل .

فلما رسخت أقدامهم في الاسلام ، اخرجهم عليه الصلاة والسلام من ذلك الحرف ورقّاهم الى اخلاص العبودية والتحقيق ، بمقام الاخلاص ؛ فقال : (لَنْ يَدْخُلَ أحَدُكُمُ الجَنَّةَ بِعَمَلِهِ » . والله اعلم [5] .

---

(١) قواعد التصوف لسيدي الشيخ احمد زروق ص ٢ .

(٢) العبودة . من شاهد نفسه في مقام العبودية لربه . اصطلاحات الصوفية للشيخ محي الدين بن عربي نشرت في ذيل تعريفات الجرجاني ص ١١ .

(٣) شرح الحكم لابن عجيبة ص ١٠ .

(٤) سورة النحل .

(٥) شرح الحكم لابن عجيبة ص ١٢ و ص ١٣ وفي رواية ثانية (لن ينجي احداً منكم عمله) رواه البخــاري .

والصوفي العارف الواصل ، لا يقوم بالعبادة لجلب ثواب ، او لخوف عقاب ، بل تقرباً لله ، واحتساباً لوجهه الكريم ، وامتثالاً لأمره . فقد رُوي عن السيدة العابدة العارفة بالله ورسوله رابعة العدويّة رضي الله عنها ، انها كانت تصلّي في كل ليلة مائة ركعة ، ثم تخاطب الحق عزّ وجلّ قائلة : « لا خوفاً من نارك ولا طمعاً بجنّتك ، بل ابتغاء وجهك الكريم) ، ومن اقوالهم المأثورة « ان تكلم العارف فبالله ، وان سمع فمن الله ، وان تحرك فبأمر الله ، وان سكن فمع الله ، فهو يعيش بالله ولله ومع الله) .

العقيدة

التي اجمع عليها السادة الصوفية

●

أورد الامام السيوطي في كتاب « تأييد الحقيقة العلية بتشييد الطريقة الشاذلية » عن صاحب – التعرّف [1] – انه قال :

« أجمعت الصوفية على ان الله تعالى واحد أحد ، فرد صمد ، قديم ، عالم ، قادر ، حقّ ، سميع ، بصير ، إله ، سيّد ، مالك ، ربّ ، رحمن ، رحيم ، مُريد ، حكيم ، متكلم ، خالق ، رازق ، موصوف بكل ما وصف به نفسه ، مسمىً بكل ما سمّى به نفسه ، لم يزل قديماً بأسمائه وصفاته ، غير مشبّه بالخلق بوجه من الوجوه ، لا تشبه ذاته الذوات ، ولا صفته الصفات ، ولا يجري عليه شيء من سمات المخلوقين ، لم يزل سابقاً متقدماً المحدَثات ، موجوداً قبل كل شيء ، لا قديم غيره ، ليس بجسمٍ ولا بشبح ، ولا شخص ولا صورة ، ولا جوهر ولا عرَض ، ولا اجتماع له ولا افتراق ، ولا يتحرّك ولا يسكن ، ولا يزداد ولا ينقص ، ليس بذي أبعاض ولا اجزاء ، ولا جوارح ولا اعضاء ولا بذي جهات ، لا تجري عليه الآفات ، ولا تأخذه السِّنات ، ولا تداوله الاوقات ، ولا تعيّنه الاشارات ، ولا يحويه مكان ، ولا يجري عليه زمان ، لا تجوز عليه المماسّة ، ولا

(١) كتاب التعرف الى مذاهب اهل التصوف ص ٥١ ص٥٢ تأليف الامام العارف(ابو بكر محمد بن اسحق البخاري الكلاباذي المتوفي ٣٨٠هـ–٩٩٠ م) نشر لاول مرة بتصحيح واهتمام الاستاذ ارثر جون اوبري زميل كلية بمبروك في جامعة كمبردج سابقاً ومدرس الادب اللاتيني واليوناني في جامعة مصر ، سنة ١٣٥٢ هـ/ ١٩٣٣ م ص ١٣ ص ١٤ . تأييد الحقيقة العلية للامام السيوطي ص ٥١ و٥٢ .

العزلة ، ولا الحلول ، ولا تحيط به الأفكار ، ولا تحجبه الأستار ، ولا تدركه الابصار ، لم يسبقه قبل ، ولم يقطعه بُعد ، ولا يغادره من ، ولا يوافقه عن ، ولا يُظله فوق ، ولا يُقله تحت ، ولا يقابله حد ، ولا يزاحمه عند ، ولا يأخذه خلف ، ولا يحده امام ، ولا يُظهره قبل ، ولا يقيده بَعد ، ولا يجمعه كل ، ولا يوجده كان ، ولا يفقده ليس ، ولا يستره خفاء ، تقدّم الحدوث قِدمه ، والقِدم وجوده ، والغاية أزله ، إن قلتَ متى ؟ فقد سبق الوقت كونه ، وإن قلت كيف ؟ لا يجتمع صفتان متضادتان لغيره إقناعاً بذلك ان يشبهوه . فعله من غير مباشرة ، وتفهّمه من غير ملاقاة ، وهدايته من غير إيجاد ، لا تُنازعه الهمم ، ولا تخالطه الافكار ، ليس لذاته تكييف ، ولا لفعله تكليف » .

واجمعوا انه لا تدركه العيون ولا تهجم عليه الظنون ، لا تتغيّر صفاته ولا تتبدل اسماؤه لم يزل كذلك ولا يزال ، هو الاول والآخر ، والظاهر ، والباطن ، وهو بكل شيء عليم (ليس كَمِثْلِهِ شَيءٌ وهو السَّميعُ البَصيرُ) [1] .

وقال ايضاً : (وأجمعوا ، على انه تعالى لا يُرى في الدنيا بالأبصار ولا بالقلوب الا من جهة الأيقان – أي – الأيقان بوجوده تعالى ، لأنه غاية الكرامة وافضل النِعم [2] . ثم شرح قول الصوفية على التخلق بالصفات فقال : « ربما ظُن ان المتخلق اتصف بصفات الله حقيقة ، وهذا مُحال ، انما اخذ الاسم فقط ، لا المعنى الذي وُصف به الباري فالرحيم مثلاً يطلق على الله ، وعلى غيره ، لكن معناه في حق العبد ، رقة القلب ، وهو محال على الله ، فالرحمة في حقه سبحانه ، ارادة إيصال الخير او فعله ، على الخلاف في كونها صفة ذات او صفة فعل » .

---

(١) سورة الشورى .

(٢) تأييد الحقيقة العلية للامام السيوطي ص ٥٢ كتاب التعرّف ص ٩٤ .

وأورد السيوطي قول الغزالي في الاحياء فقال : « الأسامي كلها ، اذا أطلقت على الله وعلى غير الله ، لم تطلق عليهما بمعنى واحد اصلاً ، حتى ان اسم الموجود الذي هو اعظم الاسماء اشتراكاً ، لا يشمل الخالق والخلق بوجه واحد ، بل كلّ ما سوى الله فوجوده تابع لوجوده ، والوجود التابع لا يكون مساوياً لوجود المتبوع وانما الاستواء نظيره اشتراك الفرس والشجر في الجنس وليسا متشابهين في الجنسية ، وهذا التباعد في سائر الاسماء اظهر ، كالعلم والارادة والقدرة وغيرها ، وكل ذلك لا يشبه فيه الخالق الخلق [١] » اهـ .

فإن قيل كيف هذا وقد جاء في اقوال بعض السادة الصوفية المعتَبَرين عبارات عن الرؤية كقول عمر بن الفارض :

واذا سألتكَ ان اراك حقيقةً فاسمح ولا تجعل جوابيَ لن ترى

والجواب على هذا ، تأويل لسيدي الشيخ علاء الدين القونوي احد ائمة الشافعيّة ، وشارح الحاوي فقيه اصولي متكلم علاّمة محقق في كتابه – شرح التعرّف – لمذاهب اهل التصوّف للكلاباذي وقد لخص واورد هذا التأويل الامام السيوطي في كتابه – التأييد – [٢] .

واعتمده وزاد عليه فقال : قال الشيخ علاء الدين : « التأويل ، فبأمور ، احدها ان العبارة عن المعاني المدركة بالوجدان ، على ما هي عليه تعسر جداً ، الا ترى ان الشخص لو اراد ان يصف حلاوة قصب السُّكَّر لمن لم يذقه بعبارة توصل ذلك الى فهمه عن حقيقته لم يستطع ذلك ابداً . ومن الأمور المقررة في العقول ان البديهيّات والضروريات ، لا يمكن حدُّها ؛ وقد قال الامام فخر الدين : « ان العلم لا يُحد لأنه ضروري » وقال إمام الحرمين : « انه نظري عسر الحد فيه » قال : وللعارف منهم معنى بقلبه فيريد التعبير عنه فلا يمكنه عبارة

(١) تأييد الحقيقة العلية للامام السيوطي ص ٥٣ كتاب التعرّف ص ٢١ :
(٢) تأييد الحقيقة ص ٧٢ و ٧٨ .

تعطيه ، فيأتي بعبارة موهمة كما قال الغزالي في الفناء : « ان العلماء به قصرت عباراتهم عن إيضاحه وبيانه ، بعبارة مفهمة موصلة للغرض الى الافهام » وكما قال ابن عباد ، في مراتب الشهود : « ان التفرقة بين حقائقها على ما هي عليه ، تعسر العبارة عنها وقد زلت بسبب ذلك أقدام كثير من الناس ، وقال صاحب التعرُّف : « مشاهدات القلوب ومشاهدات الأسرار لا يمكن العبارة عنها على التحقيق ، بل تُعلم بالمنازلات والمواجيد ، ولا يعرفها إلا من نازل تلك الاحوال » وزاد القونوي في شرحه ، « ونظيرُ ذلك حالُ المسرورِ والمهموم ، ومن اتصف بالسرور والهموم ، قال : « وقد يجد الانسان في نفسه اموراً يتحققها وتضيق عنها العبارة ، وتقصر عن تعريفها الاشارة » .

الثاني ، أن يكون من استعمال اللفظ في معنى آخر غير المشهور على ألْسِنة العلماء ، تواضعاً منهم او اصطلاحاً بينهم ، كلفظ الأتحاد ، فإنه يُطلق على المعنى المرادف للحلول ، كما جمع بينهما الغزالي والبيضاوي . وذلك كُفر . ويطلق بمعنى التوحيد وإفراد الامر كله لله ، وقد نبّه على ذلك من أئمة التحقيق الشيخ سعدالدين التفتازاني[1] . ولهذا قال شيخنا – علي وفا – في قصيدة :

وظنوا بي حلولاً واتحاداً وقلبي من سوى التوحيد خالِ

فتبرّأ من الاتحاد بمعنى الحلولِ ، وقال في أبيات أُخر :

وعِلمك أنّ كل الأمرِ عندي هو المعنى المسمّى باتحادِ

فذكرَ أن المعنى الذي يريدونه بالاتحاد اذا اطلقوا ، هو تسليم الأمر لله وتركُ الارادة معه والاختيار والجري على مواضع اقداره من غير اعتراض ، وترك رؤية الخلق وسعة العطاء والمنع اليهم ، وقال ابو ايوب : الخالص من الاعمال ، ما لم يعلم به ملك فيكتبه ، ولا عدو يفسده ، ولا النفس فتعجب به ، قال صاحب التعرف : « معناه انقطاع العبد

(١) تأييد الحقيقة العلية للسيوطي ص ٧٢/٧٣/٧٤ .

والرجوع اليه من فعله » قال : القونوي « إذا كـمل انقطاع العبد الى الله وفناؤه عن فعله يصير فعله كلاً فعل ، فكأنه لم يفعل شيئاً فلا الملك يكتبه ، ولا العدو يفسده ، ولا النفس تعجب به [1] أي على سبيل التشبيه والتقدير ، إذ التقدير اعطى الموجود حكم المعدوم او بالعكس ، قال واكثر ما يقع في كلام هذه الطائفة من الاشارات ، محمول على هذا النوع من الاستعارات ، ومَن حملها على ظاهرها أشكلت عليه معانيها فأساء الظن بهم » .

الثالث ، ان يكون ما وقع في الفاظهم مضافاً الى انفسهم ، وهو مما لا يضاف الا الى الله تعالى ، فانهم يقصدون به حكاية عن الله ، فان الكلام ينقسم الى ما يحكيه المتكلم عن نفسه ، وعن غيره ، وان لم يصرح بالاضافة اليه ، كحديث البخاري عن ابي هريرة رضي الله عنه ، ان النبي صلى الله عليه وسلم قال : (مَا لِعَبْدِي المُؤمِن عِنْدي جَزَاء إذا قَبضْتُ صَفِيَّه من أهْل الدُّنْيا ثُمَّ أحْتَسَبه إلا الجَنَّة) انما قاله صلى الله عليه وسلم حكاية عن ربِّه ، وان لم يصرِّح به ، وقال : (وَمَا مِنّا إلا له مَقَامٌ مَعْلوم) [2] فهذا على لسان الملائكة ، وقال : (وَمَا نَتَنَزَّلُ إلا بِأمْرِ رَبِّكَ) [3] فهذا على لسان جبريل ، وهذا نوع لطيف حررت الكلام فيه – في الاتقان – [4] ومثاله قول مولانا الشيخ – علي وفا – :

كمالُكَ طاعتي في كل حالِ ونقصك ان تعاند في مرادي

فان هذا قاله على لسان الحقيقة ، وكذا قول ابن الفارض رضي

---

(١) – اي – اعمال الخير والافعال التي تقرب الى الله تعالى كالطاعات والعبادات والبذل في سبيل الله ورسوله .

(٢) سورة الصافات .

(٣) سورة مريم .

(٤) كتاب الاتقان في علوم القرآن ، للامام السيوطي صفحة ٧٤ من كتاب تأييد الحقيقة العلية للسيوطي .

الله عنه :

وان عبَد النارَ المجوسُ وما انطفتْ كما جاء في الأخبار في الف حجةِ
فما عبدوا غيري وما كان قصدهم سواي وان لم يُضمروا عقد نيَّتي

قاله ايضاً على لسان الحقيقة مشيراً به الى عبادة الكفار ، وسجودهم للنار والصنم والوثَن ، واقع في الحقيقة لله تعالى ، لأن المذكورات ، أقلُّ من ان تُعبد ويسجد لها ، فتقع السجدة لله على رغم انف الساجد وهو كافر بنيّة السجود لغير الله ، وهذا معنى قوله تعالى (ولِله يَسْجدُ مَنْ في السموات والأرضِ طَوْعاً أو كَرْهاً [1]) . أخرج ابن حاتم في تفسيره عن قتادة في الآية قال : المؤمن يسجد لله طائعاً ، والكافر يسجد لله كارهاً . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن حاتم بسند صحيح قال : (عِبادَتـُهُمْ لِي اجمَعِينَ طَوْعاً وكرهاً) . وقال الفاكهي : وهو احد أئمة المالكية وأحد المتصوفة وأحد اصحاب سيّدنا الشيخ ابي العباس المرسي في حديث – كنتُ سمعَه – فهو فيما يظهر لي على حذف مضاف ، والتقدير كنت حافظ سمعه الذي يسمع به فلا يسمع إلا ما يحلّ سماعه ، وحافظ بصره كذلك ، الى آخره قال : ويحتمل معنى آخر أدقّ من الذي قبله وهو ان يكون معنى سمعه مسموعه لأن المصدر قد جاء بمعنى المفعول . مثل ، فلانٌ املي ، والمعنى انه لا يسمع إلا ذكري ، ولا يلتذ إلا في عجائب ملكوتي ، فلا يمد يده إلا الى ما فيه رضاي ، ورجله كذلك ، نقل هذين التأويلين عنه الحافظ ابن حجر ، في شرح البخاري ، ثم قال : وأسند البيهقي في الزهد عن ابن عثمان الجيزي احد ائمة الطريق قال ما معناه : اسرع الى قضاء حوائجه من سمعه في الاسماع وعينه في النظر ويده في اللمس ورجله في المشي . [2]

قال السيوطي : (وهذا تأويلٌ حسن سائغ وهو لامام صوفي) .

---

(١) الآية سورة الرعد . كتاب تأييد الحقيقة العلية للسيوطي ص ٧٤ .

(٢) تأييد الحقيقة العلية للسيوطي ص ٦٦ .

ثم قال : قال الحافظ ابن حجر « وحمله بعض المتأخرين الصوفية على ما يذكرون من مقام الفناء والمحْو ، وأنه الغاية التي لا شيء وراءها ، هو ان يكون قائماً باقامة الله له ، محباً بمحبته له ، ناظراً بنظره له من غير ان يبقى معه بقية تُناط باسم ، او تقف على رسم او تتعلق بأمر او توصف بوصف ، قال : ومعنى هذا الكلام انه يشهد إقامة الحق له ، حتى قام ، ومحبته له حتى احبه ونظره الى عبده ، حتى اقبل ناظراً اليه بقلبه ، ولا إشكال في هذا المعنى) [1]

وأختم هذا البحث ، بقول شيخنا ومولانا الشيخ احمد زرّوق قدس الله سره في كتابه – قواعد التصوف – قال : (لا بد من تحقيق اصول الدين وإجرائه على قواعده عند الأئمة المهتدين لأن مذهب الصوفي تابع لمذاهب السلف في الاثبات والنفي ، وفصول الاعتقاد ثلاثة : اولها ما يُعتقد في جانب الربوبية ، وليس عندهم إلا التنزيه ، ونفي التشبيه مع تفويض ما اشكل بعد نفي الوجه المحال ، اذ ليس ثم الحن من صاحب الحجة بحجته .

الثاني ، ما يُعتقد في جانب النبوة ، وليس الا إثباتها وتنزيهها عن كل علم وعمل وحال ، لا يليق بكمالها مع تفويض ما أشكل بعد الوجه المنقص ، اذ للسيد ان يقول لعبده ما شاء ، وللعبد ان ينسب لنفسه مايريد تواضعاً مع ربّه ، وعلينا ان نتأدب مع العبد ، ونعرف مقدار نسبته [2] .

الثالث ، ما يُعتقد في جانب الدار الآخرة ، وما يجري مجراها من الخبرات ، وليس إلا اعتقاد صدق ما جاء من ذلك على الوجه الذي جاء عليه ، من غير خوض في تفاصيله الا بما صح واتضح . والقول الفصل في كل مشكل . ذلك ما قاله الشافعي رضي الله عنه اذ قال : آمنّا بما

(١) تأييد الحقيقة العلية للسيوطي ص ٦٦ و ٦٧ .

(٢) رسول الله صلى الله عليه وسلم عبده ورسوله .

جاءَ من عند الله علـــى مراد الله ، وبما جاء عن رسول الله على مرادِ رسول الله . وقال مالك رضي الله عنه : الاستِواء معلوم ، والكيفُ غير معقول ، والايمان واجب ، والسوآل عنه بدعة ، وهو جوابٌ عن كل ما اشكل من نوعه في جانب الرُّبُوبِيّة .

« وهذا مذهب الصوفية في كل صفة سمعيّة » [1] .



(١) قواعد التصوف لسيدي احمد زروق ص ٢٥ .

الطريق

والطريقة الشاذلية

●

المراد بالطريق هنا ، طريق السلوك الى الله ، وهي طريق السادة الصوفية . ولها ظاهر وباطن ، فظاهرها ما يتعلق باصلاح الجوارح ، وباطنها ، ما يتعلق باصلاح العوالم الباطنية ، فلأهل هذه الطريقة الخاصة ، كمال المعرفة والمراقبة للحق سبحانه في الحركات والسكنات والانفاس واللحظات ، حتى يستوي سلطان الحق على القلوب ، فيضمحل ما تعلقت به او سكنت اليه من احوال الدنيا وخطوبها ، كما قال الغزالي في تعريف منازل الطريق في جواهر القرآن قال : (مقاصد القرآن ستة : سادسها تعريف منازل الطريق واليه الاشارة بقوله سبحانه في سورة الفاتحة : (إِيَّاكَ نَعبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِين) وقال الطيبي في – حاشية الكشاف – : (العلوم التي هي مناط الدين اربعة ، كلها في الفاتحة ، علم الاصول ، وعلم الفروع ، وعلم القصص ، وعلم ما يحصل به الكمال ، وهو علم الاخلاق واجلُّه الوصول الى الحضرة الصمدانية ، والالتجاء الى جناب الفردانية ، والسلوك لطريقه ، والاستقامة فيها ، واليه الاشارة بقوله : (وإياكَ نستعينْ ، اهْدنا الصِّراطَ المستقيم) ؛ ويؤخذ من بقية السورة بطريق الاشارة ان ثم طرقاً اخرى متشعبة خارجة عن سنن الاستقامة ؛ فليحذر منها ، وهي طريق المغضوب عليهم والضّالين) انتهى .

وقد اثبت جماعة من السادة الصوفية ، ان ليس التصوف في قراءة الكتب المؤلَّفة فيه ، وانما هو السعي في اصلاح القلب وتطهيره من

الامراض الخبيثة ، وتهذيب النفس وتفقد عيوبها وارجاعها الى جوهرها الاصلي كما قال تعالى : « يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ، إِرْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً » . [1]

والطريق مهما كثرت وتنوعت ، فهي ترجع الى العلم والعمل ، قال مولانا وشيخنا احمد زرّوق رضي عنه ، في قواعد التصوف : (تعدد وجوه الحسن يقضي بتعدد وجوه الاستحسان ، ومن ثم كان لكل فريق طريق ، فللعامي تصوف حوته كتب المحاسبي ، ومن نحا نحوه ، وللفقيه تصوف رامه ابن الحاج في مدخله ، وللمحدّث تصوف ، حام حوله ابن عربي في – سراجه – وللعابد تصوف ، دار عليه الغزالي في – منهاجه – ؛ وللمتريّض تصوف نبّه عليه القشيري في رسالته ، وللناسك تصوف ، حواه القوت والاحياء ، وللحكيم تصوف ، أدخله الحاتمي في كتبه ، وللمنطقي تصوف ، نحا اليه ابن سبعين في تآليفه ، وللطبائعي تصوف ، جاء به البوني في – أسراره – وللأصولي تصوف ، قام الشاذلي بتحقيقه فليعتبر كل بأصله من محله) اهـ[2] .

والسر الأعظم في طريق الارادة قوله سبحانه (الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ، أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللهُ واولَئِكَ هُمْ أُولُو ٱلْأَلْبَابِ [3]) وعرّف الطريق الشيخ ابو بكر الطمستاني فقال : « الطريق واضح ، والكتاب والسنة بين أظهرنا ، وفضل الصحابة معلوم بسبقهم الى الهجرة وصحبتهم ، فمن صحب الكتاب والسُّنّة وتغرّب عن نفسه والخلق وهاجر بقلبه الى الله فهو الصادق المصيب » [4] .

وقد قسم الطريق سيدي الشيخ ابن عباد الشاذلي رضي الله عنه ، في

---

(١) سورة الفجر .
(٢) قواعد التصوف لسيدي احمد زروق ص ٢٠ .
(٣) سورة الزمر .
(٤) الرسالة القشيرية للامام الشيخ عبدالكريم ابو القاسم القشيري ص ٢٩ .

كتابه المفاخر العلية ، الى قسمين ، والسائرين فيه الى فرقتين : الفرقة الأولى ، اهل طريقة الجلاء والأشراق ، وهي طريقة استعمال الرياضيات ، وتزكية الاخلاق ، والفرقة الثانية اهل طريقة البحث والاشتغال بالعلوم ، مع السعي في اصلاح القلب وتهذيب النفس .

ثم اورد ما ذكره شيخنا سيدي احمد زرّوق رضي الله عنه احد اقطاب الطريقة الشاذلية في – شرح المباحث الاصلية – وقد رأيت ان انقل هذا البحث كما هو لكتابي هذا ، لما فيه – اي – في البحث من فوائد لأبناء الطريق .

قال عن الفريق الاول .

(إن النفس في اصل نشأتها ، كالمرآة الصقيلة النظيفة ، يتجلى فيها كل شيء يقابلها من ماضي الوجود ، والآتي منه ، لكنها متعوقة في ذلك بأحد امرين ، اما صدؤها بصور الاكوان شهوداً واعتماداً واستناداً ، او انصرافها عن المقصود بالتوجه الى غيره من العلوم والعمليات ، وغيرها مما يصرفها عن المقصود بانطباعه فيها .

فلو انجلت في الأمر الأول لأبصرَتْ ، لرفع حجابها . ولو توجهت في الثاني لرأت ، لنفي احتجابها . وما دامت معلّقة بأحدهما ، فهي مصروفة عن المقصود ، ولا يمكنها الوصول اليه ، ولهذا قال في الحِكَم : « كيف يشرق قلبٌ ، صورُ الاكوان منطبعة في مرآته ؟ ، أم كيف يرحل الى الله وهو مكبَّل بشهواته ؟ أم كيف يطمع ان يدخل حضرة الله وهو لم يتطهر من غفلاته ؟ أم كيف يرجو ان يفهم دقائق الأسرار وهو لم يتب من هفواته » ؟!! [1]

وكما ان هذه الطائفة مثّلوا النفس بالمرآة ، فكذلك مثّلوها بعين الماء ، وشبهوا ما يكون في النفس من المعارف والعلوم ، بما يكون في عين الماء ، وقالوا : إن العَين قد تغور ، وإنما يُخرج ماءها الحفر ،

(١) الحكم العطائية للشيخ تاج الدين ابن عطاء الله الاسكندري .

وتمثيلهم النفس بالعين صحيح ، فان النفس فيما يتجلى لها من الحقائق والعلوم يوم الميثاق قد يذهلها عنه ما هي به من الأوهام والأسباب ، فيغور منها كما يغور الماء من العين ، فيحتاج الحفر عنه بفأس المجاهدة ومِسحاة الرياضة حتى تفور كما كانت او احسن ، وهذا الفريق ، هم اهل طريقة الجلاء وتسمّى طريقة الاشراق واجمعوا ان علاج الأصل - اي - علل النفس هو أقرب للبُرء لأن بانقطاع الأصل تنقطع فروعه بخلاف من يعالج فرعاً ، والعلاج هو محاولة الدواء ، ولذلك لا يصح إلا بعد معرفة العلة . والعلة إن لم يُعرف سببها وأصلها لم يفد عدمها في اصلها . وإن افاد في وجه المداواة ، فإما ان يبطيء برؤها بذلك ، او لا يتفق او يكون على غير قياس وهو غرير .

فاعلم اصل علتك ، تظفر ببرئها في أقرب مدة بأدنى معالجة مع الأمن من هيجانها بعد .

وأصل كل داء جسماني ، هو فساد المزاج الى ان يصير فعلها وانفعالها على غير المجرى الطبيعي ، وأصل كل داء قلبي ، إنما هو فساد القصد الذي عنوانه الرضا عن النفس حتى يصير فعلها وانفعالها على غير المجرى الشرعي والحقيقي . بل على وفق الهوى والأوهام الباطلة التي شأنها ضَعف اليقين ورقة الديانة . وعلاج النفس هو كفها عما تريد من النقائص والغفلات حتى لا تقع فيه ، وتطهيرها عما وقعت فيه حتى يزول اولاً بالتقوى والاستقامة ، حتى لا تزال فيها ، وثانياً ، بالتوبة والانابة حتى تنصبغ بلوازمها من التقوى والاستقامة ونحوها .

قال : وهذه الطريقة التي هي طريقة الاشراق والجلاء ، كانت قديمة حتى انها كانت في غير زمن الشريعة لأنها إنما هي صقلٌ لمرآة النفس من غير زائد وهي ايضاً باقية ما بقي الزمان لا ترتفع ، لكنها تارة تجري بالاصطلاح من الخلوات والترتيبات ونحوها وتارة بحفظ الاصول فقط ، وتارة بحفظ الحرمة ليس إلا ، وتارة بمجرد التلقي والالقاء . وهذه الامور لا

تزول أبد الآبدين ، غير ان الاصطلاح قد انقرض في هذه الأزمنة وارتفع انتاجه حسبما دلت عليه العلامات وشهد به الاستقراء . قال بعض مشايخنا رضي الله عنهم : ارتفعت التربية بالاصطلاح في سنة اربع وعشرين وثمانمائة ، ولم يبق غير الافادة بالهمة والحال .

فعليكم باتباع السنة من غير زيادة ولا نقصان ، يعني الجادة مع التزام الصدق وبالله التوفيق .

اما الفريق الثاني . اهل طريقة البحث والاشتغال بالعلوم ، فانهم قالوا : ان الاكتساب من خارج أرقى ، فأشركوا العلوم في اصطلاح طريقتهم ولا غناء للباب عن مفتاحه ، وعالجوا النفس بطريق العلم والعمل ، ذلك لأن ما فيها من الانوار يتعاضد بما يرد عليه من خارج فينفي ما عرض من الظلمة اصلاً وفرعاً بقوته . وهذه الطريقة أتَمُّ في تحصيل الكمال . لأن الاولى ، غايتها الوصول الى ما في النفس من الكمال دون زائد بخلاف هذه ، فانها تحصيل المكتسب مع ما اتصل اليه من المدّخر وهذا معنى كونها ارفع .

وقالت هذه الطائفة ان العلم مفتاح العمل . لقوله صلى الله عليه وسلم : « العِلم إمَام العمَل ، والعمَل تابِعُه ، ومن يَطلُبِ الخَير يُؤتَه ، ومن يَتّق الشرّ يُوقَّهُ ، ومَن عَمِل بِما عَلم أورثَهُ اللهُ عِلمَ ما لا يَعلَم » ، والعلوم التي يُحتاج اليها اربعة هي :

علم الذات والصفات ،

وعلم الفقه

وعلم التفسير والحديث

وعلم الحالات والمنازلات ،

فأما علم الذات والصفات يعني التوحيد . وطريق اخذه ان يحقق ترجمة عقيدة مهذبة كعقيدة الامام ابي حامد الغزالي ، ويأخذ براهينها بأي وجه امكنه دون تعرض للشبه والاشكالات ، مع تشوّفه لمواد ذلك

من الكتاب والسُّنة وشواهد الوجـــود ودلائل الصنع وغيره ، ويجعل ذلك نصب عينيه حتى تنصبغ حقيقته به انصباغاً يقتضي له ثبوت اليقين بوجه يجد لذته ، فاذا حصل له ذلك استمرت في الجولات فيها نفســه الى حد ما قسم لها من غير توقف وســـار بذلك سيراً مباركاً يعرفه عند توجهه فلا حاجة الى وصفه .

واما علم الفقه ، فطريقه فيه ان يأخذ مسلماً عن أئمته المعتبَرين فيه في وقته طالباً صوره من غير زائد حتى يتصور جمـلة الابواب وعقدها من غير زائد ، لان الزيادة مشتتة للذهن ، حتى اذا عرف ذلك تشوف للوجود والنظائر بوجه خفيف للتعاليل والحكم ، ومن يعرف مواد الوجود ووجوهه وتصرف الحق فيه تكلفاً وتعريفاً لان احدهما مرتب على الآخر فيطلع افق القلب طالع التعظيم والاجلال لمن هو اهل له بان يجعل القلب في ذلك لا فيما لا يعني ولا يقتصر على متعلقات المسائل ، فانها مع ذلك مشقة ، لا سيما لمن لا همة له .

اما علم الحديث يعني فقهـــه لا صورة الاداء وكيفيته ، ويستدعي ذلك العلم بالتفسير وهما اللذان تظهر بهما حقائق الانوار مـع العلمين الاولين ، لكن لمن اتبع نظره الى حد بفقه موارد الحكم والحكمة ، ولا يخرج عن حقائق الائمة بل يرجع اليهم لا لمن لا يتقيد بالمنقول ، ولا يتصرف بالمعقول ويستخف بالمنقول ، ولكن كما قيـل ، قف حيث وقفوا ثم فسِّر . ومن اخذه من نصوص الكتاب والسنة ، كان كذلك ان كان محقاً والا فالحديث لغير العـالم مذلة ، ومن فاته الاقتداء فاته الاهتداء . ولذلك لا تجـد اماماً يهمل اقوال السلف ، بل يتبع آثارهم ومن خالط الكتاب والسنة وفقههما عرف ما قلناه ، وهـذا الحرف هو الذي نبّه عليه سيدي الشيخ ابو عبد الله ابن عباد في رسـائله ايضاً عند ذكر البدعة والتقليد فانظره وبالله التوفيق .

واما عـــلم الاحوال والتنزلات ، وما يجري فيهـــا من آداب

ومعاملات ، وذلك الذي اختص به اهل هـذا الشأن ، وفيه طريقان : رؤية الحق من اول قدم ، والعمل على ذلك بالالتجاء اليه ، وهو طريق الشاذلية ومن نحا نحوهم ، وطريق رؤية النفس ، واطلاع الحق عليها والعمل على ذلك ، وهي طريق الغزالي ومن جرى مجراه ، وكل منهم مستنـد للحديث أن تعبد الله كأنك تراه ، وهذا للأولين ، أي الشاذلية ، فإن لم تكن تراه فانه يراك ، وهذا للآخرين ، وطريق الاشتغال بالعلم وعلاج النفس به ، وما اشتملت عليه يقال لهـــا : طريق البرهان ، لأن ليس لأحد فيها مطعن ولا للضلال فيها مدخل ، ولكن لا يقدر عليها غـــير فحول الرجال . اما سلوك العامّي بها فبأن يصحح اعتقاده على عالم يشـق بديانته ويسأل عن علم حاله بوجه يشفيه ، وتطمئن نفسه اليـــه ، ويلزم التقوّى والاستقامة بغاية جهده ، بعد التبصر فيما يتعلّق بحاله ولا يدخـل فيه احتمال ولا تأويل ، ولا دخل من قول إمام معتبر غير إمامـــه ثم يستند في احواله لشيخ ناصح او اخ صالح جرّب الامور ، فيأخذ معه في كل ما يأتي او يدبر هذا إذا لم يجد شيخاً ، وإلا فالشيخ أبصر بحـــاله يسلكه على ما يليق به ، أما عـــلى الطريق الأول ، او على هذا ، ووقف فيه موقف الآداب او ما ظهر من ذلك (اه) [1] .

هذا والطريقة الشاذلية من امهـــات الطرق الصوفية ، فهي تجمع بين العلم والعمل والهمة والحال . وهي طريقة البرهان ، واهلها اهل البحث والاشتغال بالعلوم والمعارف ، وقد اشتملت علي الجـــذب الالـهي ، في حالة الصحو التـــام والمجاهدة والعناية ، واحتوت على الادب والرعاية والتسليم ، وشيّدت بالعلمين الظاهر والباطن ، فلا سكر يؤدي إلى تعدي حدود الأدب ولا صحـو يفضي الى البعد والحجاب ، فقد قرنت بصفات الكمال شريعة وحقيقة ، فاستوت بتوفيق الله تعالى في نقطة الاعتدال ،

---

(١) كتاب المفاخر العلية في المآثر الشاذلية من ص٥٧ الى ص٦١ للشيخ الكبير العارف ابن عباد.
– الشيخ ابن عباد احد ائمة التصوف ، واحد ائمة الفقه وأحد ائمة الحديث ، وله مؤلفات عديدة في علم التصوف وغيره .

وظفرت بهداية الله بوصف التوسط ، وبنيت على الجمع على الله في موقف العبودية بالمشاهدة وعدم التفرقة وملازمة الخلوة والذكر في حدود الشريعة .

وهي طريقة الشكر التي كان عليها قلوب الانبياء والاصفياء ، من الصحابة وغيرهم ، وهي عبادته تعالى على إخلاص العبودية والبراءة من جميع الحظوظ ، مع الاعتراف بالعجز والتقصير مدارها على الشكر والفرح بالله من اول وهلة ، وفي حين البداية ، وليس فيها عظيم مشقة وصاحبها يصوم ويفطر ، ويقوم وينام ويقارب نساءه ، ويأتي بسائر وظائف الشرع الشريف التي تضاد رياضة الابدان ، لأن مبناها على الكتاب والسنة وترك المعاصي وفعل الواجبات واتباع السنن المأثورة وكثرة الذكر مع الحضور .

وقد تمت كلمة الاجماع ، على استحسان طريقة مولانا الامام علي ابي الحسن الشاذلي رضي الله عنه وشكر حالته . وقد ذكر سيدي الشيخ بن عباد رضي الله عنه في كتابه – المفاخر العلية ، في المآثر الشاذلية – كلاماً طويلًا في فضائل سيدي ابي الحسن قدس الله سره ، وفضائل طريقته الشريفة . ونقل عن سيدي شمس الدين الحنفي ، رضي الله عنه ، « ان الشاذلية خصت بثلاث لم تحصل لأحد قبلهم ولا بعدهم ، الاول ، انهم مختارون من اللوح المحفوظ ، الثاني ، المجذوب منهم يرجع الى الصحو ؛ الثالث ، أن القطب منهم » .

وذكر سيدي الشيخ محمود ابو الشامات الدمشقي ، في شرح الوظيفة فقال : قال سيدنا ابو الحسن الشاذلي : (سألت ربي ان يكون قطب الغوث مني الى يوم القيامة ، فسمعت النداء ، يا عليُّ قد استجيب لك) [1] ، وقد ترجمه سيدنا الشيخ تاج الدين بن عطاء الله الاسكندري في كتابه – لطائف المنن – وأثنى عليه الثناء الكثير . وترجمه الشعراني في – طبقاته الكبرى – وقال : (إن شيخ الاسلام تقي الدين بن

(١) قال السيد الجرجاني في تعريفاته : القطب الغوث ، هو عبارة عن الواحد الذي هو موضع نظر الله من العالم في كل زمان ص ١١٩ .

دقيق العيد كان يقول : ما رأيت أعرف بالله من الشيخ ابي الحسن الشاذلي) .

وقد أورد سيدي الشيخ مصطفى نجا ، مفتي بيروت الأكبر ، في كتابه – كشف الأسرار – فقال : (وذكره الشيخ قطب الدين القسطلاني ، وأثنى عليه ، وذكره الشيخ عبد الله بن النعمان ، وشهد له بالقطبانية ، وذكره الشيخ عبد الغفار بن نوح ، في كتابه – التوحيد – وأثنى عليه الشيخ ابو عبد الله الحاج ، والشيخ ابو زكريا يحيى البلبيسي) .

قال : « وممن ذكره وأثنى عليه ، الشيخ سراج الدين بن الملقّن في – طبقات الأولياء – والشيخ جلال الدين السيوطي في – حسن المحاضرة – والشيخ المناوي في – الكواكب الدرية – والشيخ عبد الوهاب الشعراني في – طبقاته الكبرى – وذكره غير هؤلاء . وتخرج بصحبته جماعة من الأكابر ، مثل ابي العباس المرسي ، وأبي الحسن الصِّقلي ، وعبد الله الحبيبي ، وأبي العزائم ماضي ابي سلطان ، والشيخ عبد الحليم ، والشيخ شرف الدين البوني ، والشيخ مكين الدين الأسمر . وغيرهم من اعيان الله تعالى » .

قال : « وكان يحضر مجلسه اكابر العلماء من اهل عصره ، مثل شيخ الاسلام عز الدين بن عبد السلام ، والشيخ تقي الدين بن دقيق العيد ، والشيخ عبد العظيم المنذري ، وابن الصلاح ، وابن الحاجب ، والشيخ جمال الدين بن عصفور ، والشيخ نبيه الدين بن عوف . قال الشيخ مصطفى نجا مفتي بيروت : « وهؤلاء سلاطين علماء الدين شرقاً وغرباً في عصرهم » . فكانوا يحضرون ميعاده بالمدرسة الكاملية في مصر ملتزمين الأدب بين يديه » (اهـ) [1] .

ولم يدخل شيخنا الامام علي ابو الحسن الشاذلي قدس الله سره في

(١) كشف الاسرار للشيخ مصطفى نجا مفتي بيروت ص ١٨ .

طريق الله ، حتى كان يجلس للمناظرة في العلوم الظاهرة ، فقد كان عارفاً جامعاً لدقائق فنونها .

وقد ولد رضي الله عنه بقرية – غمارة – ، من افريقية وهي قريبة من مدينة – سبتة – في المغرب الاقصى في سنة ٥٩٣ هجرية ، وقد تلقى الطريقة الشاذلية وورث القطبانية الكبرى والصديقية العظمى ، عن شيخه الامـــام ابي عبد الله عبد السلام بن مَشيش [1] قدس الله سره ، وبعد اخذه الطريق امره شيخه ان يرحل الى بلد تسمى شاذلة بالقرب من مدينة تونس الغرب ، فكان فيها مبدأ ظهوره ، واليهـــا تنسب السياحات والمنازلات ، ثم انتقل الى تونس ومنها الى بلاد المشرق ، وحج حجات كثيرة ، وتوفي في طريق الحج ، سنة ٦٥٦ هجرية ، ودفن في القصير على شاطيء البحر الاحمر ، في قرية – حميثرة – ، وضريحه الشريف يزار ، وتحج اليه الوفود من سائر الاقطار واقاصي الارض .

وكان رضي الله عنه قبل اخذه عن شيخـــه مولانا عبد السلام بن مشيش رضي الله عنه قد اخذ عن الشيخ ابي عبد الله محمد بن الشيخ علي المعروف بالحرازمي ، ولهذا الشيخ الجليل سند في اخذ علم الباطن يصل الى الجنيد رضي الله عنه ، ثم الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، على ان شيخنا ابا الحسن ، كان قد خرج عن كل شيء قبل اخذه عن الشيخ عبد السلام ، بن مشيش ، ودخل عليه فقيراً خلياً من علمه وعمله ، حيث قال رضي الله عنه : « كنت اطلب القطب ، فلما دخلت

---

(١) وقد اختلف في كلمة بشيش ، او مشيش ، قال الشيخ ابن عباد في المآثر العليـــة ص ٩ : « ابن بشيش ، وقد اشتهر في بلاد المغرب ، بابن مشيش ، وهو ابدال الحرف باخيه ، وقال الشيخ محي الدين بن عبد القادر الحسني الشاذلي في كتابه – الكواكب الزاهرة – ابن بشيش بالباء الموحدة بن منصور بن ابراهيم الحسني الادريسي رضي الله عنه ، ومقامه في بلاد المغرب ، كالشافعي رضي الله عنه بمصر » اه .

وشيخنا ابو الحسن ، وشيخه عبد السلام بن مشيش ، من اقطاب السلسلة الشريفة قدس الله اسرارهما وامدنا بمدد اهل الله جميعاً انه سميع الدعاء .

العراق ، اجتمعت بالشيخ الصالح ابي الفتح الواسطي ، فما رأيت في العراق مثله ، وكان فيها شيوخ كثيرة ، فقال لي تطلب القطب وهو في بلادك ؟!! فرجعت الى بلاد المغرب الى ان اجتمعت باستاذي الولي العارف الصديق القطب الغوث ، الشيخ ابي عبد الله عبد السلام بن مشيش الشريف الحسني قدس الله سره » ، قال : « لما قدمت عليه ، وهو ساكن في مغارة برباطه في رأس الجبل ، اغتسلت في عين ماء في اسفل الجبل ، وخرجت عن علمي وعملي ، وطلعت اليه فقيراً ، واذا به هابط عليّ ، قال مرحباً بعلي بن عبد الله بن عبد الجبار ، ثم ذكر نسبي الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاخذني منه الدهش ، واقمت عنده اياماً الى ان فتح الله على بصيرتي » .

وبعد اخذه الطريق عنه ، كان اليه ينتسب اذا سئل عن شيخه ، ثم قال له شيخه : (يا علي ارتحل الى بلد تسمى شاذلة فان الله يسميك الشاذلي ثم تنتقل الى مدينة تونس ، وبعدها الى بلاد المشرق وفيها ترث القطبانية) فكان ذلك . وقد تسمت الطريقة الشاذلية ، باسمه الشريف نفعنا الله به وافاض علينا من بركاته آمين .

وهذه ابيات نظم الشيخ شرف الدين البوصيري الشاذلي صاحب البردة في مدح سيدنا ابي الحسن الشاذلي رضي الله عنه :

امّا الامامُ الشاذلي طريقهُ ... في الفضلِ واضحةٌ لعينِ المهتدي
فانقلْ ولو قدماً على آثاره ... فإذا فعلت فذاك اخذٌ باليدِ
أفدي علياً بالوجود وكلنا ... بوجوده من كل سوء نفتدي
قطبُ الزمان وغوثه وإمامهُ ... عين الوجود لسان سرّ الموجدِ
سادَ الرجالَ ، فقصرت عن شأوه ... هِمَمُ المآربِ للعلى والسؤددِ
فتلقَّ ما يُلقي اليك فنطقهُ ... نُطقٌ بروح القدسِ نِعم مؤيّدِ
وإذا مررت على مكان ضريحه ... وشممت ريح الندّ من تربٍ ندي
ورأيت أرضاً في الفلاة بخضرةٍ ... مختصة منها بقاع الفرقد

والوحش آمنـة لديه كأنهـا حُشرتْ الى حرم بأولِ مسجدِ
ووجدت تعظيماً بقلبك لو سرى في جلمـدٍ سجد الورى للجلمدِ
فقل السلام عليك يا بحرَ الندى الطامي وبحر العلم بل والمرشدِ [1]

(١) الابيات من كتاب المفاخر العلية في المآثر الشاذلية للشيخ ابن عباد ص ٨ .

الانسان الكامل

مولانا

الشيخ علي نور الدين اليشرطي

الحسني الحسيني الشاذلي

قدس الله سره

وهذه أبيات للشيخ نصوحي الجابري ، من قصيدة مطولة على نهـج البردة يمتدح بها الرسول الاعظم صلى الله عليه وسلم ؛ مطلعها :

بان الخفاء وبانت بانة العـلم ترمي بلحظ يروم الفتك في العلمِ
فاكظم رجاءك في ارجاء كاظمةٍ واسلم فديتك لا تطمع بذي سلمِ

ومنهـا :

مدح الرسول شفاء المستجير به فابرِ السقام به يا بارىء النسمِ
نور قديم لعلم الله ابرزه مَن نوره قبل خلق اللوح والقلم

ومنهـا :

محمد في ثنا الدارين مظهره وعند اعدائه المحمود بالرغمِ
له المحامد طرًّا حيث ما تليت وكل حمد بدا من حمده العَمم
كان النبيُّ وبين الماء او حمأ قد كان آدم خالي الروح والأدَم
لما استوى ساطعاً من نور جبهته كان السجود له فرضاً على الذمم

ثم يخلص الى مدح سيدي الوالد وآل البيت ، رضي الله عنهم فيقول :

لي عندكم يا ملوك الحي واسطة من آلكم ودخيل الآل لم يُضم
وصيّكم في حمى هذا الزمان ومَن له الولاية في الارشاد والحِكم
سميُّ ذاك ابي السبطين حيدرة عليُّ اسماً وقدراً صاحب الحشم
اليشرطيّ ونور الدين سيدنا قل نور علم ودع ناراً على علَم
مَن كان واسطة الايقان مظهره شكر الوسائط مفروض على الذمم
ذو النسبتين الى المختار وارثه في الرتبتين له التحقيق بالقدم
مِن آل بيت آله الخلق طهّرهم وسنّ حبهم فرضاً على الامم
لا زال منهم امام بعد صاحبه في حفظ دين قويم غير منفصم

كعقد درٍّ حوى من كل جوهرة   يتيمة مالهـا كفوٌ من القـيَمِ
منهم فريدتهم منها هم انتظموا   وجوهر الحسن فيهم غير منقسم
هم سِدرة المنتهى تدني الغصون الى   هدى النّـجـاة فيا طوبى لمستلمِ
فصِلْ رجائي بهم دنيـاً وآخرةً   وصُن ولائي لهم ربي عن اللّـمم
واشغل مديحي بهم عن مدح غيرهم   واجعله بالقلب يا مولاي لا بفم
فعن ثنـــائيَ اغنيني بحبهـمِ   هم الغنيُّـون عن نثر ومنتظم
لكن مدحتهمُ فقراً لجاههِـمِ   ارجو به كشف ضرّي وانجلا غممِ



مولد

سيدي الوالد رضي الله عنه

●

ولد والدي وشيخي القطب الرّباني ، والغوث الاكبر الصمداني ، إمامنا الاعظم ، والوارث المحمدي الذاتي المعظم ، سيدنا ومولانا الشيخ علي نور الدين [1] اليشرطي ، الحسني نسباً واصلاً ، الشاذلي طريقةً ومشرباً ، التونسي المغربي مولداً ومنشئاً ، قدس الله سره ، في عام – ثمانية ومائتين بعد الالف – للهجرة ، بمدينة – بَنـْزَرت – من اعمال تونس الغرب في شمالي إفريقية .

وانتقل الى جوار ربّه في عام – ستة عشر وثلاثمائة بعد الالف – للهجرة ، في مدينة – عكا – في فلسطين ، ودفن في زاويته بتلك المدينة ، وضريحه مشهور تحجّ اليه وفود الزائرين من سائر الاقطار الاسلامية .

وقد انحدر رضي الله عنه من أرومة عريقة في الجاه والحسب ، يرتفع نسبها الى رسول الله صلى الله عليه وسلم . وكان ابوه السيد محمد بن نور الدين اليشرطي الحسني ، عميد آل يشرط وأحد وجوه مدينة – بنزرت – وسَراتها ، اصحاب المكانة في الهيئة الاجتماعية . وكان صالحاً تقياً ورعاً ذا شخصية قوية بارزة وثقافة اسلامية عالية .

اشتغل بالسياسة وبادارة املاكه ومزارعه ، وتولى عدة مناصب رفيعة في الدولة ، منها منصب القائد الكبير للجيش التونسي ، في إيالة تونس

---

(١) ويكنى سيدي الوالد بابي محي الدين .

الغرب ، التي كانت آنذاك تابعة للحكم التركي العثماني .

أما والدته رضي الله عنه ، فقد كانت سيدة فاضلة نالت قسطاً وافراً من الثقافة الاسلامية العالية ، في عصر قلّ فيه تعلّم المرأة ؛ فهي السيدة مريم تاجرّية[1] كريمة السيد عبد الله الحسيني المرّاكشي . من اهل مدينة تونس الغرب .

كانت السيّدة مريم ، على جانب عظيم من قوة التفكير وحدّة الذكاء ، وكان والدها متضلعاً في علوم اللغة العربية شغوفاً بالبحث والاستقراء ، رغم كونه من ارباب الأعمال والتجارة ، وقد أتاحت لها الظروف اسباب التعلم فكانت الابنة الوحيدة لأبويها بين إخوتها الذكور ، وقد بلغ تعلّق والدها بها حدًّا جعله يعلمها القراءة والكتابة ، ومبادىء علوم اللغة العربية بنفسه ، لكنها وهي النابهة لم تقف عند ذلك الحد ، بل عكفتْ على الدرس والتحصيل بإشراف والدها الشيخ الى أن أتمّت علومها ؛ فلما بنى بها السيد محمد بن يشرط ، ظفرت باحترامه وتقديره ، لعلمها وفضلها وجمالها ، وكثيراً ما كان يطمئن لرأيها لاعتقاده بنفاذ بصيرتها .

وقد وهبها الله أولاداً ذكوراً وإناثاً ، مات منهم ثلاثة في سن الطفولة وعاش اربعة الى أن بلغوا سن الشباب ، ثم ذهبوا ضحية الوباء الجارف (الريح الأصفر) في اسبوع واحد .

وكانت السيدة مريم اذ ذاك ، قد بلغت سن الكهولة او تكاد ، وحتى بعد هذا اليأس وانقطاع النسل والأمل ، لم يفكر السيد محمد بن يشرط بالزواج من امرأة اخرى ولود ، او باقتناء بعض الجواري مُلك اليمين ، بل ازداد تعلقه بزوجه ، الأمر الذي اثار غضب آله وذويه الذين كانوا يعتزّون بكثرة النسل .

أما هي ، فقد أذهلتها الفاجعة وكاد الحزن واليأس يقضيان عليها لولا

(١) اسم تاجرية نسبة لتجارة والدها الواسعة .

أن تداركها الله برحمته فحملت بشيخنا العظيم ، بعد ان بُشّرت به من قِبَل أهل الله تعالى . فلما وضعته دعته بالاسم الذي اختـــاره له الوليّ الصالح سيّدي الشيخ محمد جلّول رضي الله عنه ، قبل حمل والدته به أي والدة سيدي الوالد ، وبقدوم هذا الطفـــل العزيز أذهب الله عن والديه الحزَن وأعاد لهما السعادة والهناء .

بداية امره قبل الحمل به

البشرى الاولى

قلت إن جدّتي رحمها الله بُشّرت بوالدي قبل الحمل به ؛ فقد قابلها احد اولياء الله الصالحين ، في بلاد المغرب وقال لهـا : سيَهب الله لك غلاماً ذكياً ، تاريخ ولادته في آية من القرآن الكريم . قال لها هذا ، قبل ان تحمـل بوالدي بأعوام فلمـا وَضَعَته رضي الله عنه ، كان تاريخ ولادته في الآية الكريمة – وأبونا شيخٌ كبير – (١٢٠٨) .

البشرى الثانية

وقد تحدّث والدي رضي الله عنه ، في مدينة – عَكّا – إلى بعض صحبه عن أمه ، فذكر ألبشرى الثانية التي بُشّرت بها ، فقال : كانت رحمهـا الله محبة لأهل الله ، فبعد وفـاة أولادها جميعـاً ، عزفتْ نفسها عن الدنيا ، وأقبلت على الله ، لكنها كانت تذهب لزيارة قبور بنيها . وبينما هي ذات يوم في البيت ، على أثر عودتها من إحدى تلك الزيارات ، إذ بالوليّ الصالح ، سيدي الشيخ محمد جلّول ، المعروف والمشهور في مدينة –بنزرت– ، والذي هو في حالته الروحية بمقام سيدي الشيخ علي سويْلم ، [1]

(١) هو الولي الصالح الذي كان يسكن في عكا في زمن والدي وهو معروف ومشهور في تلك المدينة وضواحيها ،

يقرع الباب ويدخل مسلّماً ويقول لها : يا مريم ستحملين وتضعين غلاماً فسمه – علي نور الدين – وقد رأته يمد يده ويقدم اليها حصاة صغيرة ثم يقول : إحتفظي بهذه ، وعندما يبلغ الغلام سن الرشد قدميها اليه هدية مني وبلغيه تحيتي ، ثم رأته يعود ادراجه ويمضي في سبيله .

قال والدي رضي الله عنه : انظروا قوة ايمانها بالله وبأهل الله . لقد كانت تعلم علم اليقين ، ان الحصاة حجر لا يضر ولا ينفع ، ولكنها بقيت محتفظة بهدية الشيخ بعد انتقاله الى رحمة الله ، فقد توفاه الله وانا لا أزال طفلاً صغيراً ، الى ان سلمتها إليّ بعد ان بلغتُ مبلغ الشباب وبلّغتني تحية الشيخ وكلماته ؛ لقد فعلت هذا تيمناً ببركة الشيخ ، ولأنها كانت مخلصة لأهل الله .

ومن اعجب ما حدث انه لم يسبق ان كان ثمة معرفة او مودة بين جدتي وزوجها ، وبين سيدي الشيخ محمد جلول رضي الله عنه قبل ذلك اليوم قطعاً ، فهي لم تذهب اليه وهو بدوره لم يكن يزور احداً من الناس كائناً من كان ، على كثرة زياراتهم له . ولهذا كانت جدتي رحمها الله جد مؤمنة بتلك البشرى الروحية ، وبان سيدي الشيخ محمد جلول كان ملهماً من الله ، فسكنت نفسها واطمأنت بالأمل بعد اليأس . لكنها لم تكن تعلم آنذاك ، ان لولدها القادم شأناً عظيماً واي شأن عند اهل الله جميعاً في ذلك العصر الذهبي المبارك ، على انها ما عتمت ان لمست ذلك بعد ولادته رضي الله عنه . فقد بدأت مناقبه وشمائله الروحية تظهر منذ طفولته الاولى في هذه النشأة الروحية المباركة .

تخصيص

من لطائف المنن على مرشدنا الكامل قدّس الله سره ، انه نشأ في بيئة صالحة وتربى تربية صالحة ، وكان ابواه من اهل النشاط الذهني ورجاحة العقل . ولكن لم تكن في اسرتيّ ابويه مشيخة طريقة ، وكان العلماء

فيهما من علماء الظاهر اهل الرسوم والاحكام .

وقد اختص الله سبحانه سيدي الوالد رضي الله عنه ، فجعله مظهراً من مظاهر الكمال المحمديّ . فجمع بين العلم في الشريعة والحقيقة ، لتلازم الظاهر والباطن ، في مراتب الكمال لأهل الله الذين يتولى الحق عزّ وجل رعايتهم بالتأييد ويمدهم بروح من عنده ، ويجعل علومهم وآدابهم من ذلك الأرث النبوي الشريف ، الموروث عنه صلى الله عليه وسلم لقوله : « ألعلماء وَرَثَةُ الأنبياء »[1] ، قال امامنا ومولانا الشيخ تاج الدين بن عطاء الله الاسكندري : (وهل ينتقل الموروث من الموروث عنه ، الا بالصفة التي كان عليها عند الموروث عنه) ؟!

ومن لطائف المنن عليه رضي الله عنه ، انه كان وحيداً لأبويه محوطاً بالعناية والرعاية ، يغمره الحب والحنان الأبوي . ولما كان حسن الأدب في الظاهر عنوان ادب الباطن ، وما استودعه الله في القلوب تظهر آثاره على الجوارح ، لذلك لم يسخّر رضي الله عنه ذلك العطف الأبوي لرغبات الطفولة ولم يولد في نفسه الطمع والاثرة والانانية . فقد كان في طفولته جميلاً رقيق الحاشية متحلياً بالصدق والاخلاص والنزاهة مغرماً بالعبادة مقبلاً على التأمل في آثار صنع الله ، ولسانه رطب بذكر الله . فكان وهو في الربيع الخامس لا يلهو مع اترابه الاطفال ، ولا يلعب ، وكثيراً ما كان يفرّ من والدته فتجده جالساً فوق جزع شجرة كبيرة في الدار معتكفاً على ذكر الله ، فإذا نادته بقولها : ايْ بنيّ اهبط الينا ، أجابها : اتركوني اذكر على روحي .[2]

ومن نعم الله عليه رضي الله عنه ، ان اقامه في مرتبة العبودية منذ ان كان طفلاً صغيراً ، وجعله ممتثلاً لأمره تعالى في إطاعة الوالدين بما يرضي الله ورسوله ، عاملاً بحكم الآية الكريمة (واخْفِضْ لهُما جَنَاحَ

---

(١) لقد ذكرت هذا الحديث الشريف في المقدمة .

(٢) كلمة مغربية دارجة .

أَلذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ ، وَقُلْ رَبِّ أَرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً) [١] ، بقدر ما يبذلان في سبيل راحته وهنائه ، متمسكاً بتعقله وحكمته التي اوجدها الله فيه ، فقد كان إنساناً كاملا مطبوعاً على الشفقة والرحمة والتضحية ، ومحبة مخلوقات الله جميعاً ، تلك المحبة الانسانية الرفيعة التي تغمر الوجود بأسره من إنسان وحيوان .

ومن رعاية الحق له ، انه كان كثير البذل في سبيل البر والأحسان مقتّراً على نفسه ، يتصدّق بكل ما يمنحه إياه والده من النقود في وجوه الخير ، وكان كثير العطف على الخدم في البيت ، يعاملهم معاملة النّد للنّد ، ويعاونهم في الخدمة ويوزّع عليهم ما تخصه به والدته من طعام ولباس على قدم المساواة ؛ ويهرع لمواساة الفقراء والمساكين على قدر حاله ، وما استطاع الى ذلك سبيلا ، ويتلطف بمحادثاته معهم ، ويسرع لقضاء حوائجهم ويشاطرهم شعورهم . وكان يتألم من ظلم الانسان لأخيه الانسان ، ومن ظلم الانسان للطير والحيوان ، فهو لا يرى حيواناً يقسو عليه صاحبه إلا ويرجو ذلك الرجل ان يترفق بذلك المخلوق الضعيف ، ولا يرى طيراً في قفص إلا واعتقه . وكان يطوف في الشوارع يبتاع العصافير الصغيرة التي يلهو بها الاطفال ، ليحررها ويطلق سراحها لتعود محلقة في الفضاء .

وكذلك كان يفتدي الحيوانات الصغيرة التي يقتنيها الاولاد بالمال ليحررها . وهكذا فإن الرحمة الالهية قد تجلت في ذلك القلب الكبير الممتليء بالايمان والرأفة منذ البداية . وفي الحكم العطائية : (شروق الانوار على قدر صفاء الاسرار ، ومن اشرقت بدايته اشرقت نهايته) .

وكان رضي الله عنه وهو في العاشرة من عمره ، منقطعاً اليه تعالى ، فقد سما به الفكر الى الانفراد والعزلة ، ثم اخذ يختلف الى المساجد لطلب العلم ويداوم على تأدية الصلوات الخمس جماعة في المسجد ، ويجلس في

---

(١) سورة الاسراء .

حلقات الدرس ومجالس الوعظ جلسة المستفيد ، ويقوم بخدمة اهل الصلاح والفلاح ، والغرباء المقيمين في بيوت الله ، ويتفقد احوالهم فيتوسط لدى والديه واصدقائهما لاغاثـة كل منهم ، وكان لا يخرج من المنزل إلا الى المسجد للصلاة وطلب العلم او لغاية نبيلة ، او لزيارة مريض او لصلة ذي رحم او الرياضة ، فيسير على قدميه مسافات بعيدة في الهواء الطلق .

وكان والده مستنير السيرة والسريرة ، ورغم مـــا كان عليه من الاستقامة والأوصاف الحميدة كان رضي الله عنه لا يرافقـه إلا الى زيارة عالم كبير ، او شيخ بصير ، او لعيادة مريض ، او لصلة ذي قربى . وقد ألح والده مرة في ان يصطحبه معه الى بيت احد الحكام لحفـــلة زفاف ، وهمّ والدي رضي الله عنه ان يفعل ذلك ، فارتدى ثيابه وهبط الشارع ، وإذ به يسمع هاتفاً ذاتياً يناديه قائلاً : ليس هذا لمثلك يا علي ، فارتد راجعاً الى البيت .

وكان لوالده صديق حميم من العلماء المتشددين ، ومن أمراء العائـــلة المالكة ، وكان له ولد حبيب الى نفسه يخشى عليه رفقاء السوء ، فطلب من جدي رحمه الله ، ان يكون والدي صديقاً لولده نظراً لما اتصف به والدي من محاسن الأخلاق ، وردّ والدي على ابيه بقوله : لن أبيـــع نفسي ابداً لهؤلاء الحكام .

لقد كان عبداً لربّه لا ينقيد إلا بأمره ونهيه ، فأغناه بفضله عمن سواه وحفظه من ظلمة الأغيار ، ومنحه حضرة قربه ، فلا عجب إن رأيناه لا يتقرب الى الحكام في جميع مراحل حياته ، ولا يزور احداً منهم كائناً مَن كان ، رغم كونه ، كان يقوم بخدمة الفقراء والمساكين بنفسه .

وهكذا لم تكن لسيدي الوالد رضي الله عنه ، طفولة بالمعنى الصحيح ، إلا من حيث النمو الجسماني ، فقد قام بالواجب الروحي الانساني في كل عمل نبيل ، ومعنى جميل ، يرضي الله ورسوله في مثل هذه السن المبكـّرة . وكان والداه يُكبران فيه الشمائل الروحيـة ، ويستجيبان لرغباتـــه

الانسانية ، دون أقل مراجعـــة ، ويتفاءلان بإشاراته وعباراته وتظهر لهما خوارق العادات من الكرامات وغيرها ، منها انه إذا تحدّث عن شيء قبل وقوعه لا بد من ظهور ذلك الشيء في عالم الوجود عياناً ، ويكون حقاً وصدقاً ، فلما انتقل والده الى رحمة الله تعالى ، كان سيدي الوالد رضي الله عنه دون سن الرشد تحت وصاية أمه الرؤم المتفانية في سبيل راحته وهنائه وسعادته ، فبعد ان ظهرت مناقبه الروحية ، كانت تعلم علم اليقين أنه من اهل الله ، وأنه ينظر بنـــور الله ، وأن الله سبحانه اختصّه بشرف الدعاء اليه ، ثم هو في جميع مراحل حياته ترعاه عـــين الله ، وتشمله الرعاية والعناية الالهية من الولادة الى الوفاة .

لطيفة

أما حبّه لأهل الله وشغفه بهم ، فقد كان منذ نشأته الأولى ، إذ لم يكن له عمل دنيويّ قط ، فجعل شغله مودّة اهل الله ، وقد وقعت له معهم حوادث طريفة ، لا يتسع المقـــال لذكرها كلها ؛ منها انه كان يتردد على مسجد يعيش فيه رجـــل صالح من اولياء الله ، كان والدي رضي الله عنه يودّه ، وفي مساء ذات يوم ذهب اليه يحمـــل على يديه طعاماً ، وكان الوقت بعد صلاة العِشاء الأخيرة ، فوجـده معتكفاً في غرفته في المسجد قائمـــاً في الصلاة ، فوقف والدي في الباب ينتظر ، ولكن ما كاد الشيخ يُتم صلاته حتى بدأ بالتوجـــه بالذكر ، دون ان يلتفت ، فلم ير والدي . وبقي على تلك الحالة الى مطلع الفجر ، وأبي واقف خاشع لله – والشيخ في حالة استغراق كليّ يذكر الله – فلما أذّن الصبح ، نهض الشيخ والتفت فرأى ما أدهشه ، رأى والدي حيث كان واقفاً بحالة خشوع واحترام ، فأقبل عليه يسأله : متى جئت يا عليّ ؟ قال : في المساء ، قال : أوَ ما تزال واقفاً ؟ فأطرق والدي ، وهنالك رفع الشيخ

يديه مبتهلًا الى الله يدعو له [1] ، ثم سأله عن حاجته وعما يريده ، فقال والدي : « أريد ان تُسدي إليّ نصيحة تنفعني في ديني » . قال : « لا تصحب إلا الصادق » قال والدي : كل الناس يدّعون الصدق . قال الشيخ : « سأعطيك الميزان الذي تعرف به الصادق من الكاذب ، فمن دلّك على الله فهو الصادق ، ومن دلّك على الدنيا فهو الكاذب . »

نور المعرفة

تلقّى سيدي الوالد رضي الله عنه علومه ، في ـ بنزرت ـ وتونس ـ فكان ذا سمت بهي في العلم والعمل ، والهيبة والورع ، حيث كان على قدم بالعبادة والصوم ، وقيام الليل والتهجد وذكر الله ، وكان مضرب المثل في العفة والصيانة والامانة والاستقامة ، في ريعان الشباب وزهرة العمر ، وكان هـذا شأنه دائماً ، فقد كان رضي الله عنه صوفياً بفطرته ، يستضيء بنور المعرفة واليقين ، فهو من الذين انعم الله عليهم بحكم الآية الكريمة « وإذا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إلى الرّسُولِ تَرَىَ أعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الحَقّ » [2] .

لقد تراءى له محبوبه من عالم الغيب فازداد هيامه واستغراقه في حبه فكان حاله كما قال الشيخ البستي رضي الله عنه في هذا المعنى :

ومن عجب اني احنُّ اليهم واسألُ شوقاً عنهم وهم معي
فتبكيهمُ عيني وهم في سوادها ويشكو النّوى قلبي وهم بين اضلعي [3]

ولم يكن لسيدي الوالد مطلب دنيوي قط ، فكان مطلبه مطلب مولاه منه في صدق العبودية ، والقيام بوظائف الرّبوبية ، وهو مطلب العارفين [4] .

(١) قال والدي فكان ، (اي قد استجيب دعاء الشيخ) .
(٢) سورة المائدة .
(٣) قوانين الاشراف ، للشيخ جلال الدين ابي المواهب الشاذلي ص ٢٣ .
(٤) القيام بوظائف الربوبية ، اي بأوامر الله تعالى .

وقد تحقق لديه رضي الله عنه ، انه لن يحصل له الفتح المبين ، إلا على يد مرشد كامل أكمل ، صاحب وقته ، وقطب زمانه فكان دائم البحث عنه ، وقد صحب كثيراً ، من العلماء والفقهاء ، والفضلاء والاشياخ ، ورجال الله ، وكان يجلس في حلقات كلٍّ من هـؤلاء وهؤلاء ، وإذا ذكر امامه عالم كبير ، او شيخ بصير ، او رجل من اهل الله ، كان لا بد من ان يقصده ويتصل به . وقد اخذ عدة طرق صوفية ، فكان يصل الى مقام الشيخ ، الذي يأخذ عنه ، فيطلب منه ان يزيده من فضل الله ، فيقول الشيخ : « لا يوجد عندي اكثر مما اخذت » .

هنالك كان سيدي الوالد يتركه ويذهب يبحث عن غيره ، ومن هذه الطرق التي عمل بها ، طريقة الشيخ ابن عيسى ، فبعد ان قضى اشهراً يتلو اورادها رأى الشيخ ابن عيسى في الرؤيا ، فتقدم اليه والدي ، وقال : لقد تلوت الأوراد ، فلم احصل على شيء ما . قال الشيخ : انت رجل طيب يا علي ، أوَ ما تزال تسأل ؟ قال : نعم ، فإن كان عندك شيء زدني منه ، قال : انك لتعلم اني في البرزخ وليس بيدي شيء ، لكني ، سأدلك على واحد يعطيك السر الذي اعطاه النبي صلى الله عليه وسلم لعليٍّ بن ابي طالب كرّم الله وجهه .

واصبح والدي رضي الله عنه ، منشرح الصدر من تلك البشرى ، وبعد ايام ذكر له شيخه سيدنا ومولانا الشيخ محمد بن حمزة ظافر المدني قدس الله سره ، فأخذ الطريقة المدنية الشاذلية عنه ؛ وكان ينتسب اليه اذا سئل عن شيخه ، وقد حصل له الفتح على يديه ، وورث القطبانية الكبرى والصديقية العظمى بالمرتبة الفردية عنه ، واوتي الحكمة (وَمَنْ يُؤْتَ الحِكْمَةَ فَقَدْ أوتِيَ خَيْراً كثيراً) [1] ، فجمع بين العلم في الشريعة والحقيقة ، وانقادت لحكمه ووصاياه وعلومه ومعارفه واشاراته وعباراته اهل الحق والتحقيق ، اكرمهم الله تعالى بالانتساب اليه ، فهو

---

(١) سورة البقرة .

شمس الطريقة ومعدن الحقيقة الامام الذي تقتدي به الهداة وتأتم ، امدّنا الله بمدده الشريف وافاض علينا من بركاته ، آمين .

وقد تعرف رضي الله عنه الى شيخه بواسطة سيدي الشيخ أحمد عبد الوارث ، وهو من انسباء شيخ والدي ، واحد مريديه العارفين المخلصين ، فلما التقى بوالدي في مدينة تونس الغرب ، اعجب والدي بعلمه وفضله ، واكبر فيه سعة الاطلاع والمعرفة والتحقيق ، وثبت لديه انه من الواصلين المقربين الى الله ، بعد ان لمس ما كان ينشده ويبحث عنه ، وعلم ان هذا الفيض الاقدس من فضل شيخه الاكبر الوارث المحمديّ الذاتي سيدنا ومولانا الشيخ ابي عبد الله محمد بن حمزة ظافر المدني ، قدس الله سره صاحب الوقت وفرد الزمان المقيم في مدينة – مصراطة – من اعمال طرابلس الغرب .

تحقيق

تشرفه بأخذ الطريقة المدنية الشاذلية

رضي الله عنه

●

وكان والدي وشيخه رضي الله عنهما ، من كُمَّل ورثته صلى الله عليه وسلم في مقام إرشاد الخلق إلى الحق ، وإيصالهم الى حضرة القرب ؛ وكان كل منهما إمام عصره وفرد زمانه ، فوالدي هو الذي ورث القطبانية الكبرى بعد شيخه ، لذلك كانت الصلة الروحية بين الشيخ ومريده ازلية من عالم الارواح ، وكان اجتماعهما على الدرَّة البيضاء [1] ، لا يحتاج الى واسطة يتعرف بها والدي الى شيخه ، او تقول : الى ابيه بالروح إلا من حيث الحكم الظاهر فقط ، إذ لا بد من ظهور هذا النسب الروحي والحسب السُّبُّوحي في عالم الاشباح كما هو في عالم الارواح ، فقد سبق التعارف الظهور ، لقوله عليه الصلاة والسلام : (الارواحُ جُنُودٌ مُجَنَّدَةٌ ، ما تعارَفَ منها ائْتَلَفَ ، وما تناكَرَ منها اخْتَلَفَ [2]) ؛ ومن عرف هذا وكوشف به لا يرى

---

(١) الدرة البيضاء هي النور المحمدي الذي هو اول صادر عن الله سبحانه وتعالى، ولهذا النور المحمدي اسماء متعددة عند العارفين ، منها : العقل الاول ، الدرة البيضاء ، القلم الاعلى ، روح الارواح ، الاب الاكبر ، انسان عين الوجود ، الروح الكلي ، وغيرها من الاسماء المعروفة والمشهورة عند السادة الصوفية .

(٢) حديث نبوي شريف اخرجه البخاري .

إلا الارواح تكثفت بالقدرة واحتجبت بالحكمة .

اما من حيث حكم الظاهر فقد نادت سيدي الوالد رضي الله عنه عوارف المعارف : أن أقبل الينا ، وجذبته رائحة العطر المحمدي فأقبل يسعى بعد ان صدر الاذن الالهي بالرحيل الى الحمى الشاذلي في – مصراطة – ؛ هنالك اعترضت سبيله والدته كيلا يعيش بعيداً عنها وعن وطنه ، وهناك بنو بشرط لا يوافقون على رحيله ، ويرون خطأ ان السادة الصوفية وخاصة شيوخ الطرق يجلبون ابناء العائلات الكريمة لمنافعهم الخاصة ، وقد قامت قيامة الاهل والاحباب والاصدقاء ؛ فقد كان والدي وحيداً لابويه وعزيزاً على الجميع .

على ان همة شيخنا رضي الله عنه عالية بالله ، اخترقت تلك الحجب الدنيوية فهدمتها بالحكمة والموعظة الحسنة بأقناع والدته ، فخضعت لأمر الله تعالى وسلّمت تسليماً ، وعندها سكت المعارضون وتراجعوا . لقد شدّ سيدي الوالد الرحال الى – مصراطة – مهاجراً الى الله ورسوله (ومَنْ كانتْ هِجْرتُهُ إلى اللهِ ورسولِهِ فهجرتُهُ إلى اللهِ ورسولِهِ) [1] وسبحان من لم يجعل الدليل على اوليائه إلا من حيث الدليل عليه ، ولم يوصِل اليهم إلا من أراد ان يوصله اليه . [2]

وقبل ان يدخل والدي على شيخه تجرّد من علمه وعمله ، ثم دخل عليه فقيراً خليًّا من العلم والعمل ، فاستقبله شيخه بترحاب عظيم ، وبعد التحيات والدعوات الصالحات ، جلس والدي بين يدي شيخه وطلب منه ان يتلقى الطريقة المدنية الشاذلية عنه ، وان ينتسب اليه ويقوم في الخدمة بين يديه . ثم قال : « إن كان لي عندَكَ شيء ، فهذا من فضل ربي ، وإلا فإنني آخذُ عنك على سبيل التبرك » .

(١) حديث نبوي شريف للاربعة عن عمر ابن الخطاب ، ابو نعيم في الحلية ، الدار قطني في غرائب مالك ، عن ابن سعيد ، ابن عساكر في اماليه ، عن انس ، الرشيد العطار في جزء من تخريجه ، عن ابي هريرة .

(٢) من كتاب الحكم العطائية ، لمولانا الشيخ تاج الدين بن عطاء الله الاسكندري قدس الله سره

فأجابه شيخه (مرحباً بك يا عليّ ، سبحان الله ، اما اكتفيت بالرؤيا التي رأيتها منذ ايام) ؟ ! قال والدي : فكانت إشارته الى تلك الرؤيا تمكيناً منه لي [1] .

ثم اعطاه شيخه الطريقة المدنية الشاذلية ، ولقنّه الاسم الاعظم ، وأمره بالذكر سرًّا وعلانية ؛ وأجازه بتلاوة اوراد الطريقة الشريفة ، وان يعطي الطريقة لمن يراه اهلاً لها ، وهكذا جعله مقدماً على الفقراء . وكان هذا بدء الفتح الالهي .

(١) هي الرؤيا التي كان قد رأى فيها الشيخ بن عيسى في ص ٦٤ .

السلسلة الشريفة

لأقطاب الطريقة الشاذلية اليشرطية قدس الله أسرارهم

★

شيخ والدي ، ومراكز الطريقة الشاذلية

في بلاد المغرب

تمسّكْ بحبّ الشاذليـــة تلْق ما تروم ، وحقّق ذا الرجاء وحصّلِ
ولا تعـدوَن عيناكَ عنهم فإنهم نجوم هدىً في أعـــين المتأمل

لاحد ساداتنا القدماء

* * *

اخـذ شيخنا (قطبُ دهره وفرد عصره الوارث المحمـــديّ الذاتي الأكمل ، سيّدنا ومولانا الشيخ عليّ نور الدين اليشرطي الشريف الحسني الحسيني ، الطريقة الشاذلية ، وورث القطبانية عن شيخه واستاذه الجليـــل المرشـــد الأكمل سيدي الشيخ ابي عبد الله محمد بن حمزة ظافر المدني ، عن الشيخ الشريف الحسيني ابي احمد العربي الدرقاوي ، عن الشيخ علي العمران الملقب بالجمل ، عن الشيخ العربي بن احمد بن عبد الله ، عن ابيه الشيخ احمد بن عبد الله ، عن الشيخ قاسم الخصّاص ، عن الشيخ عبد الرحمن الفاسي ، عن الشيخ محمد بن عبد الله الكبير ، والد سيدنا احمد ، عن الشيخ يوسف الفاسي ، عن الشيخ عبد الرحمن المجذوب ، عن الشيخ علي الصنهاجي ، عن الشيخ ابراهيم الفحّام ، عن الشيخ احمد زرّوق ، عن الشيخ احمد بن عُقبة الحضرمي ، عن الشيخ يحيى القادري ، عن الشيخ علي وفا ، عن والده الشيخ محمد بحر الصفا ، عن الشيخ داود الباخـلي ، عن صاحب الحـكم الشيخ تاج الدين احمد بن عطاء الله الاسكندري ، عن الشيخ ابي العباس المرسي ، عن الشيخ الامام علي ابي الحسن الشاذلي [1] ، عن القطب الشيخ عبد السلام بن مشيش [2] ، عن الشيخ القطب عبد الرحمن المدني المشهور بالزّيات ، عن الشيخ تقي الدين الفُقَـيّر (بالتصغير فيهما) ، عن القطب

---

(١) هو الذي تسمت الطريقة الشاذلية باسمه الشريف .

(٢) ذكر الشيخ مصطفى نجا في شرح الوظيفة ان الاصح بشيش لا مشيش (من البشاشة) .

فخر الدين ، عن القطب نور الدين ابي الحسن ، عن القطب تاج الدين ، عن القطب شمس الدين السيواسي ، عن القطب زين الدين القزويني ، عن القطب أبي اسحق ابراهيم البصري ، عن القطب ابي القاسم احمد المرواني ، عن القطب ابي محمد سعيد ، عن القطب سعد ، عن القطب محمـــد فتح السعود ، عن القطب سعيد القزويني ، عن القطب ابي محمد جابر ، عن القطب اول الاقطاب امير المؤمنين الحسن بن فاطمة الزهراء ، عن ابيه امير المؤمنين الامام علي بن ابي طالب ، رضي الله تعالى عنهم اجمعين ، وهو عن سيد الاولين والآخرين نبينا محمد صلى الله عليه وسلم .

وهذه السلسلة تعرف بسلسلة الاقطاب ، وقد نظم بعض علماء الشريعة الذين تلقوا الطريقة الشاذلية عن والدي رضي الله عنه اسماء اقطاب السلسلة الشريفة قدس الله اسرارهم شعراً وتوسلاً بهم [1] ، وهذه القصيدة المطولة نظم العلامة الكبير — الشيخ مصطفى نجا — مفتي بيروت الاكبر ، وقد طبعها آنذاك وقدمها لأخواننا العلامة — الشيخ احمد عبـــاس — الأزهري البيروتي ، فقال :

بعد حمد واجب الوجود ، والصلاة على اشرف موجود ، يقول الفقير الى الله تعالى ، احمد عباس الازهري الشاذلي اليشرطي : لما كان من الواجب على كل مريد ، ان يعرف آباءه في الطريق ، وكان رجـــال السلسلة العلية الشاذلية اشهر من نار على عـــلم ، وكان سيدي وشقيق روحي العلاّمة الشيخ مصطفى نجا ، قد نظم اسماءهم متوسلاً بهم الى صفوة خلق الله نظماً خالصاً من شائبة التكلف والتصنع ، رأيت من الواجب طبعها ، ليعم نفعها ، فبادرت لذلك مستمداً من الله تعـــالى التوفيق ،

---

[1] تعريف — لمعظم اقطاب السلسلة الشريفة واشياخ الطريقة الشاذلية ، تآليف عديدة ، ولبعضهم دواوين شعرية هذا عدا الادعية والاحزاب والصلوات ، حتى الاميين منهم ساهموا بذلك . وقد ترجمهم واثنى عليهم عدد كبير من العلماء الاعلام في كتب الطبقات وغيرها ، منهم الشيرازي ، والسبكي ، والمناوي ، والنووي ، والسيوطي ، والشعراني ، والنجم الغزي ، وغيرهم . وعنى بعض المستشرقين بالكتابة عن رجال منهم .

والهداية الى اشرف طريق ، وراجيا منه جلّ وعلا ، ان يجعلها خالصة لوجهه الكريم ، بجـــاه النبي عليه افضل الصلاة واتم التسليم ، ثم نشرها الشيخ مصطفى نجا في كتابه كشف الاسرار . »

بك يستجير العبـد من هفواته يا واحـداً في ذاته وصفاتـه
واليك يرفع راحة ما مدهـــا لسواك يا مـولاي في حاجاته
متوسلًا بمحمد خـــير الورى وملاذهم بحياتـه ومماتـــه
وبآله وبصحبه الـقوم الاولى وصلوا اليك بنور إرشاداتـه
وببابه السامي أبي الحسنين من نفـع الانام ببثّ معلوماتـه
وبنجله الحسن الكريم وصنوه هو سيـد الشهداء في درجاته
وبجابر المكسور وارث فضـله بسعيـد قزوين ملاذ عفاتـه
وبسيدي فتح السعود وسعدهم محي الوجـود بغيث إمداداته
بسعيدهم وبأحمـــد المروانيّ والـ بصري إبراهيم في طاعاتـــه
بالشيخ زين الدين ثم بشمسه حامي حمى سيواس في عزماته
وبتاجـــه وبنـــوره وبفخره مستنقذ الملهوف من شدّاتـــه
بإمامنا الشيخ الفقيّر من جـلا سر الغنا للناس في مرآتـــه
بالسيد الزّيات مَن قبس الورى نور الهداية من سنا مشكاتـه
وبسيدي عبـــد السلام المجتنى زهر الحقيقة من ذرى جناتـــه
بالشاذلي قطب الهدى مَن نوره ملأ الوجود وعمّ كل جهاتـــه
وبأحمد المرسي ابي العبـاس من ورث الخلافة منه بعـد وفاته
وبصاحب الحِكم الذي أهدى لنـا درراً واين الدرّ من كلماته ! !
بالباخلي داود من هو مركز الـ منطوق والمفهـــوم في اوقاته
بمحمـــد بحر الصفا وبنجلـــه كنز الوفا المشهور في بركاتـــه
وبسيدي يحيي الذي احيا القلو ب بنوره وبفيض إحساناتـــه
بالحضرميّ من اقتدى بجنابـــه وجنى ثمـار الفضل من حضراته
وبسيدي زرّوقٍ القطب الذي هو للهدى كالبدر في هالاتـه

بإمامنا الفحّام والصنهـاجي وا رثه الذي قد سار في طرقاتـه
وبشيخنا المجذوب والفاسي إما م زمانـه الممتـــاز في جذباته
بمحمّد وبعابـــد الرحمن َمن يرجى لصد الدهر في صدماته
بالقاسم الخصّاص ثم بأحمـــدٍ وبنجـله العربيّ في جـلواته
بعليٍّ العمران بالدرقاوي موْ لانـا وبالمـدنيّ في خـلواته
بوَليّ نعمتنا عليّ القدر سا مي الفخر شيخ العصر قطب سراته
بدر الكمالات ابن يشرط من زها فلك الطريقة من سنا زهراته
فهو الذي بالفضل ُخصت ذاته وبه اجتماع الشمل بعد شتاته
للقوْم كان تتمةً (١) ولنا جرى سيْل الهدى والخير من راحاته
يا سعد من حطّ الرحال ببابهم حَرَم الأمان وحلّ في ساحاته
ما للفقـــير ســواهمُ فبجاههم يا رب جـد بالعفو عن زلاّته
وعلى صراط طريقهم ثبّتـه يا مولى المـلا واحفظه من آفاته
واسلك به سبْل النجاح فإنـه مستغرق الأوقـات في غفلاته
وبهم أنله يا كريم رجـاءه وأقلْه في الدارين من عـثراته
حاشا ُيضام َمن التجا بجنـابهم أو ان ُتواش له ســهام رماته
وغـــدا يقول لسانه وَجنانه في أي حالٍ كان من حالاته
هم عـــدّتي ووسيلتي للمصطفى والعبد ليس له ســوى ساداته
وهو الوسيـــلة للجميع وكلهم فتحـــوا لنا ابواب إنعاماته
ما في الوجود سواه يرجى إن دجا خطبٌ وعمّ الناس في ظلماته
هو غوثنا وأمان كل من احتمى بحمى عـــلاه ولاذ في عتباته
ماذا يقول المادحـــون بمدحه وعليـــه أثنى الله في آياته
إني أناديه وقلـبيَ طامـــعٌ بنـوال ما يرجـوه من رغباته
يا من له أنقاد الوجودُ بأسره وله اليـد البيضا على قاداته
بالباب عبد قد تعدّى واعتدى جهلًا وإن الجهـل من عاداته

(١) اي – خاتم اقطاب السلسلة الشريفة .

وأطاع امر النفس فيما تبتغي   وانقاد ممتثلًا الى شهواته
كم للخلاف تحركت اعضاؤه   عفواً وكم سكنت الى حركاته
تبع الهوى ولربما يهوي به   إن لم تداركه الى دركاته
وافاك والأوزار أحنت ظهره   وأتاك كي يرتاح من حملاته
من ذا الذي يرجوه غيرك في الورى   او يصطفيه وسيلة لنجاته
ما ثَم إلا أنت فكن له   عوناً على أخصامه وعداته
وعليه جُد بالقرب منك تكرماً   وامنن بمحو البعد في إثباته
واشفع به حالاً وسل مولاك تو   فيقاً يسير به الى مرضاته
ما لامرىء حولٌ ولا يقوى على   طاعاته إلا بتوفيقاته
صلى عليك الله ما ركبٌ سرى   لمقامك المحمود خير صلاته
وعليك سلم ما صبا ، صبٌ الى   قبر حواك وطاب من نفحاته
وعلى جميع الآل والأصحاب ما   وصل الفقير لمنتهى غاياته
او قال في بدء الدعاء وختمه   بك يستجير العبد من هفواته

ونظم العلامة الكبير الشيخ مصطفى ابو ريشة ، اسماء اقطاب السلسلة الشريفة في قصيدة مطولة ذكر فيها اوراد الطريق ؛ وهذه ابيات منها :

فهاك طريق الله نرويه مسنداً   عن السادة الأفراد من اوضحوا السبلا
وذلك الاستغفار ثم رديفه   صلاة وتسليم على المصطفى تتلى
ويتبعه التوحيد مائة مرة   لكل مساً صبحاً فهمّ بها شغلا
وقل دائماً الله في كل حالة   تنل منه وصلًا لا ترى بعده فصلا
اخذناه عن استاذنا اليشرطي السّري   علي نور دين الله من عمّنا فضلا
إمام البرايا مرشد العصر من غدت   جميع المرايا من سنا سره تجلى
بجد تلقّاها فألقت وشاحها   عليه لدى ان حققته لها اهلا [1]

(١) الوراثة المحمدية في القطبانية العظمى .

شيخ والدي

ومراكز الطريقة الشاذلية في بلاد المغرب

●

الطريقة الشاذلية من أمهات الطرق الصوفية ، وتسمى طريقة البرهان لأنها تجمع بين العلم والتحقيق ، والعبادة والمعرفة ، والهمّة والحال .

أشياخها رضي الله عنهم أئمة في الفقه ، أئمة في الحديث والتفسير والعلوم الظاهرة ، أئمة في التصوف ؛ كانوا اهل اجتهاد في علوم الدراسة ، وزادهم الله شرفاً فمُنحوا علوم الوراثة ، وجمعوا بين العلم في الشريعة والحقيقة ؛ فعلومهم رضي الله عنهم تشارك باقي العلوم التي تقوم على النقل والعقل ، وتمتاز عنها بعلم الأسرار والانوار والمقامات والأحوال ، الذي هو علم السلوك وعلم الحقيقة ، المعبَّر عنه بالالهام ، المؤيّد بالكتاب والسُّنّة .

وقد كان من هؤلاء الأشياخ افراد كُمَّل صدّيقون ، واولياء مقربون ، والقُطب الغوْث الأكبر الذي هو واحد في كل عصر وزمان .

والأقطاب الآحاد الكمَّل الذين خُصّوا بالانفراد ، هم اقطاب سلسلة الطريقة الشاذلية العلية ، الذين تلقوها واحد عن واحد ، وتتسلسل متابعتهم الى رسول الله صلى الله عليه وسلم . اما اتباع الطريقة الشاذلية

والمنتسبون اليها فهم منتشرون في بقاع الأرض وقلّ ان تجـــد مدينةً او قبيلة او قرية في الأقطار التي دخلها الاسلام تخلو من زاويةٍ او جماعة من المنتسبين الى هذه الطريقة الشريفة ، سواء كانوا من السائرين او الواصلين .

وقد كان شيخ والدي قدّس الله سره من أشياخ الطريقـــة الشاذلية وأحد أقطاب السلسلة الشريفة التي تقـــدم الحديث عنها ؛ فهو الغوث الأكبر ، والقطب الصمداني الأوحـــد ، ملجـأ السالكين ، ومربّي الواصلين ، الوارث المحمدي الذاتي الأكمل ، سـيدنا ومولانا الشيخ ابو عبد الله محمد بن حمزة ظافر المدني رضي الله عنه وأمدّنا بمـــدده ، وهو المعروف والمشهور باسم ـ الشيخ المـداني ـ صاحب الاشارات العليـــة ، والعبارات السنية ، والحقائق القدسية ، والأنوار المحمـــدية ، والأسرار الربانية ، والالهامات الروحية ، شيخ الطريقة ، ومعدن الحقيقة ، العارف بالله ، والدالّ على الله ، قدس الله سره ؛ فقد كان يقيم في مدينـــة ـ مصراطة ـ من اعمال طرابلس الغرب ، ولا يزال ضريحه الشريف في زاويته يُزار الى الآن .

وللطريقة الشاذلية في بلاد المغرب ثلاثة مراكز هامة وهي القيروان ، ومراكش ، وطرابلس الغرب ؛ وتعرف في القيروان بالشاذليـــة ، وفي مراكش بالدرقاوية ـ نسبة لاسم شيخنا القطب الأوحد الشيخ ابي احمـد العربي الدرقاوي قدس الله سره ، وهو احد اقطاب السلسلة الشريفة ـ ، وتسمى في بلاد طرابلس الغرب بالطريقة المدنية ـ نسبة الى شيخ والدي رضي الله عنه ـ ، وقد كانت له في ذلك العهد عدة زوايا [1] منتشرة في

(١) في كتاب الأخوية الدينية الاسلامية تأليف (اوكتاف دوبون واكسافيه كوبولاني) الافرنسيين ، في صحيفة ـ ٢١٩ ـ ، في ولاية طرابلس الغرب ٠ اثنى عشر زاوية مدنية تابعة للزاوية الكبيرة ، ولها اربعة عشر مقدماً ، وان في جهات بنغازي والكفرة ، ثلاث زوايا مدنية ، كما يوجد غيرها في بلاد تونس الغرب ، واهمها زاوية صفاقس ، وفي الجزائر واوران ثلاث زوايا مدنية ، واحد عشر وكيلًا ، وفي الحجاز ثلاث زوايا ، وزاوية في المدينة المنورة ؛ وقد انتشرت الطريقة المدنية في بلاد مصر ولها زوايا هناك .

البلاد ، فيها عـــدد كبير من المريدين والاتباع . وكانت زاويته في – مصراطة – محلاً لاقامة شعائر الدين ، وهي عبارة عن مسجد للصلاة والعبادة واقامة الاذكار ، ومعهد لطلب العـــلم ، وزاوية لتهذيب النفوس ، والانقطـــاع الى الله تعالى ، فقد كان قدس الله سره ونفعنا ببركاته احد ائمة الطريق ، واحد وجوه الفضل ، يجمع بين العـــلم في الشريعة والحقيقة ، وكان المريدون يؤمون زاويته للزيارة ، والتشرف بالمثول بين يديه ، ومنهم من كان يتجرد فيها .

مقام التجريد

لا بد للفقير الصوفي بعد أخذِه الطريق ، إمـــا ان يقيمه الحق عز وجل ، في الاسباب أي ان يبقيه في اعماله الدنيوية ، اثناء سلوكه في الطريق أو يقيمه في التجريد بالانقطاع إليه تعالى . ومن لطائف المنن على سيدي الوالد رضي الله عنه ، أن أقامَه الحق عزّ وجلّ في مقـــام التجريد ، منذ نشأته الاولى ، فقد اخذه منه ، بالانقطـــاع اليه ، ولم يكن له عمل دنيوي قطّ ، وبعد ان تشرف بالانتساب الى الطريقة المدنية الشاذلية ، تجرّد في زاوية شيخه العظـــيم بين يديه ، في مدينـــة – مِصراطة – [1] كذلك كان لا بد لي من شرح – مقام التجريد – بذكر بعض أقوال السادة الصوفية فيه كلٌ بحسب شهوده ومقامه .

قال الشيخ إبن عجيبة رضي الله عنه : التجريد في اللغة ، التكشيط والازالة ، تقـــول جرّدت الثوب أي أزلته عني ، وتجرّد فـلان اي ازال ثوبه ، اما عند السادة الصوفية ، فهو عـــلى ثلاثة اقسام : تجريد الظاهر ، وهو ترك كل ما يشغل الجوارح عن الله ؛ وتجريد الباطن ، وهو كل ما يشغل القلب عن الله ، وتجريدهما ، وهو افراد القلب والقالب لله » . [2]

(١) مصراطة من اعمال طرابلس الغرب راجع ص ٤٦ .

(٢) ايقاظ الهمم على شرح الحكم العطائية لابن عجيبة ص ١٣ .

وقال السيد الجرجاني : « التجريد إماطة السّوى والكون عن القلب والسّر »[1] . وقال شيخ الاسلام الهَرَوِيّ : قال الله تعالى (فاخلعْ نَعْلَيْكَ) فالتجريد انخلاعٌ عن الشهود ، والشواهد ، وهو على ثلاثة درجات : الدرجة الاولى تجريد عين الكشف عن كسب اليقين ، الدرجة الثانية ، تجريد عين الجمع عن دَرْكِ اليقين ، الدرجة الثالثة تجريد الخلاص عن شهود التجريد[2] .

وبمناسبة حديثي عن التجريد ، وخلع النّعلين ، في مقام الشهود ، أثبت هنا ابياتاً كان قد نظمها احد العارفين القدماء في هذا المعنى ، وهي :

ايهــا العاشق معنى حسناً ... مهرنا غــال لمن يخطبنــا
جسد مضنى وروح في العنــا ... وجفون لا تذوق الوثنــا
وفؤاد ليس فيــه غيرنا ... واذا ما شئت أدّ الثمنــا
فافنَ ان شئت فناء سرمداً ... فالفنا يدني الى ذاك الفنــا
واخلـع النعلين ان جئت الى ... ذلك الحي ففيـه قدسنــا
وعن الكونين كن منخلعــاً ... وازل ما بيننــا من بيننا
واذا ما قيل من تهوى فقل ... انا من اهوى ومن اهوى انا[3]

وقال في هذا المعنى احد مريدي سيدي الوالد :

قام بي موسى على طور الفِكَرْ ... يرقب الامر الذي منه صدرْ
خالـع النعلين مسلوب الحشا ... باسـط الكفين محوّ الاثر
قال يا موسى تأمـل من انا ... انمـا تدري اذا الطور اندثرْ
واجتمعنـا في اناء واحــد ... وتفرقنـا لتشكيل الصــور
وانطوينا بـين اكناف الحمى ... وانتشرنا حينما الحق ظهـر
يا لقومي لاح لي من سرهـا ... آدم الانثى وحواء الذّكر

(١) التعريفات للسيد الجرجاني ص ٣٥ .
(٢) كتاب منازل السائرين للشيخ الهروي ص ٤٩ .
(٣) ايقاظ الهمم لابن عجيبة ص ١١ .

يا عزولاً كن علينا لا لنا   ثمرات الارض تسقى بالمطر [1]

والمتجرد ، والمتسبب ، عاملان لله ، كل واحد منهما حصل على صدق التوجه الى الله ولكن صدق التوجه في المتجرد اقوى لقطع علائقه كما هو معلوم .

قال شيخنا سيدي احمد زروق قدس الله سره : « كان اهل الصفة فقراء في اول امرهم ، وكانوا يعرفون باضياف الله ، ثم كان منهم الغني ؛ والامير ، والمتسبب والفقير ، لكنهم شكروا عليها حين وجدت ، كما صبروا عليها حين فقدت ، فلم يخرجهم الوجدان عما وصفهم مولاهم به من انهم (يَدْعُون رَبَّهُمْ بِالغداةِ والعَشِيِّ يُريدون وَجْهَهُ) كما انهم لم يمدحوا بالفقدان ، بل بارادة وجه الله ، وذلك غير مقيد بفقر ولا بغنى وبحسبه فلا يختص التصوف بفقر ولا بغنى اذا كان صاحبه يريد وجه الله »[2].

وقال شيخنا سيدي ابن عطاءالله الاسكندري قدس الله سره في الحكم العطائية : (إرادتك التجريد مع إقامة الحق إياك في الاسباب ، من الشهوة الخفية ، وارادتك الاسباب مع إقامة الحق إياك في التجريد ، انحطاط عن الهمه العليــة) وقد شرح هذه الحكمة سيدي الشيخ بن عبّاد رضي الله عنه فقال « الأسباب هنا ، عبارة عما يتوصل الى غرض ما ينال في الدنيا ، والتجريد ، عبارة عن عدم تشاغله بتلك الأسباب ، فمن أقامه الحق تعالى في الاسباب ، واراد هو الخروج منه ، فذلك من شهوته الخفية » .

وانما كانت من الشهوة ، لعدم وقوفه مع مراد الله تعالى ، في إقامته إياه فيما أقامه ، وتطلعه إلى مقام رفيع لا يليق به ، وعلامة إقامته إياه في الاسباب ان يدوم له ذلك ، وان تحصل له ثمرته ونتيجته . وذلك بأن يجد عند تشاغله بالأسباب سلامة في دينه ، وقطعاً لمطمعه عن غيره ، وحسن نية في صلة ذي رحم ، او اعانة فقير ، الى غير ذلك من فوائد

(١) مجموعة اناشيد اخواننا خط يد .

(٢) قواعد التصوف لسيدي احمد زروق ص ٥ الآية الكريمة من سورة الكهف .

المال المتعلقة بالدين . ومن اقامه الحق في التّجريد ، واراد الخروج منه الى الاسباب ، فذلك من انحطاط همته ، وسوء ادبه ، وكان واقفاً مع شهوته الجلية ، لأن التجريد مقام رفيــع اقام الحق فيه خواص عباده الموحدين العارفـين ، فاذا اقامه الحق في مقام الخواص ، فلم ينحط عن رتبتهم ، الى منازل هي دون منازلهم » [1] .

وقال الحافظ الكبير المحدّث الامام السيوطي رضي الله عنه في كتابه – التأييد – ، (وقد اجمـــع السادة الصوفية على إباحة المكاسب من الحِرَف والتجارة والحرث وغـير ذلك ، على تيقظ وتثبيت ، وتحرّز من الشبهات ، وإنمـا تعمل للتعاون وحسم الاطماع ، والعود على الاغيار ، والعطف على الجـــار . وعندهم واجبة لمن له عيال ، مباحة للمنفرد ، واشتغاله بوظائف الحق اولى واحق) [2] .

وقال سيدي الشيخ بن عباد رضي الله عنه في المفاخر العلية : ان السادة الشاذلية من أشد الناس حَثًّا على عمل الحِرفة ، حتى كان شيخنـا سيدي ابو العبّاس المُرسي قدّس الله سره يقول : « عليكم بالسَّبَب ، وليجعل احدكم مكّوكه سُبحتَه ، او تحريك اصابعه في الحياكة سبحته ، او الضَّفْر سبحته » ، وقال شيخنا سيدي ابو الحسَن الشاذلي قدّس الله سرّه : « ليس هذا الطريق بالرهبانية ، ولا بأكل النخالة والشعير ، وإنما هو بالصبر على الأوامر ، واليقين في الهداية ، قال تعالى (وَجَعلناهُمْ أئِمّةً يَهْدون بأمرِنا لما صَبَروا وكانوا بآياتِنا يُوقِنُون) [3] .

وأورد سيدي الشيخ بن عجيبة رضي الله عنه في شرح المبـــاحث الاصلية قول بعض أهل المعاني في تفسير قوله تعالى : (ومَا تِلكَ بيَمينِكَ

(١) شرح الحكم للشيخ بن عباد ص ٥ .

(٢) تأييد الحقيقة العليـــة للامام السيوطي ص ٥٤ ، كتاب التعرف لمذاهب اهل التصوف ، للكلاباذي ص ٥٦ .

(٣) المفاخر العلية للشيخ ابن عباد ص ٦٦ ص ١٥٣ الآية الكريمة سورة طه .

يا مُوسى) يُقال للفقير : وما تلك بيمينك يا فقير . قال : هي دُنياي اعتمد عليها في قيام بُنْيَتي ، وانفقُ منها على عيالي ، ولي فيها مآرب أخرى ، أتصدّق منها وأفعل بها وجوه الخير . فقال : القِها من يدك ايها الفقير ، فألقاها فإذا هي حيّة تسعى ، كانت تلذعه في قلبه وتشغله عن شهود ربّه ؛ فلما فرّ منها وآيس من نفعها ، قيل له : خذها ولا تخف ، لأنك غني بالله عنها ، فتأخذها بالله لا بنفسك وتدفعها لله [1] .

(١) شرح المباحث الاصلية للشيخ ابن عجيبة ص ٢١٥ ، ولطائف المنن لسيدي تاج الدين بن عطاء الله الاسكندري ص ١٦٥ ، الآية الكريمة سورة طه .

انوار

الحمى الشاذلي في مصراطة

●

لقد اقام الله عزّ وجلّ والدي وشيخي رضي الله عنه ، في مقام التجريد ، منذ ان ظهر في عالم الوجود بإعراضه عن الخلق ، وإقباله على الحق ، حتى إذا بلغ زهرة العمر في شبابه ، اقتطعه ربّه اليه ، الى حيث أقامه بين يدي شيخه الجليل ، في حماه فقيراً متجرداً ، في بيت يُذكر فيه اسم الله . قال تعالى في كتابه العزيز (في بيوتٍ أذنَ اللهُ أن تُرفَعَ ويُذكرَ فيها اسمُهُ يُسبّح له فيها بالغُدوِّ والآصال رجالٌ لا تُلهيهِم تِجارةٌ ولا بَيْعٌ عن ذِكْرِ الله ، وإقامِ الصّلاة ، وإيتاء الزكاة يَخافُون يَوْماً تَتَقلّبُ فيه القلوبُ والأبْصار ، لِيَجْزِيَهُم الله أحْسَنَ ما عَمِلوا ويَزِيدَهم من فَضْله ، واللهُ يَرزُقُ مَن يَشاء بغَيْرِ حِسَاب) [1] . وقال جلّ جلاله (إنّ في خَلْقِ السّموات والأرضِ ، واختلافِ الليلِ والنّهار ، لآياتٍ لأوْلي الألباب ، الذين يَذكُرون اللهَ قِياماً وقُعُوداً ، وعلى جُنُوبِهِم ، ويَتَفكّرون في خَلْقِ السّموات والأرْض) [2] .

فالعارفون إذا ارادوا الوصول الى الله تعالى ، ساروا اليه كالبرق الخاطف لا يلتفتون الى ما خرجوا عنه ، ولا يتَوَهّمون ما هم مقدمون

---

(١) سورة النور .

(٢) سورة آل عمران

عليه ، ولهذا كانت انوار التوجيه للسائرين ، يهتدون بها . امّا الواصلون فلهم انوار المواجهة ، لأنهم لم يقفوا مع الأنوار ، بل نفذوا الى نور الانوار ، ولذلك كان من السادة الصوفية ، المُريد والمُراد . قال احد العارفين :

صحا المريدون منها بعدما سكروا والمرادين سُكر عندها باقي [1]

والمريد ، هو الفقير السالك ، الذي يرقى في المقامات والأحوال الى ان يصل ، والمراد ، هو الذي تجذبه العناية الالهية ، لحضرة الله ، فيصل الى الله بلا تعب ولا سعي ولا طلب ، لكنه يتدلّى في مراتب الوجود بالمقامات ، شكراً لله [2] الذي طوى له مشقة المسير ، واوصله اليه ، فكان المريد الترقّي ، والمراد التدلي . وقد جذبت العناية الربانية شيخنا ، قدس الله سره ، فأوصلته الى الله عزّ وجل . فهو ممن ملك فسلك ، لا مَن سلك فملك ؛ [3] ثم هو يتدلى في مراتب الكمال ، في المقامات والأحوال ، شكراً لله الذي طوى له مشقة المسير اليه ؛ وهناك بين يديْ شيخه العظيم ، كان مبدأ ظهوره بالسياحات الكثيرة ، [4] والمنازلات الجليلة ، والمكاشفة ، والمشاهدة ، والمعاينة . قال شيخنا سيدي ابو العباس المرسي رضي الله عنه : (إنما الولي يكاشف بالمثال ، كما يُرى البدر في الماء ، او بواسطة اخرى) . فالحقائق الغيبية ، مجلوة ظاهرة في بصيرة النبيّ صلى الله عليه وسلم عياناً ؛ والولي ، لقربه منه ، ولهديه بهديه ، يُكاشف بمثال ذلك فيه .

---

(١) قانون الاشراق للشيخ جمال الدين ابي المواهب ص ٢٣ .

(٢) اي انه يعود فيؤدي العبادات ويدخل في تلك المجاهدات ، على انه ارتقى الى اعلى من هذه المقامات .

(٣) نحن نقرأ في الوظيفة صباحاً ومساء في كل يوم فنقول : وايدني بك الك بتأييد من سلك فملك ومن ملك فسلك اي انه غدا سالكاً ومالكاً لذلك الرقي الروحي .

(٤) السياحات ليست هي الرحلات الظاهرية التي يقوم بها شيوخ الطرق للتبشير في الدين الاسلامي فحسب ، وإنما تطلق ايضاً على السياحة [illegible] روح .

بمناسبة تعشق سيدي الوالد لشيخه وفنائه فيه ، أثبت هذا النشيد الرائع لشيخنا ومولانا الشيخ – علي وفا – قدس الله سره :

كان لي ظلُّ رسوم فاستوت شمسي فزالا
عشت بالمحبوب حقًّا بعد ما كنت خيالا
عاد محبوبي وجودي فتجلَّى وتعالى
وتخفَّى عن عياني بيَ عزًّا وجلالا
كل احوالي فيه حركات تتوالى
حبذا سلبي ووجدي فيه حالاً ومثالا
هكذا العشق والاَّ كان والله افتعالا

وهذا الشعر منسوب الى سيدنا الشيخ تاج الدين بن عطاء الله الاسكندري رضي الله عنه :

من فاته منك وصل حظه النّدم ومن تكن همّه تسمو به الهممُ
وناظرٍ في سوى معناك حقّ له يقتصّ من جفنه بالدمع وهو دم
والسمع ان جال فيه من يحدّثه سوى حديثك امسى وقره الصّممُ
في كل جارحة عين اراك بها منّي وفي كل عضو للثناء فم
فان تكلمت لم انطق بغيركم وان سكتُّ فشغلي عنكم بكم
اخذتموني َمنّي في ملاطفةٍ ولست اعرف غيراً مذ عرفتكم
نسيت كل طريق في محبتكم الاّ طريقاً تؤديني لربعكم

فناء والدي رضي الله عنه في شيخه

وانطباع طباع شيخه فيه

قضى سيدي الوالد رضي الله عنه ثلاثة عشر عاماً متجرداً بين يديْ شيخه في زاويته في – مصراطة – فكان يعيش تحت لواء محبته ، يسمع من معارفه التي لا تعد ولا تحصى ؛ فشاهد من علومه ومعارفه ، وشمائله

ولطائفه ، ما أفناه فيه ، أعني فناء والدي بشيخه ؛ فقد تخلق بأخلاقه ، وتحلى بسجاياه المحمديّة ، وتلقى عنه علومه ومعارفه ، وتكمّل بكماله ؛ فقد كان مختاراً من الله ؛ وكان شيخه على علم بأمر الله ، وان هذا الولد القلبي هو الوارث المحمدي من بعده ؛ فأدناه اليه ، واستخلصه لنفسه ، وأفاض عليه من بحر الحقائق والمعارف ، فغدت اقوال والدي وافعاله واحواله كلها حقائق حكمية ، ومعارف إلهية ، وفيوضات وإلهامات ربانيّة ، ومشاهد قدسية ، على عدد الأنفاس ، في كل مشاهدة لا تدرك بالعبارة ، ولا تلحقها الاشارة ؛ ولما كان مُجازاً من شيخه باعطاء الطريق ، وتسليك المريدين ، وتكميل السائرين ، لذلك كان ينتقل بأمر شيخه من مكان الى آخر ، فيذهب الى المدن والقرى والقبائل في الصحراء ، يعلّم الفقراء امور دينهم ، ويلقنهم الذكر ، ويربيهم التربية الصحيحة في كل ما يرضي الله ورسوله ؛ ثم هو لا يعطي الطريقة إلا لمن يراه اهلاً لها في الاستقامة ، والصبر على الاوامر .

على انه لم يخرج من بلاد المغرب قبل انتقال شيخه ، ووفاة امه قطعاً ؛ ولم يشتغل بالاسباب الدنيوية اصلاً ؛ فقد ترك له والده مورداً من ريع املاكه ومزارعه ، ما يكفي لان يبذل منه الشيء الكثير في سبيل الله ورسوله ؛ وكان في خلال مدة تجريده في الزاوية ، يستأذن شيخه من وقت لآخر ، فيذهب الى — بنزرت — ، لزيارة امه واهله ، فيقيم هناك مدة من الزمن ، ثم يعود الى ذلك النور المحمديّ ، الذي اهتدى بهديه ، الى حيث اقامه الله في رحاب شيخه .

من دقائق المشاهد

كان رضي الله عنه منذ أول تجريده ، صاحب رسوخٍ وتمكين ، لا يلتفت ابداً ، بعد ان نقله الحقّ سبحانه ، من حياته المترفة الناعمة في بيت أبيه ، الى حياة الخشونة ، الى التقشف والزهد ، والورَع والعبادة ،

وتأدية عملٍ لخدمة الفقراء المتجرّدين والزائرين ؛ وقد حدثت له عدة حوادث كادت تقضي على حياته ، ففي ذات يوم كان يؤدي عملًا شاقًّا للفقراء ، وكان الجوّ في ذلك اليوم لافحاً كثير السَّموم ؛ ولما لم يكن معتاداً على ذلك العمل ، سقط الثوب عن منكبه ، وتعرّض للشمس ، فاحترق الجلد ، وتورّم جسده كلُّه ، وكان في حالة الخطر الشديد ، لكنه ما ازداد إلا ثبوتاً وتمكيناً في تلك الرياضة الروحية ، فيما اقامه الحقّ فيه .

وكان شيخه الجليل رضي الله عنه شديداً على من يغفل عن ذكر الله ؛ قال والدي : لقد جلسنا مرةً بين يدي شيخنا في حلقة المذاكرة ، نستمع اليه وهو يتكلم ، وإذا بأحد المريدين يرفع رأسه وينظر الى فرع شجرةٍ صغير يتدلى فوق رأسه ، ثم يعود الى الاصغاء ؛ وفي اليوم الثاني ، امر شيخنا سيّدي المدني قدس الله سره ، بقطع ذلك الفرع ؛ على ان والدي رضي الله عنه ، لم يكن بحاجةٍ لذلك التأديب في هجرته الى الله ورسوله ، بل كان من ابتداء أمره ملازماً حدود الأدب ، بامتثال الأوامر ، واجتناب النواهي والشواغل ، لهِج اللسان والقلب بذكر الله ، في حالة استغراقٍ كلي بشهود ذات الله ، مما جذب اليه قلوب الفقراء المتجرّدين والزائرين .

وكان بينه وبين سيدي الشيخ احمد عبد الوارث الحَسَني أخوّةٌ ومودةٌ وصُحبةٌ ومحبة في الله ، فقد كان ذلك الشيخ واسطة سيدي الوالد لأخذه الطريقة الشاذلية . وقد جلسا مرة في الزاوية يذكران الله تعالى ، وإذ بأحد الفقراء يدخل عليهما ، ويجلس بينهما ، فلم يشعرا به إلا بعد الانتهاء من الذكر ، فالتفت والدي اليه وقال له : يا اخي لِمَ ابعدتني عن اخي بجلوسك بيننا وأرض الله واسعة ؟ فقال الفقير : لمّا دخلت الزاوية رأيتكما عمودين من نور ، فأحببت ان اقتبس من انوارِكما .

وكان رضي الله عنه بغاية التواضع مع الفقراء ، فكان يجلس في كثير من الاحيـــان في مجالس الوعظ والمذاكرة والارشاد بين يدي شيخه ، بجانب جماعةٍ من اخوانــــا الزيّاتين ، فسأله احد الفقراء بقوله : لِمَ تجلس مع هؤلاء الزيّاتين ، وفي ثيابهم بقع الزيت ، وربمـــا تؤثر في ثيابك النظيفة ؟ فأجابه والدي « بتواضعه المشهور عنه » : سمعت من شيخنـــا (سيدي المدني قدس الله سره) ان الفقراء شموع تضيء من بعضهـــا ، وقد وجدت شمعتي مُطفأةً فأحببت ان اشعلها من انوار اخواننا .

لبس الزي اى الخرقة في التجريد

ذلك لان والدي رضي الله عنه ، لم يغير ثيابه وزيه في مـدة اقامته في زاوية شيخه في – مصراطة – ، فكان يلبس الملابس الثمينة النظيفة حسب عادته السابقـــة في بيت ابيه . فقد ســـار معظم اشياخ طريقتنا الشاذلية على قدم شيخنا ، سيدي ابي الحسن الشاذلي قـدس الله سره ، الذي يقـــول بالاعراض عن لبس الزي والمرقعات ، التي كان يلبسها كثيرون من السادة الصوفية فيقول : « ان هذا اللبـــاس ينادي على صاحبه انا فقـــير فاعطوني شيئاً ، وينادي على سر الفقير بالافشاء ، فمن لبس الزي فقد ادّعى » اهـ [1] .

قال سيدي الشيخ عبد الوهـاب الشعراني رضي الله عنه : « وليس مراد الشيخ ان يعيب على الفقراء لبس الزي ، وانما مراده ان لا يلزم كل من له نصيب ما للقـــوم ان يلبس الفقراء ، فلا حرج على اللابس للخشن ، ولا على اللابس للناعم ، اذا كان من المحسنين ، وانما الاعمال بالنيات » اهـ [2] .

واری ان كلام شيخنا سيدي ابي الحسن الشاذلي رضي الله عنه ، لا

(١) لطائف المنن لسيدي الشيخ تاج الدين بن عطاء الله الاسكندري ص ٢٠٥ .
(٢) كشف الاسرار للشيخ مصطفى نجا ص ٢١ .

يحتاج الى تأويل ، فهو بمثابة التوجيه لاتباعه ومريديه ، بالاعراض عن لبس الزي قطعاً . اما تعليق سيدي الشيخ عبد الوهاب الشعراني رضي الله عنه ، على قول سيدنا ابي الحسن فهو رأيه الخاص . ولذلك قيل عن سيدي ابي الحسن انه مسهّل الطريقة على الخليقة .

زواجه رضي الله عنه وهو في مقام التجريد

يظن كثير من الناس ان التجريد كالرهبانية ، وهذا خطأ بيّن ، وقد ذكرت فيما تقدم بعض اقوال سيدنا الشيخ ابي الحسن رضي الله عنه حيث قال : (ليس هذا الطريق بالرهبانية ولا بأكل النخالة والشعير الخ) ؛ اه .

وقد يتزوج الفقير المتجرد ، او يتجرد وهو متزوج ، او يتجرد سنين عديدة ، ثم ينقله الحقّ عز وجل الى الأسباب ، هذا من حيث ان إرادة الفقير الصوفي ، إرادة الحق فيه .

وقد تزوج سيدي الوالد رضي الله عنه وهو في مقام التجريد في بلاد المغرب . لقد تزوج في بيته في مدينة – بنزرت – اثناء تجريده في زاوية شيخه في – مصراطة – وكان رضي الله عنه من وقت لآخر يذهب الى – بنزرت – لزيارة والدته وأهله ، فيمكث هناك مدةً قليلة ثم يعود الى الاقامة في الحمى الشاذلي الأقدس في – مصراطة –.

ويوم اعتزمت جدّتي رحمها الله ان تزوج ولدها الوحيد اهتمت بتلك المناسبة السعيدة وكان المال موفوراً لديها ، فأعدت له جناحاً خاصًّا في البيت ، وزيّنت غرفه بأنواع الزينة والرياش الفاخر الثمين ، ووضعت فيه الكماليات حسب طراز ذلك العصر ، واحتفلت بيوم الزفاف بعد ان دعت الأهل والأصحاب ؛ على ان والدي رضي الله عنه وهو العارف الرباني ، والمحقّق الذي يعيش في حضرة القرْب حيث لا أين ولا غيْن ، كان في زاوية شيخه في بلاد طرابلس الغرب .

وكان المقرر ان يحضر في ذلك اليوم ، فلما دخل البيت كان ما يزال في ثياب السفر . وما ان رأى ما اعدّته له والدتـــه ، حتى وقّف في الباب وأبى ان يدخل الجناح المختص به ، وغرفه على تلك الحـــالة من الزينة والزخرفة والامتاع ، إذ لم تكن تلك المظاهر الدنيوية الخلابة لتؤثر فيه ، او لتجعله يخضع لحكمها ولو يوماً واحداً في حياته إكراماً لأمه الرؤوم .

ولقد توسل الى والدته ان تسمح له بان يكون زواجـــه في مخدع بسيط في البيت ؛ فيه فراش بسيط يأوي اليه مع زوجه وهكذا كان .

انطباع المرتبة الفردية فيه قبل انطواء بشرية شيخه

لقد باع والدي رضي الله عنه بعد زواجه ، تلك الرياش الفـــاخرة الثمينة وكل ما كان يزيد على الحاجـات الضرورية من اثاث البيت الذي يخصه ، إذ لم يتعرض لحياة والدته المترفـة التي كانت إذ ذاك تعيش كما كانت على عهد زوجها وابيها . فقد كان سيدي الوالد رضي الله عنـــه برًّا بها عطوفاً رحيماً ، شديد الحرص على سعادتها وهنائهـا ، ولم يتعرض لشؤونها الخاصة بأخذ اموالها او ببيع شيء من املاكها التي ورثتهـا عن ابيها وزوجها . اما فيما يختص به ، فهو قد خرج عن معظم امـــواله واملاكه ومزارعه لله [1] ، ولم يترك لاهله واولاده إلا النّذر اليسير الذي عاش به اولاده بعد رحيله الى الشرق .

(١) (قال رجل للشبلي رضي الله عنه : كم في خمس من الابل؟ قال: شاة في الواجب، فاما عندنا فكلها لله . قال: فما اصلك في ذلك . قال ابو بكر الصديق حين خرج عن ماله كله لله ورسوله. فمن خرج عن ماله كله فامامه ابو بكر، ومن خرج عن شيء وابقى شيئاً فامامه عمر بن الخطاب، ومن اخذ لله واعطى لله، فامامه عثمان، ومن ترك الدنيا لاهلها، فامامه علي بن ابي طالب رضي الله عنهم . وكل علم لا يؤدي الى ترك الدنيا فليس بعلم) من كتاب شرح المباحث الاصلية لابن عجيبة ص ٢١٠ .

قال شيخنا سيدي ابو الحسن الشاذلي رضي الله عنه : لا تشم رائحة الولاية وانت غير زاهد في الدنيا واهلها .

هـــذا وقد كان والدي رضي الله عنه يحمــــل الى شيخه ثمن تلك الكماليّات ، وغيرها مما انعم الله به عليه ، ليُبذل في سبيل الله . وكان شيخه ينفق كل درهم يصل اليه من اموال الفقراء المُريدين على الزاوية ، وفي وجوه الخير ومصالح أبنـــاء الطريق . فقد كان من الزاهدين في حُطـام الدنيـا ، فكانت الأذواق والميول والمشارب منسجمة بين الشيخ ومريده ، او تقول بين والدي وأبيه بالروح ، فكان التّوادّ والتعـارف والتراحُم في هذه النسبة الابوية الروحية المقدسة في عروة وثقى لا أنفصام لها . قال شيخنا مولاي صاحب الحِكم العطائية قدس الله سره : (مـــا كان لله دام وأتصل ، وما كان لغير الله أنقطع وأنفصل) [1] فكان والدي رضي الله عنه متفانيـاً في حب شيخه ، يبذل النفس والنفيس في سبيل رضاه ، إذ لم يَبق عنده بقية – أيْ – عند والدي . وقد تحدث الى مريديه فيما بعد عن فنائه في شيخه فقال : (لمّا فقدت سمعي وجدت سمع شيخي سيدي المدني ، ولمـــا فقدت ذوقي ، وجدت ذوق شيخي سيدي المدني ، ولما فقدت عقلي وجدت عقل شيخي سيدي المدني ، فصـار قلبي شيخي ، وزاويتي رأسي) . ومعلوم ان والدي بقي محتفظاً بقواه العقلية والجسدية ، وحواسه الخمس طوال ايام حيـــاته ، ولم يفقد منها شيئاً أصلًا ، وإنما كان يعني بقوله هذا انطباع المرتبة الفردية فيه ، بعد ان غدا ذوقه ذوق شيخه وعقله عقلَه ، وهكذا في كل شيء . ولا عجب في هذا التفاني السُـكلي في شيخه . أو تقول : في المرتبة الفردية وانطباعها فيه قبل انطواء بَشَرية شيخه فالحُـكمْ للقادم . فقـد كان رضي الله عنه الوارث المحمدي بعد شيخه المؤيد بروح مـــن عند الله ، كما اشرت الى ذلك في بعض احاديث هذا الكتاب . قال شيخنا سيدي – علي وفا – قدس الله سره (تِلميذُهمْ استاذ كلِّ زمان) .

---

(١) الحكم العطائية لسيدي الشيخ تاج الدين بن عطاء الله الاسكندري .

اولياء الله

في مراتب الولاية

قدس الله اسرارهم

قال سيدي عبد الكريم الجيلي ، صاحب كتاب الانسان الكامل رضي الله عنه في قصيدته العينية :

فشمِّر ولذ بالاوليـــاء فانهـــمْ لهم من كتاب ألحق تلك الوقائعُ
همُ الذخر للملهوف والكنز والرّجا ومنهم ينال الصبُّ ما هو طامع
بهم يهتدي للعين من ضلّ في العمى بهم يُجذب العشاق والرّبع شاسع
هم الناس فالزمْ إن عرفت جنابهـمْ ففيهم لضرّ العالمـــين منافع [1]

★

وقال شيخنا سيدي ابن عطاء الله الاسكندري رضي الله عنه :

أمرتقِبَ النجـوم من السماء نجوم الارض أبهى في الضياء
فتلك تبين وقتـاً ثم تخفى وهذي لا تكدّر بالخفـاء
هدايةُ تلك في ظلَم الليـالي هداية هذه كشف الغِطاء [2]

بعض اقوال السادة الصوفية في الولاية ومراتبها

يرى كثير من الناس ، ان اعتقاد السادة الصوفية بالولاية ، اكبر واعظم من النبوّة ، وهذا ليس بصحيح ، فالسادة الصوفية يرون ، ان الولاية نور من انوار رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ، وقد اجمعوا على ان الولاية ، دون النبوّة ، وان الالهام ، دون الوحي ، وقد اغلق الله باب الوحي بعد النبوة ، وفتح باب الالهام رحمـــة بعباده . فالمدد الآلهي لا ينقطع ابـــداً ، لدوام حاجات النفوس الى تأكيد وتجديد وتذكير ، لاستغراقها في الغفلة والشهوات ، فالتذكير والتنبيـــه هما ،

(١) ايقاظ الهمم للشيخ ابن عجيبة ص ١٩٧ .
(٢) لطائف المنن للشيخ تاج الدين بن عطاء الله الاسكندري ص ٢٥ .

لارجاعها لجوهرها الاصلي [1] ، فالولي قط لا يأتي بشرع جديد ، لكنه يأتي بالفهم الجديد ، في كتاب الله وسنّة رسوله صلوات الله عليه ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (لكل آية ظهر وبطن وحدّ ومطلع) [2] واخرج ابو نعيم عن ابن مسعود قال : القرآن أنزل على سبعة احرف ما منها حرف الا له ظهر وبطن ، وان عليًّا بن ابي طالب عنده علم الظاهر والباطن .

وقال الحافظ المحدّث الكبير الامام جلال الدين السيوطي الشاذلي رضي الله عنه : « لقد اجمع السادة الصوفية بالاتفاق قطعاً ، ان الانبياء صلوات الله عليهم ، افضل البشر ، وليس في من يوازي الانبياء في الفضل ، لا صدّيق ولا وليّ ولا غيره ، وإن جل قدره وعظم خطره وعلت رتبته [3] .

وقال مولانا الشيخ ابو العباس المرسي قدس الله سره : « جميع ما اخذ الاولياء مما اخذ الانبياء كزقٍ مليء عسلًا رشحت منه رشحات ، فما في باطن الزق للأنبياء ، وتلك الرشحات للأولياء » وقال ايضاً : « الانبياء يطالعون حقائق الاشياء ، والاولياء يطالعون مثالها لا هي . ولهذا قال حارثة لما سأله رسول الله صلى الله عليه وسلم عن حقيقة ايمانه : « وكأني انظر الى الجنة ولم يقل نظرتُ » [4] .

وقال مولانا الشيخ تاج الدين بن عطاء الله الاسكندري قدس الله سرّه : سمعت شيخنا ابا العباس يقول : والله ما كان اثنان من هذا العلم في زمن واحد قط ، إلا واحداً عن واحد الى الحسن . قال السيوطي

(١) الرسالة اللدنية للامام الغزالي ص ٣٥ و ٣٦ .

(٢) اخرج الفريابي في تفسيره ، عن الحسن رضي الله عنه « لكل آية ظهر وبطن . قال ابن النقيب في تفسيره : ظهر الآية ما ظهر من معانيها لاهل العلم ، وبطنها ما تضمنته من الاسرار التي اطلع الله عليها ارباب الحقائق.»

(٣) تأييد الحقيقة العلية بتشييد الشاذلية للسيوطي ص ٨٧ .

(٤) لطائف المنن لسيدي الشيخ تاج الدين بن عطاء الله الاسكندري ص١٩٣ ، حديث شريف رواه ابن المبارك في الزهر ، ورواه عبد الرزاق في التفسير ، ورواه الطبراني ، واخرجه البزار والبيهقي في الشعب .

معنى قول سيدي ابي العبـــاس ، اي ان القطب الغوث لا يكون إلا واحداً في كل زمان ، لان علم التصوف لا يكون إلا لواحد . ولكن القطب جامع لعلوم اولياء عصره [1] . وقال احد العارفين : فإن قلت كيف يكون الحسن اول الاقطاب ، وقبله ابو بكر وعمر وعثمان وعلي .!!

قال السيوطي : (قلت ظهر لي ان يقال معنـــاه ، ان الحسَن اوّل من كانت له الخلافة الباطنة منفردة عن الظاهرة ، فأن القُطب هو خليفة النبي صلى الله عليه وسلم ، ووارث الامر من بعده ، وكان الحَسن لمّا ترك الخلافة الظاهرة ابتغاء وجه الله ، وحقن دماء المسلمين ، عوّضه الله خيراً منها ، وهي الخلافة الباطنة ، ومن ترك شيئــاً لله عوّضه الله خيراً منه . وأما الخلفاء الاربعة رضي الله عنهم ، فكانت لهم الخلافتان الظاهرة والباطنة معاً ، ولم يجتمعا لأحد بعدهم) [2] ، اه .

قال بعض العارفين : (نهايات الأولياء بدايات الأنبياء) [3] أي أن نهايات الأولياء في مقامات الولاية لا النبوّة هي بدايات الانبياء في مقام الولاية قبل النبوّة . فقد أثبت الشيخ الاكبر سيدي — محي الدين بن عربي — رضي الله عنه ، ونخبة من الائمة الصوفية أن الانبياء صلوات الله وسلامه عليهم ، لم يكونوا قبـل النبوّة اشخاصاً عاديين ، بل كانوا في مقام الولايـــة في التعبُّـد والتحنُّـث والبحث عن الحقائـــق وعن ذات الله .

فلما جاءتهم النبوّة جمعوا بين مراتب الولاية والنبوة والرسالة . عـلى أن ولاية الانبياء ليست كولاية الاولياء ، لأنها جامعة لكافـة مراتب الولاية ، فهي أعظم وأفضـــل وأكمـــل وأعمّ من ولاية الوليّ ، فالوليّ إنمـا نال الولاية بالاقتداء بالانبياء صلوات الله عليهم والاهتـــداء

(١) تأييد الحقيقة العلية بتشييد الشاذلية للسيوطي ص ٥٥ .
(٢) تأييد الحقيقة العلية بتشييد الشاذلية للسيوطي ص ٥٦ .
(٣) الرسالة القشيرية للامام القشيري ص ١١٨ .

بهديهم .

قال مولانا الشيخ ابو الحسن الشاذلي قدّس الله سره (ما من نبيّ أو رسول إلا له من هذه الامة وارث . وكل وارث على قدر إرثه من مورّثه . قال عليه الصلاة والسلام (العُلماءُ وَرَثَةُ الانبيـــاء) . ولا يكون وارثٌ إلا وله نصيب من مورّثه يقوم مقامه على سبيـــل إرث العلم والحكمة ، لا على سبيل التحقيق بالمقام والحـــال ، فإن مقامات الانبياء جلّت ان يلمح حقائقها غيرهم . وكل وارث في المنزلة بقـــدر مورّثه ، إذ يقول الله جل وعلا (وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّين عَلَى بَعْضٍ) [1] . كذلك فضّل الاولياء بعضهم على بعض ، إذ الانبياء بعيْن الحقّ ، وكل عين مُستمد منها على قدرها ، وكل وليٍّ له مادّة مخصوصة فانقسم الاولياء على قسمين : قسم منهم أبدال الانبياء ، وقسم منهم أبدال المرسلين .

فأبدال الانبياء هم الصالحون ، وأبدال الرسل هم الصّديقون ، فبـــين الصالحين والصديقين في التفضيل ، كما بين الانبيـــاء والرسل صلوات الله وسلامه عليهم ، غير ان من الاولياء طائفة انفردوا بالمادة من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكل نبيٍّ ووليٍّ مادته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، اه [2] .

ومعنى قول الشيخ رضي الله عنه ، ان كل نبيّ ووليّ مادته من رسول الله صلى الله عليه وسلم – اي – انهم مستمدون من أنوار الحقيقة المحمدية التي هي أصل ما كان وما يكون ، وهي اول ما صدر عن الله سبحانـه ، فقد خلق الله نور محمد من نوره ، وخلق منـه كل شيء ، الحديث المروي عن جابر بن عبد الله الانصاري ، لما سأل رسول الله صلى الله عليـــه وسلم ، عن اول شيء خلقه الله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(١) سورة الاسراء .

(٢) المفاخر العلية في المآثر الشاذلية لسيدي الشيخ ابن عباد ص ١٣٦ .

« اول ما خلق الله نوري ومن نوري خلق كل شيء » .

ذكر سيدي – الشيخ مصطفى نجا – مفتي بيروت الاكبر ، في كتابه – كشف الاسرار – تفسير الآية الكريمة لبعض العارفين فقال : « الله نورُ السماواتِ والارْض ، مَثَلُ نورِهِ كمِشْكاةٍ فِيها مِصْباح) [1] . الله نور السماوات والارض مثل نوره ، اي النور الثاني هو محمد صلى الله عليه وسلم ، من حيث انه اول مخلوق صدر عن الله تعالى ، كمشكاة ، هي الاكوان جميعها ، فيها مصباح أضاءت به – اي –ظهرت بعدما كانت مستورة ، والمصباح هو النور المحمدي ، مصباح الظلام العدمي ، والمراد انه صلى الله عليه وسلم ، منشأ جميع الانوار على كثرة تنوعاتها ، من فروعها وصفاتها الحسية والمعنوية ، فأنوار النبوّة والرسالة ، وأنوار الهداية والولاية ، وأنوار القلوب والابصار ، والانوار المشرقة في الليل والنهار ، والانوار المودعة في الاشجار والازهار ، وانوار الايمان والاحسان والايقان ، وأنوار المحبة والشهود والعرفان ، وكل ما ظهر في الوجود او شوهد من المحاسن في اي حادث موجود ، فانه هو صلى الله عليه وسلم اصله وسببه ، وهو مقسمه ومفيضه بالرغم عن أهل الجحود [2] .

وقال الشيخ مصطفى نجا في شرح الوظيفة الشاذلية (الله منه بدء الأمر) اي الشأن الكلي الجامع لكل الشئون ، وهو النور المحمدي الشريف ، وهو اول صادر عنه سبحانه ، وإنما سمي امراً ، لان الله اوجده بأمر – كُن – من لا شيء بغير واسطة شيء ، وسمي بالقلم الاعلى ، وبالدرة البيضاء ، وبالعقل الاول ، وبروح الارواح ، وبالاب الاكبر ، وبإنسان عين الوجود ، وغير ذلك من الاسماء المشهورة عند العارفين [3] ، اهـ .

---

(١) الحديث الشريف في كشف الاسرار للشيخ مصطفى نجا ص ٦٣ . رسالة مشكاة الانوار للامام الغزالي ص ١٣٤ .

(٢) كشف الاسرار للشيخ مصطفى نجا ص ٨٠ الآية الكريمة سورة النور .

(٣) مشكاة الانوار للامام الغزالي ص ١٣٦ .

من هذا نعلم ان الاولياء الذين هُم من ورثة الانبياء ، يأتيهم المدد ايضاً من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لانه الاصل يأتيهم من النور المحمدي الذي منه انوار الانبياء صلوات الله وسلامه عليهم . اما الذين انفردوا بالمادة من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيأتيهم المدد مباشرة منه إليهم ، وهؤلاء هم الخلفاء اصحاب الوراثة المحمدية ، ولايتهم الولاية الكبرى والصديقيَّة العظمى . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله يَبْعَثُ على رَأسِ كلِّ مائَةِ سَنَةٍ مَنْ يُجَدِّدُ لِهذهِ الامَّةِ أمورَ دِينِها » .

وذكر مولانا سيدى ابن عطاء الله الاسكندري الشـــاذلي قدس الله سره ، في كتابه - لطائف المنن - في تفسير الحديث الشريف (العلماء وَرَثةُ الانبياء) [1] قال : « الانبياء ، لم يورثوا دينـاراً ولا درهماً ، انما أوتوا العلم » ، واستشهد بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم (الا ان الدنيا ملعونة ملعون ما فيها ، إلا ذكر الله ، وما والاه ، او عالم او متعلم ، وان الملائكة لتضع اجنحتها لطالب العـــلم) وقال الله جل وعلا في كتابه العزيز : (شَهِدَ الله أنهُ لا إله إلاّ هو ، والملائكة وألوا العِلم) [2] وقـــال سبحانه : (بَلْ هوَ آياتٌ بَيِّناتٌ في صُدوُرِ الذين أوُتوا العِلم) . قال : وحينما وقع العلم في كلام الله وكلام رسول الله ، فانما المراد به العـــلم النافع المخمد للهوى القاصع الذي تكتنفه الخشية ، وتكون معه الانابة ، قال تعالى : (إنمـــا يَخْشَى الله من عِبادِهِ العُلماءُ) [3] ، واستطرد الشيخ بحديثه الى ان قال : فشاهد العلم الذي هو مطلوب الله الخشية ، وشاهـد الخشية موافقة الامر ، والا ما علم تكون معه الرغبـــة في الدنيا والتملق لاربابها وصرف الهمة الى

---

(١) حديث لابي داود وللحاكم .
(٢) سورة آل عمران .
(٣) سورة العنكبوت .

اكتسابها ، والجمع والادخار والمباهاة ، والاستكثار وطـــول الامل ونسيان الآخرة .

فما ابعد من هذا العلم علمه ، من ان يكون من ورثة الانبياء ، وهل ينتقل الشيء الموروث من الموروث عنه إلا بالصفة التي كان بهـــا عند الموروث عنه ، ثم تحدث كثيراً الى ان قال : « إنما الفقيه من فقه عن الله امره ونهيه » قال : « وسمعت شيخنـــا سيدي ابا العباس المرسي الشاذلي قدس الله سره يقول : الفقيه من انفقأ الحجاب عن عين قلبه . وإذ قد عرفت ان الدعاء الى الله لا يزال ابداً ، فاعلم ان الانوار الظاهرة في اولياء الله انمـــا هي من اشراق نور النبوة عليهم ، فمثل الحقيقة المحمدية كالشمس ، وأنوار قلوب الاولياء كالاقمار ، وانمـا اضاء القمر لظهور نور الشمس فيه ، ومقابلته اياها ، فإذا الشمس منيرة نهـــاراً ومضيئة ليلاً لظهور نورها في القمر الممدود منهـــا ؛ وإذا هي لا غروب فيها ، فقد فهمت من هذا انه يجب دوام انوار اوليائه لدوام ظهور نور رسول الله صلى الله عليه وسلم فيهم ، فالاولياء آيات الله ، يتلوها على عباده باظهاره إياهم واحداً بعد واحد ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (لا تَزالُ طائفَةٌ مِن أُمّتي ظاهِرِين عـــلى ألحَقّ لا يضُرُّهُمْ من ناوأهُم إلى قِيَامِ الساعة) وبعد ان قسم الاوليـــاء على اربعة اقسام فجعل منهم الخفي والظاهر والولي والصّديق قال : « اعلم جملك الله من خـــاصة عباده ، وعرفك لطائف وداده ، انه سواء منهم الخفي والظاهر ، والولي والصديق ، فساد الوقت لا يكدر صفاءهم ، ولا يحط مقدارهم ، لانهم مع المؤقت لا مع الوقت » ، ثم ذكر حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إنّ لله عِباداً يَغذوهُم بِرَحْمَتِهِ يُحْيِيهِم في عافِيَةٍ ، تَمُرُّ بِهِمُ ألفِتَنُ ، قطع الليْلِ المظلم لا تَضُرُّهُم) وقـــال صلى الله عليه وسلم : (يَكون في أُمّتي فِتَنٌ لا يَنْجو منها إلا مَن أحيـــاهُ الله بألعِلمِ) قـــال الترمزي : العلم بالله ، وقال بعض العـارفين : ان لله

عباداً ، كلما اشتدت عليهم ظلمة الوقت ، كلما قويت انوارهم ، فمثلهم كمثل الكواكب ، كلما قويت ظلمة الليل ، قوي إشراقها ، وأين انوار الكواكب من انوار اولياء الله ، اهـ [١] .

وقال الامـــام القشيري في رسالته : « من شرط الولي ان يكون محفوظاً ، كما من شرط النبي ان يكون معصوماً ، فكل من كان للشرع عليه اعتراض ، فهو مغرور مخدوع » .

وقال الامام المجتهد ، والمحدث الكبير الحافظ ، الشيخ جلال الدين ، السيوطي الشاذلي ، رضي الله عنه ، في مقدمة كتابه ـ الخبر الدال ، على وجود القطب ، والاوتاد والنجباء والابدال ـ : (الحمد لله الذي فاوت بين خلقه في المراتب وجعل في كل قرن سابقين بهم يحي ويميت وينزل الغمام الساكب ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد ، البدر المنير ، وعلى آله واصحابه ، الهداة الكواكب ، وبعد ،فقد بلغني عن بعض من لا علم عنده ، إنكار ما اشتهر عن السادة الاولياء ، من ان منهم ، ابدالاً نقبـــاء ، ونجباء ، واوتاداً واقطاباً ، وقد وردت الاحاديث ، والآثار بإثبـــات ذلك ، فجمعتها في هذا الجزء لتستفاد ، ولا يعول على إنكار اهل الفساد ، وسميته ـ الخبر الدال ـ ، على وجود القطب والاوتاد ، والنجبـــاء ، والابدال ، والله الموفق ، فأقول : (ورد في ذلك ، مرفوعاً وموقوفاً ، في حديث عمر بن الخطاب ، وعلي بن ابي طالب ، وأنس ، وحذيفة بن اليمان ، وعبادة بن الصامت ، وابن عباس ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن مسعود ، وعوف بن مالك ، ومعاذ بن جبل ، ووائـــلة بن الاسقع ، وابي سعيد الخدري ، وابي هريرة ، وابي الدرداء ، وام سلمة رضي الله عنهـــم ، ومن مرسل الحسن وعطاء وبكر وخنيس ، ومن

---

(١) لطائف المنن لسيدي الشيخ تاج الدين بن عطاء الله ص ١٩ و٢٠ و ٢١ و ٢٤ و٢٥ .

الآثار ، عن التابعين ، ومن بعدهم مما لا يحصى) اهـ [1] .

وأورد الشيخ السيوطي في كتاب – تأييد الحقيقة العليّة بتشييد الشاذلية – حديثاً ملخّصاً عن كتاب – اقتداء الغافل بالعاقل – تأليف الشيخ قُطب الدين القسطلاني [2] في مراتب الداعين الى الله . فقال :

« إن الله بحكمته ونعمته أقام في كل عصر من جعل له لساناً معبراً عن عوارف المعارف ، مخبراً عن لطائف العواطف ، يقطع به ما اتصل من الجهل ، ويخمد به ما اضطرب من رأى الهوى ، إلى ان قال : اما رتبة الداعي فإنها من اعلى الرتب ، وهي رتبة الانبياء والاولياء والحكماء كما قال الله (أدْعُ إلى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالحِكْمَةِ والمَوْعِظَةِ الحَسَنَةِ) [3] فسعت هذه الطائفة الى الدعاء ، ورأت ان ذلك من باب تكثير الخير في الوجود ، ثم تحدّث عن الاولياء الذين في مقام الخفاء ، وقد اطال الشرح ، ولما كان موضوع حديثنا الآن عن الاولياء الداعين الى الله ، رأيت ان اكتفي بحديثه عن هؤلاء الداعين ، حيث قال : وقد حصل الجهل في زماننا هذا برتبة الداعي ، والنظر في ذلك من الامر المهمّ في الدين ، لكيلا يلتبس طريق المُحقّين بطريق المُبطلين ، فأذن

---

(١) الشيخ الامام جلال الدين السيوطي الشاذلي ، من ائمة الاجتهاد وائمة الحديث الحفاظ ، وأئمة التصوف واكابر علماء التاريخ وله تآليف عديدة ، وقد ترجمه واثنى عليه كثير من الفضلاء فمن اراد الاطلاع على ترجمته فليرجع الى كتب الطبقات .

ملحوظة – يضيق بي المقال ، عن ذكر الاحاديث المثبتة في كتاب الخبر الدال ، فمن شاء الاطلاع عليها فليرجع الى ذلك الكتاب ليجدها فيه .

(٢) الشيخ قطب الدين ، محمد بن علي القسطلاني ، احد ائمة الشافعية ، واحد ائمة الحديث ، واحد ائمة التصوف ، اخذ عن السهروردي ، صاحب كتاب عوارف المعارف لا السهروردي ، الشهيد المقتول في (حلب) ، فهذا غير ذاك . وقد اجتمع الشيخ قطب الدين بالشاذلي ، وترجمه الاسنوي في الطبقات فقال ؛ كان ممن جمع العلم والعمل والهيبة والورع والكرم وطلب من مكة ، وفوضت له مشيخة دار الحديث الكاملة في القاهرة ، الى ان مات بها في المحرم سنة « ست وثمانين وستمائة » ذكر هذا السيوطي في كتابه – تأييد الحقيقة العلية – .

(٣) سورة النحل .

للتمييز بين الدعاة فائدة عظيمة في هـذا الشأن ، ثم تحدّث عن الداعي بالله الى الله ، والداعي بالله الى سُنة الله ، والداعي بالله الى حكمة الله ، والداعي الى حظوظ نفسه بطريق الله ، وبيّن ان الاخير معـلول لا خير فيه .

إلى انْ قـال : ان طريق القوم ، لمّا اندرس رسمه ، وبقي أسمه ، ذهبت عصابته ، وصاروا آحاداً في البلاد ، وأفراداً بالجد والاجتهـاد ، فهم خاصة الله من خلقه وخُلاصته المختارون في ارضه لاقامة حقه ، طهّر اسرارهم ونوّر افكارهم ، فهم الداعون الى بابه ، المعَرّفون بعليّ جنابه ، الموقفون على ما اشكل من علم الطريق على اربابه ، وقـد حرس الله هذه عن امتداد يد التلاعب بما اقام لها من الرؤساء العاملين بها ، يذبّون عنها طغي الطاغي ، وجهل الجاهل ، ويميزون بين المنقطع ، والواصل ، ويُعرّفون سلوك الطريق لطـالبه ، ويوقفون عـلى الصواب من لم يهتد الى مذاهبه ، لا يبالون عن اعتراض جاهل او عالم ، ولا تأخذهم في الله لومة لائم . [1]

وقال الشيخ الكلاباذي صـاحب كتاب (التعرّف إلى مذاهب اهل التصوّف) في مقدمة كتابه مشيراً الى هذه الطائفـة « جعل الله فيهم صفوة اخياراً ، نجبـاء ابراراً ، سبقت لهم منه الحسنى والزمهم التقوى ، وعَزَفَ بنفوسهم عن الدنيا . صدقت مجاهداتهم ، فنالوا علوم الدراسة وخلصت عليهم معاملاتهم فمُنحوا علوم الوراثة ، وصفت اسرارهم فأكرموا بصدق الفراسة ، ثبتت اقدامهـم ، وزكت افهامهم ، ونارت اعلامهم ، فَهِـموا من الله ، وساروا الى الله ، واعرضوا عمّا سوى الله ، خرقت الحجب انوارهم ، وجـالت حول العرش اسرارهم ، وجلّت عند العرش اخطارهم وعميت عمّا دون العرش ابصارهم .

اجسام روحانيّون في الارض ، سماويّون مع الخلـق ، ربّانيّون

(١) تأييد الحقيقة العلية بتشييد الشاذلية للامام السيوطي ص ٣٢ و ٣٣ و ٣٤ .

نظّار ، سكوت غيّب حضّار ، تحت اطهار ، نزّاع قبائل ، واصحاب فضائل ، وانوار دلائل ، آذانهم واعية ، واسرارهم صافية ، ونعوتهم ضافية ، صفوة صوفيّة نوريّة ، ودائع الله بين خليقته ، وصفوته في بريّته ووصاياه لنبيّه ووصيّه ، هم في حياته اهل صفّته ، وبعد وفاته خيار ائمته » . [1]

اظهار الولي

قال شيخنا سيدي ابو العباس المرسي قدس الله سره : (اعلم ان من اراد الله به ان يكون داعياً اليه ، لا بد من اظهاره الى العباد ، اذ لا يكون الدعاء اليه تعالى ، إلا كذلك ، ثم لا بد من ان يكسوه كسوتي الجلالة والبهاء .

اما الجلالة فلتعظمه العباد ، فيقفوا على حدوده ، ويضع له في قلوبهم هيبة ينصره بها ، ليكون اذا امر ونهى مسموعاً امره ونهيه . وجعل هذه الهيبة في قلوب العباد من تمكين الحق له ، ليعينه على القيام بالنصرة [2] ، قال تعالى : (الذينَ إنْ مكَنّاهمْ في الارض أقامُوا الصَّلاةَ وآتوا الزّكاةَ وأمرُوا بالمعْرُوف ونَهَوْا عَنِ المُنْكَر) [3] وهي من اعزاز الحق لعباده (ولله العِزّةُ ولِرَسُوله ولِلمُؤْمنينَ) [4] . وهذه الهيبة جعلها الله في قلوب العباد . سرت اليهم من انبساط جاه المتبوع عليهم ، البسهم الحق ملابس هيبته ، واظهر عليهم اجلال

(١) من مقدمة كتاب التعرف لمذاهب اهل التصوف للكلاباذي ص ٤ .

(٢) لطائف المنن لسيدي الشيخ تاج الدين بن عطاء الله الاسكندري ص ٤٩ و ٥٠ .
قال شيخنا سيدي ابو العباس المرسي قدس الله سره : قال ملك من الملوك لبعض العارفين تمن علي ، فقال ذاك العارف : الي تقول ولي عبدان ملكتهما وملكاك وقهرتهما وقهراك ، وهما الشهوة والحرص فانت عبد عبدي فكيف اتمنى على عبد عبدي ، ا هـ . لطائف المنن ص ٥٠ .

(٣) سورة الحج .

(٤) سورة المنافقون .

عظمته ، كلما نزلوا الى ارض العبودية ، رفعهم الى سماء الخصوصيّة ، فهم الملوك ، وان لم تخفق عليهم البنود ، والاعزاء وان لم تسر امامهم الجنود .

ثم قال : « والكسوة الثانية التي يكسوها الحق لاوليائــه ، كسوة البهاء ليحلـّيهم في القلوب ، فينظرون بعين المنة والمحبة ، فيكون ذلك باعثاً لهم على الانقياد اليهم ، أفلا ترى كيف قال الله تعالى في شأن موسى عليه الصلاة والسلام : « وألقيْتُ عليكَ محبة مني » [1] . وقال سبحانه : « ان الذين آمنوا وعمِلوا الصالحاتِ سيجعلُ لهمُ الرحمن وُدًّا » [2] فحلاّهم تحلية التبهية ، ليحبهم العباد فيجرهم حبهم الى حب الله ، والحب في الله ، يوجب المحبة من الله ، لقوله عليه الصلاة والسلام : « وجَبَتْ محبتي للمتحابّين فيّ » [3] وقال شيخنا سيدي ابو الحسن الشاذلي قدّس الله سره : « من احب الله وأحب لله فقد تمتْ ولايته » [4] .

هكذا كان والدي رضي الله عنه ، فقد كانت انوار ولايتــه الكبرى في الاكوان مشرقة عامة في مظهره الذاتي الاقدس الذي تشير سويـداء القلب اليه ، وتنعكس السرائر عليه ، كيف لا وهو القطب الغوث الاكبر الجامع كمالات الوجود ، ذو النسبتين الطاهرتين ، الروحيــة والجسدية ، في الوراثة المحمدية ، لقد انعم الله به على اهل الشهود ، فتفجرت ينابيع الحكمة والمعرفة من قلوبهم ، وظهرت الاسرار والانوار ، واستنارت الابصار .

امدّنا الله بمدده الشريف ، آمين .

---

(١) سورة طه .

(٢) سورة مريم .

(٣) لطائف المنن لسيدي الشيخ تاج الدين بن عطاء الله الاسكندري ص ٥٠ و ٥١ .

(٤) لطائف المنن لسيدي الشيخ تاج الدين بن عطاء الله الاسكندري ص ٥١ .

الوارث المحمدي

في الولاية الكبرى والصديقية العظمى

بالارشاد الى سبيل الله تعالى

الولاية الكبرى [1]

●

ظهرتْ شمس العلاَ في القمرِ حين غابت عينها في الاثرِ
وانجلت تختال ما بين الورى تنفخ الروح بصور الصُّور .

★

أضرمتْ في الكأس نارآ تحترق جعلتنا من شذاها تحت رقْ
وغدت في كلّ قلب تخترق حجب الوهم بسيف القدرِ

★

درر قد اشرقت في الصَّدفِ ودرار جليــــت في غرف
فهلمُّوا يا أهيْــــل الشرفِ لدرار قد زهت مع دُررِ

★

بعتُ روحي في هواها ولها وفؤادي ذاب فيها ولهــــا
ما سلا قلبي ولا عنها لها كيف يسلو وهي ملء النظر

★

صلّ يا ربّ على طه العلى مظهر السر المفدّى وعلى
آله والصحب من فيهم علا احمد الناظم بـــين البشر

* * *

(١) نظم العلامة الكبير ، الشيخ احمد عباس الازهري البيروتي ، الذي تلقى الطريقة الشاذلية عن والدي ، وقد مدحه بعدة قصائد واناشيد صوفية .

الوارث المحمدي

جمالٌ له الاملاك تنقاد سـجّداً   وتشتاق المَعنى بحكمٍ محـتّم [1]

* * *

كان والدي قدّس الله سره ، في غاية الجمال والكمال ، كان مديد القامة قويّ البناء ، ليس بالبادن ولا بالنحيف ، بعيد ما بين المنكبين ، أبيض اللون ، عريض الجبين ، مشرقاً ما بين الحاجبين ، اشهل العينين ، تحيط بهما اهداب طويلة ، أقنى الانف ، مع طول يتناسب وهيئة الوجه مدبّب الارنبة قليلاً ، جميل الثغر ، أسيل الخدّين ، خفيف العارضين ، ناعم الشعر طويل الذراعين وأصابع اليدين ، ذا هيبة وجلالة وبهـاء ، فصيح اللسان عذب الكلام والابتسام ، يتكلم العربية الفصحى بلهجـة مغربية خفيفة ، وبعض كلمات مغربية عاميّة .

ورث عن آبائه وأجداده وفرة الصحة ، وطول العمر فعاش – مائة وثمانية اعوام – وهو محتفظ بقواه العقلية والجسدية ، والحواسّ الخمس ، لم يقوّس الكبر ظهره ، ولم تطمس الأعوام جماله الباهر ، ولم تضعف فيه قوة التفكير الصافي الموزون (ألا إنّ أوْلِياءَ الله لا خَوْفٌ عَلَيْهِم وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ، الّذِين آمنوا وكانُوا يَتّقُون) [2] .

أخلاقه المحمدية

كان رضي الله عنه متخلّقاً بأخلاق القرآن الكريم ، كقوله تعـالى : (خُذِ العَفْوَ وأمُرْ بِالْعُرْفِ وَأعْرِضْ عن الجَاهِلِين) [3] وقـوله

(١) من قصيدة مطولة ، نظمها الشيخ رشيد سنان من هيئـة كبار العلماء في دمشق ، تلقى الطريقة عن والدي وحصل له الفتح المبين .

(٢) سورة يونس .

(٣) سورة الاعراف.

سبحانه : (وَعِبَادُ الرَّحمَنِ الّذِينَ يَمشُونَ على الأرضِ هَوْناً ، وإذا خاطَبَهُمُ الجَاهِلوُنَ قَالوا سَلاماً ، والّذين يَبِيتون لِرَبِّهِم سُجَّداً وَقِياماً) [1] ، وكان متحلّياً بسجايا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، سائراً على اثره ، فمن خرج عن الاقتداء فاته الاهتداء ، والولاية الكبرى وراثة محمدية مرتبطة بالاتّباع .

علوم ومعارف الربانية

وكان قدّس الله سره آيةً في العلم والتصوف ، والعرفان والزهد والورع والأحوال السّنية ، والمواهب اللدنيّة ، والهمّة العالية بالله ، والتواضع الى الله ، مع كافة مخلوقاته ، والرحمة والرأفة والصدق والأخلاص والتوكل والقناعة وطمأنينة النفس ، والحلم والكرم والصفح والحزم والعزم ، والثبات عند النوائب والصبر والتأنّي والتضحية وإنكار الذات ، والعفو عند المقدرة ، فلما أظهره الله داعياً هادياً اليه أعطي لسان فَهْم في القرآن وفقه الحديث وعلوم القوم ، وأذُناً في التعبير ، قال تعالى : (إلاّ مَنْ أذِنَ له الرَّحمَنُ ، وقالَ صَواباً) [2] وقال سبحانه : (إلاّ مَنْ أذِنَ له الرَّحمَنُ وَرَضِيَ لهُ قَولاً) [3] ، قال مولانا الشيخ ابن عطاء الله الاسكندري رضي الله عنه في الحكم : (ومن أذن له في التعبير فهمت في مسامع الخلق عبارته وجليت لهم إشارته) وقال شيخنا ومولانا ابو العباس المرسي رضي الله عنه (يكون الولي مشحوناً بالعلوم والمعارف والحقائق لديه مشهودة ؛ حتى إذا أعطي العبارة كانت كالاذن له في الكلام) هكذا كان والدي رضي الله عنه يغرف من فيض بحر إلهي ومدد رباني ، فإذا تكلم بالعلوم الجليلة والاسرار

(١) سورة الفرقان .
(٢) سورة النبأ .
(٣) سورة طه .

العجيبة اتى بالاسلوب البديع والمنهج القريب ، وكان كلامه قريب العهد من الله .

* * *

عباداته رضي الله عنه

اما عباداته ، فعلى منهاج الشرع الشريف بصدق العبودية لله ، والقيام بحقوق ربوبيته تعالى ظاهراً باطناً باستغراق كلّي بشهود الله عز وجل ، فقد سمت به تجليات الحق ، بالاتيان بكلما استحبه النبي صلى الله عليه وسلم من نوافل العبادات والطاعات ؛ فكان لا ينام من الليل إلا قليلاً ، يتهجد به وهو قائم يصلي الى طلوع الفجر ، وفي النهار يشغل اوقاته بصنوف العبادات والطاعات ، بين يدي الله في مجالس الفرائض ومجالس نوافل الخيرات ومجالس الذكر ، ومجالس العلم والارشاد الى سبيل الله ، وقضاء حوائج الناس وخدمة الفقراء وتربية المريدين التربية الصحيحة ، والسير بهم في مراتب الكمال . فإذا آوى الى غرفته فللاستغراق بالعبادة ، وإذا جلس مع الناس فللارشاد والهداية . هجْرته الى الله عبادة ، وإرشاده الى سبيل الله عبادة ، فقد ثبت ان عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يهيّء الكتيبة للجهاد بفكره وهو قائم يصلي ، فلا تنقطع صلاته ، لأن هذا النوع من التفكير عبادة ، وكلما فاضت المعرفة بالتحقيق والشهود والوصول اليه تعالى في حضرة الله ، كثرت العبادة وعظم اثرها ، ومهما ارتقت درجة المؤمن وارتفعت منزلته بالعلم والتصوف والعرفان ، لا تسقط عنه العبادة ، فهي لم تسقط عن الانبياء ، ولن تسقط عن احد بحال من الأحوال .

اما بعد ، فقد كان سيدي الوالد رضي الله عنه ، من اصحاب الهمم العالية بالله ، ومن اهل الفهْم عنه جلّ جلاله ، الذين ساروا اليه في الذّات

بالذات ، وعلموا ان الأنفاس امانات الحق وودائعه لديهم ، وانهم مطالبون برعايتها ، وان لكل وقت سهماً في العبودية يقتضيه الحق منك ، فوجهوا هممهم لذلك .

فهو من الصفوة المختارة من اولياء الله الصديقين الأبرار الداعين اليه تعالى ، والدالين عليه والموصلين اليه ، خصه الله بشرف الدعاء اليه وألبسه ملابس هيبته وخلع عليه خلع الجلالة والبهاء ، وفتح له باب محبته كما قال تعالى (يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَه) [1] . فأخذه منه ونشط نفسه لخدمته ، وأنار قلبه بمعرفته ، وحرسه من الأغيار وأمدّ عقله بنوره ، وكشف لروحه عن قدس كماله ، بشهود عظمته وأفاض عليه من أنوار الحضرة المحمدية ، وجعله من ورثة خاتم الأنبياء صلوات الله وسلامه عليه ، في مقام إرشاد الخلق الى الحق وبث أذواقه وعلومه فيهم . (إنَّ الأبْرارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأسٍ كَانَ مِزاجُها كافُوراً ، عَيْناً يَشْرَبُ بِها عِبادُ الله يُفَجِّرُونَها تَفْجِيراً) [2] .

* * *

شمس الكمال ، هلال الدين مرشدنا | بحر الحقيقة برّ العلم والعملِ [3]
ارض الخضوع سماء الفخر نجم هدى | طور المناجاة سحب الوابل الهطِلِ
قدس المحبين بيت الله مكتنا | صفا وزمزم ، نور القلب والمقلِ
هدى رشادي كمالي قدوتي سندي | ذخري ملاذي يقيني ملتي أملي
جعلته في الملا قصدي ومعتمدي | وقد خلعت رداء العلم والعمل
دع عنك عذلي فما أذني بصاغية | يا عاذلي ، لا ، ولا قلبي بمنعزل
ارواحنا أزلاً في حبه طبعت | فلو علمت عذولي جزت عن عذلي
وهذه شمس ذات الحق قد ظهرت | فانهض اليها بلا خوف ولا وجل

(١) سورة المائدة .
(٢) سورة الدهر .
(٣) من قصيدة مطولة ، نظمها الشيخ عبده الحمصي الدمشقي احد مريدي سيدي الوالد. « من مجموعة اناشيد اخواننا — خط يد — »

تلق كؤوس الصفا بالأنس قد مزجت ومشهد القوم في تلك الكؤس علي
حجّت اليها أولوا الالباب مسرعة وفاقد القلب ردّته يـد الفشل

عصر الارشاد

يبدأ عصر الارشاد في الولاية الكبرى - اي - في الوراثة المحمدية في حياة والدي رضي الله عنه، بعد انتقال شيخه الى دار البقاء وظهور المرتبة الفردية فيه، بالقيام بالنصرة لدين الله تعالى، فقد أظهره الله داعياً هادياً اليه دالاّ عليه، وكان سيره في الذات بالذات حسبما أفاضت عليه الحضرة من تجليها الذاتي، بعد ان تحقق بالنعوت والكمالات المحمدية، وقام بجميع شئونات المرتبة الفردية بالاستعداد الذاتي الذي حازه كمّل ورثة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ذلك لأن الافراد والسائرين في هذا الطريق متفاوتون، منهم من يكون سيره في الذات بالذات وهم الافراد المحمديون ومنهم من يكون سيره بالاسماء والصفات. قال مولانا سيدي الشيخ علي وفا قدس الله سره :

اصبحتُ ذاتاً بلا صفات للذّات بالذات مستمدّا
وغابت الذات من وجودي عليّ فاستهلكته قصْداً[1]

* * *

قال العلامة الكبير الشيخ محمود ابو الشامات الدمشقي رحمه الله : ان من المحقق المشهود عند اهل الله جميعاً، ان ذات الله تعالى واسماءه وصفاته وافعاله، لا ينال منها شيء إلا بمظهر إمكاني، وغير هذا لا يكون أصلًا لا في الدنيا ولا في الآخرة [٢].

وقال حجة الاسلام الامام الغزالي رضي الله عنه في رسالة - أيها الولد - « لا بد للسالك من شيخ يؤديه ويرشده الى سبيل الله تعالى، فيخرج

(٢) البيتان من قصيدة مطولة لمولانا الشيخ علي وفا .
(١) الالهامات الالهية ص ٢٧ .

الاخلاق السيئة منه ، ويجعل مكانها خُلقاً حسناً ، لأن الله ارسل للعباد رسولاً للارشاد إلى سبيله ، فاذا ارتحل خلّف الخلفاء في مكانه ليرشدوا الى سبيل الله تعالى ، ثم يحدثنا عن الشيخ الذي يصلح ان يكون نائباً لسيد المرسلين فيقول : إني أبين لك بعض علاماته على سبيل الاجمال ، كي لا يدّعي أحد انه مرشد فتقول : مَن يعرض عن حب الدنيا وحب الجاه ، وكان قد تابع لشخص بصير تتسلسل متابعته الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان مُحسناً رياضة نفسه ، من قلة الأكل والنوم والقول ، جاعلًا محاسن الاخلاق له سيرة ، كالصبر والصلاة والشكر والتوكل والقناعة واليقين وطمأنينة النفس الخ . فهو نور من أنوار رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلح الاقتداء به ، ولكن وجود مثله نادر أعزّ من الكبريت الاحمر » اهـ . ١

كان والدي المعظم نوراً من أنوار رسول الله صلى الله عليه وسلم يُستضاء به ، وكان مُجازاً من شيخه باعطاء الطريقة الشاذلية وتربية المريدين ، كما بيّنتُ في فصول كتابي هذا ، وكان منذ بداية امره حائزاً على شروط الشيخ الذي يُلقي اليه المريد بنفسه ، بالعلم الصحيح ، والذوق الصريح ، والعقل الراجح ، والفكر الصائب والهمة العالية ، والبصيرة النافذة والاحوال الرضية ، بعيداً كل البعد عن حب الدنيا وأربابها ، وحب الجاه ، فلما انتقل شيخه قدّس الله سره الى رحمة الله تعالى ، لم يكن والدي في الزاوية في – مصراطة – بل كان في رحلة من رحلاته في بلاد المغرب يدعو الى سبيل الله ، حيث كان شيخه يوفده في مثل تلك الرحلات ، ويعتمد عليه ، وعندما بلغه خبر انتقال شيخه كان في حالة حزن شديد ؛ لم يقوَ معها على متابعة السفر فرجع الى زاوية شيخه في – مصراطة – للقيام بالواجب تجاه الراحل العظيم وانجاله الكرام . فقد بلغ في حبه واجلاله وإعزازه وتعظيمه لشيخه مقام الفناء

(١) رسالة ايها الولد ، للامام الغزالي ص ٦٧ و ٦٨ .

فيه ، وقد تجلى هذا الاخلاص المنقطع النظير بأروع معـــانيه في حبه لأولاد شيخه ، بعد انتقال والدهم الى دار البقاء .

كان لا يذكرهم إلا بالتعظـيم والاحترام ، ويغرس في قلوب مُريديه واتباعه حبهم واحترامهم ، ثم هو يرفض ان يبايعه احد من مريدي شيخه او ممّن بايع اولاد شيخه . ويعاملهم ، كما لو كان ما يزال ، فقيراً مريداً متجرداً في الزاوية في بلاد طرابلس الغرب ، ولم يستقر هناك ، بعد انتقال شيخه الى جوار ربه ، غير ايام معدودات ، فقد رجع الى بلاده اي الى تونس الغرب [1] بعد ان انعم الله عليه بالوراثة المحمدية فبدأ يدعو الى سبيل الله تعالى في تلك البلاد ، فيعطي الطريقة الشاذلية من هو اهل لها ، ثم إذا به يعتزم القيام بتلك الرحـــلة المباركة ، الطويلة الأمد ، للارشاد الى سبيـل الله تعالى ، والدعاء اليه سبحانه ، ومما ساعد على ذلك ، وفاة امه العزيزة عليه التي توفيت في نفس السنة التي انتقل فيها شيخه الى دار البقاء ، وكانت اسرته يومذاك ، مؤلفة من زوجة شابة ، وثلاثة اطفال صغار ، الابنـــة الكبرى يتيمة الأم في ربيعها السابع ، تدعى عائشة ، والولدان الآخران ، ابراهيم في السنة الثالثـة ، وشقيقته خوجية اصغر منه سناً ، وقد تحدث الى زوجـــه امّ ولديه بأمر سياحته التي لا يعرف لها حـــدًّا ، واخبرها انه مسـيّر غير مخير لما يريد ، وان إرادته

---

(١) **حنين** : بمناسبة ذكر تونس الغرب اثبت هذه الابيات :

يا بحر تونس هـــل بتونس من شذا ... احبابنـــا عرف هنـــالك ضائـــع
سادات يشرط اصـــل عشقي والهوى ... لـــــه اقـــار بعـــكا طوالـــع
بلـــغ سلامي تونساً حيث التقـــى ... والمكرمات وحيث قلـــبي والـــع
واذكـر هنالك عهد نور الدين هل ... عهد الطريقـــة بعد ذلك راجـــع

هذه الابيات الهم بها اخونا السيد احمد بهجت الشهبندر الحلبي ، وهو في مرسيليا في حديقة عامة مشرفة على البحر الممتد لسواحل البلاد الافريقية ، وقد تخيل البلاد التونسية ، المقابلة لمرسيليا حيث هو واقف يستعرض الذكريات السعيدة ، وقد اشتد به الحنين الى ذلك العصر الذهبي ، فهو من ابناء اخواننا السابقين الذين نالوا شرف الانتساب الى سيدي الوالد في مدينة حلب ، وقد زاده الله من فضله فنشأ في احضان الطريق ، وانعم عليه فجعله من اخواننا المخلصين .

إرادة مولاه فيه ، ثم هو لا يعرف متى يرجع اليها ، فهل تود الانتظار ، ام تريد ان تتبعه إذا ما استقر في مكان ما ، ام تود الطلاق ، لتكون حرة التصرف بحياتها ، وهكذا اختارت الطلاق ، ثم بعد سفره بمدة قليلة ، تزوّجت رجلًا من تونس الغرب وتركت ولديها في حضانة شقيقتها الكبرى ، لقد خضع رضي الله عنه للاذن الالهي الذي اختاره الله اليه ، واختصه به ، فغادر بلاده في رحلة الى الحق عزّ وجل ، يدعو الى الله على بصيرة كما قال الله تعالى « قُلْ هذه سَبِيلي أدْعُوا إلى اللهِ على بصيرةٍ أنا ومن اتَّبعَني »[1] يبشر بدين الله الحنيف ، ويحمل لواء الطريقة الشاذلية ، ويعمل على نشر مبادىء الصوفية ، باذلاً أمواله مضحياً بحياته واولاده ودنياه وراحته ، في سبيل الهداية والارشاد الى سبيل الله تعالى ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لعلي بن ابي طالب كرّم الله وجهه « لانْ يَهْدِيَ اللهُ بِكَ رَجلًا واحداً خيرٌ لك من أنْ يكونَ لك حُمْرُ النَّعم)[2] وقال شيخنا ومولانا عبد السلام بن مشيش قدس الله سره ، في الوظيفة الشاذلية التي نتلوها صباحاً ومساءً : (واجعلنا ممن اهتدى بك فهدَى) .

لقد خرج مرشدنا رضي الله عنه سائحاً في معارج مدارج قدس الله تعالى في رحلته المباركة ، الى الله . وقد صحبه تسعة رجال من بلاد المغرب ، وكان السفر في ذلك العصر قطعة من العذاب في البر والبحر ، سواء كان السفر في السفن الشراعية او على ظهور الأبل والدواب ، او مشياً على الأقدام . وكان رضي الله عنه ، صحيح البنية قويّ الايمان غير هيّاب ولا وجل ، يعمل بوحي الالهام وحكم التجلي الالهي ، الذي يحيى به في مواقفه الروحية وسموّه الذاتي ، فجعل ينتقل وصحبه من مكان الى مكان ، في إفريقية وآسيا ، وقد صادفته حوادث كثيرة تعرض

---

(١) سورة يوسف .

(٢) حديث شريف، اخرجه البخاري في مناقب سيدنا علي كرم الله وجهه .

فيها للجوع والعطش ، وحرّ السَّموم ، وهو صائم في شهر رمضان المبارك . وكذلك كان حاله مع القبائل المتوحشة فنصره الله عليهم وأيَّده بروحٍ من عنده ، فكانت نهاية كل حادثة من تلك الحوادث هداية خلق كثير الى سبيل الله تعالى بتوفيق من الله عز وجل . كان أينما حلّ وأنّى رحل ، يُقبل الناس عليه ملبّين الدعوة الى الله ، تجذبهم رائحة العطر الذاتي ، ويُسكرهم شذى النفحات القدسية . فكان رضي الله عنه يُحيي فيهم سنّة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، ويدلُّهم على الله ، فيعرّفهم طريق الحق الى الحق ، ويعطي الطريقة الشاذلية العلية لمن يراه اهلًا لها ، ويأمر المنتسب اليها بما يستوجبه الدين الحنيف ، من اتّباع اوامره واجتناب نواهيه ، والقيام بأوامر الطريق وما تفرضه على السالك فيها من الأذكار والأوراد المشروعة . فالصوفي المنتسب الى طريق الله تعالى ، لا يكتفي بالاقرار بعقائد الايمان والقيام بفروض الدين فحسب ، بل هو يُقرن الاقرار بالذوق والوجدان ، ويزيد على المفروض الاتيان بكل ما استحبّه النبي صلى الله عليه وسلم ، من نوافل العبادات والطاعات ، ثم هو يبتعد عن المكروهات فضلًا عن المحرمات .

وكان رضي الله عنه إذا مرّ على قرية أو قبيلة ووجد اهلها على غير الفطرة الاسلامية ، دعاهم الى الاسلام ؛ فإما ان يشرح الله صدورهم فيُسلمون جميعاً ، او يشرح صدور بعضهم الى الاسلام ؛ وهنالك يأخذ بتعليمهم امور دينهم ، ويأمرهم بالتقوى والاستقامة ، وينهاهم عن المنكر ويدعو لهم بالثبات على الايمان ، ويعطي الطريقة لمن يراه اهلًا لها ، وقد كان هو يعيّن في كل مكان تنتشر فيه الطريقة الشاذلية مقدّماً من اهل تلك البلاد يجيزه بإعطاء الطريقة بعد سفره وتولّي امور الفقراء وتربية المريدين .

ومن عاداته رضي الله عنه انه كان أثناء سياحته ، لا يمكث في مكان ما غير ايام معدودات ، او أسابيع لا تتجاوز مدتها الشهر الكامل ، وكان

لا يأمر احداً من مريديه بترك عمله ، ويوصيهم بالنظر الى كافة مخلوقات الله تعالى بعين الرحمة على اختلاف الملل والنِّحل ، فلما طالت سياحته سنين في افريقية وآسيا ، لم يقو الرجال الذين صحبوه على متابعة السفر ، فرجعوا الى بلادهم ، ولم يبق معه غير اثنين منهم ، هما : الشيخ عمّار : والشيخ محمد ماما : وقد دامت الرحلة اعواماً أخر ، وهو يطوف ويتنقل من مكان الى آخر ومن قطر الى قطر ، في المدن والقرى وبين القبائل ، في البراري والصحاري ، في افريقية وآسيا ، داعياً هادياً مبشراً بدين الله الحنيف ، يخرج الناس من ظلمات الجهل والكفر ، الى نور المعرفة وحق اليقين ، ويبريء مرضى القلوب ويحيي مواتها ، تحت لواء الطريقة الشاذلية ؛ وبارادة الله تعالى انتشرت الطريقة في تلك الاقطار البعيدة ، وعمّ الفضل ؛ ونال ما كان يبتغيه من تكميل السالكين فيها ، وإيصالهم الى حضرة القرب ، وزيادة عدد المسلمين في تلك البقاع من الارض بدخول الناس في دين الله افواجاً [١] .

(١) بمناسبة حديثي عن سياحة سيدي الوالد ، وقيامه بالواجب المقدس في خدمة الاسلام والمسلمين بنشر الدين الاسلامي في الاقطار البعيدة ، انقل بعض ما جاء في كتاب الاسلام والنصرانية ، تأليف مسيو بونه اموري الفرنسي وترجمة الامير شكيب ارسلان ، بتعليقه على كتاب حاضر العالم الاسلامي ، الذي نقله الى العربية الأستاذ عجاج نويهض ، حيث يقول مسيو بونه : ان لشيوخ الطرق الصوفية الفضل الاكبر بنشر الدين الاسلامي ، في الاقطار البعيدة المتوحشة ، وحمايتها من التنصير على ايدي المبشرين المسيحيين الذين كانوا يؤمونها لنشر الديانة المسيحية فيها توطئة للاستعمار . قال في صحيفة ٢٥٤ : « في تلك الايام حصلت حركة دينية عند البربر ، وظهرت عندهم الطرق الصوفية المشابهة للرهبانيات عند النصارى ، وترجع هذه الحركة لسببين ، احدهما عقيدة التصوف التي ترمي الى الفناء في الله ، والثاني ، دعوة اهل البدع والاهواء ، وغير المسلمين الى الاسلام ، واتباع هذه الطرق يشبهون الرهبان في الانقطاع للعبادة وكثرة الصلاة ، ومنهم من هم نظير الرهبان العسكريين ، يعتقدون انهم مكلفون باستعمال السيف لنشر الدعوة ، ولكنهم يفترقون عن رهبان النصارى بعدم البتول وفطم النفس عن النساء ، ويقال لمحل اجتماعهم (رباط) ، ولرئيس الطريقة مرابط ، ولذلك لما قام عبد الله بن ياسين بالدعوة الدينية لهداية البربر من (لمتونة) وغيرها ، اجتمعت حوله عصابة سموا بالمرابطين ، وكانت لهم دولة وصولة بلغت اوجها في زمن يوسف بن تاشفين سنة ١٠٥٠ ميلادية ، وقام مقام المرابطين ، الموحدون ، وكانت لهم في الاندلس والمغرب دولة عظيمة ،

فلما قضى والدي رضي الله عنه عشر سنين على تلك الحالة المشرفة، في خدمة الاسلام والمسلمين، جاءه الالهام من الملك العلاّم، بتأدية فريضة

وكان الشرفاء من اعقاب ادريس من اتباع العقيدة الصوفية، وكانت هذه العقيدة تقرأ في فاس، وتونس، وهما اعظم مراكز العلم بأفريقية، وقد اخذ بها خلق كثير.

وبعد ان تحدث مسيو بونه اموري عن الشيخ عبد القادر الجيلاني، والطريقة القادرية، قال: « اما الطريقة الشاذلية، نسبة الى الشيخ ابي الحسن الشاذلي. اخذ عن الشيخ عبد السلام بن مشيش الذي اخذ عن ابي مدين(١) وكانت ولادة ابي مدين في اشبيلية. قرأ في فاس، وحج البيت الحرام، ثم استقر يعلم التصوف في بجاية، وتبعه خلق كثير انقسموا بعده الى ثلاث فرق، الاولى الشاذلية المنتشرون في الجزائر، الثانية الدرقاوية الذين مركزهم مراكش، الثالثة المدنية. الذين هم كثيرون في طرابلس الغرب » وبعد ان افاض بحديثه في بحث الطرق والزوايا وتشكيلاتها، قال: « ان العرب لم ينتظروا تشكيل الطرق الصوفية حتى يبثوا الدعوة في السودان وغيره، بل منذ اواخر القرن السابع، كانوا اخترقوا فزان ودخلوا السودان، ولكن اتباع الطرق الصوفية هم الذين تم على يدهم اسلام القسم الاعظم، من مسلمي اواسط افريقية، وهم الذين اوقدوا الحمية الدينية بعد ان كادت تفتر، وادخلوا معظم السودان في الاسلام بالارشاد والتعليم، والاخذ والعطاء ».

وقال في ص ٢٧٢ « اما في الدور الثالث من سنة ١٧٥٠ الى سنة ١٩٠١ فقد نهض الاسلام نهضة ثالثة على ايدي مشايخ الطرق الصوفية، وذلك في اواخر القرن الثامن عشر، لما دخلت الدعوة البرتستانتية من كل نوع الى افريقية، وضاعفت الكنيسة الكاثوليكية فيها مجاهديها، بسائق المنافسة، كان لا بد ان ينتبه الاسلام لمقاومة النصرانية، وان يشتد الصراع بين هاتين القوتين المتقابلتين، مقروناً بالاهواء السياسية التي تزيد شدة وحدة، واكثر اسباب هذه النهضة الاخيرة، راجعة الى التصوف والاعتقاد بالاولياء وبظهور المهدي ».

وقال في ص ٢٧٥ « لقد تأسست الطريقة الشاذلية في النصف الاول من القرن الثالث عشر

(١) **تصحيح**: اخذ الشيخ ابو الحسن الشاذلي، عن الشيخ عبد السلام بن مشيش، الذي اخذ عن الشيخ عبد الرحمن المدني المشهور بالزيات لسكناه في حارة الزياتين، ولم يأخذ الشيخ عبد السلام عن ابي مدين، اما الشيخ العربي الدرقاوي فقد اخذ عنه شيخ والدي وجميعهم من اقطاب السلسلة الشريفة الشاذلية، قدس الله اسرارهم.

وكان الشيخ ابو الحسن الشاذلي قد اخذ الطريق عن الشيخ الحرازمي، كان هـذا قبل ان يتشرف بالاخذ عن الشيخ عبد السلام بن مشيش، وقبل انتسابه اليه، وللشيخ الحرازمي سند في الطريق، فيه الاخذ عن الشيخ ابي مدين شعيب الاندلسي الاشبيلي الانصاري، وفيه الاخذ عن الشيخ الجنيد.

وبعد اخذ الشيخ ابي الحسن عن الشيخ عبد السلام بن مشيش كان لا ينتسب الا اليه، اذا سئل عن شيخه.

الحج وزيارة البيت الحرام ، فقصد الحجاز مـع صاحبيه ، وجاور هناك عند قبر النبي صلوات الله وسلامه عليه ، في المدينـــة المنوّرة ، اربع سنين كاملة ، في حالة نسك واعتكاف ، كان في كل سنة منها يؤدي فريضة الحج الاكبر وزيارة البيت الحرام .

للميـــلاد وهي من اوليـــات الطرق التى ادخلت التصوف في المغرب ، ومركزها بويريت في مراكش ، وكان من اشياخها سيدي العربي الدرقاوي المتوفي سنة ١٨٢٢ الذي اوجد عند مريديه حماسة دينية شديدة الى المغرب الاوسط ، وكان للدرقاوية دور فعال في مقاومة الفتح الفرنسي ، ومما امتاز به الدرقاوية هو شدة الطاعة لمشايخهم ، فان الدرقاوي المار الذكر ، كان يوصي مريديه ساعة موته بقوله : « يجب على الاخوان ان يكونوا في يد المرشد كالجثة بين يدي الغاسل » .

اشراق

شمس المعارف الكبرى

في الشروق

بزغت شمس العرفانْ تتجلّى في الاكوانْ
في مرآة الرحمـــن مولاي عليٌّ الشان
وبه تمّ الايمان

راق انسي وعلا نجم السعدي وبشمسي قد حلا وجدي
طاب كأسي في هوى هذا الفرد مَن عُلاهُ جل عـــن حدّ
اللازمة — بزغت شمس العرفان

قد حلا لي في الهوى خلع العذار ومَحالي ظلمة الاغيارْ
صار حالي فيه للحق مـدار ومآلي مـنشأ الاسرار
اللازمة — بزغت شمس العرفان

كأس خمري فيه اسرار الوجود وبِسكري طاب لي الشهودْ
صرت ادري انني عين المقصود حيث بدري صار لي مشهود
اللازمة — بزغت شمس العرفان

طاف قلبي في حمى البيت المعمور وبلُبّي كان دكُّ الطّـور
كأس شربي فيـــه نار ثم نور وبحُبّي تمّ لي الحضور
اللازمة — بزغت شمس العرفان

قد دعاني للبقا داعي الفنـا وكساني حُـلة الهنـــا
بمعانِ قولـه أنـت أنا وحباني غـــاية المُـنى
اللازمة — بزغت شمس العرفان

بشجوني ليت قومي يعلمون وجنوني صار لي فنون
حقّقوني يا أصيحاب العيون عن يقيني كان ما يكون
اللازمة — بزغت شمس العرفان

وصلاتي تُهدى مع أزكى السلام لِحياتي خِيرة الأنــام
نور ذاتي وكذا الصحب الكرام هم هُداتي في دجى الظلام
اللازمة ـ بزغت شمس العرفان [1]

الشرح

لقد ذكرت في الفصول السابقة ، ان شيخنا رضي الله عنه كان يعيش لربه لا لنفسه ، وأنه يسير بحكم التجلي الالهي والالهـام الرباني في تغرّبه عن الخلق إلى الحق ، وهجرته الى الله ورسوله . فبعـد ان قضى اربع سنين في الحجاز ، توجه لزيارة قبر شيخنـا الاكبر الذي تسمّت الطريقة الشاذلية باسمه الشريف ، مولانا الامـام علي أبي الحسن الشاذلي ، قدّس الله سره ، وقــبره يُزار إلى الآن في ـ القصْير ـ عــلى شاطيء البحر الاحمر .

وبعــد ان أدى والدي تلك الزيارة المقدسة ، صدر الاذن الالهي بالرحيل الى الديار الشامية لزيارة المسجــد الاقصى في القدس الشريف ، ورغم قوة الظهور في ولايته الكبرى ، كان ما يزال يشعر ان عــلى عاتقيه واجبات وتبعات روحية ترغمه على متابعة السفر ، وعدم الاستقرار في مكان ما . وهكذا هبط مدينة الاسكندرية وركب البحر في سفينة شراعية تقصد مدينة يافــا ، وبمشيئة الله وقدرته هبت عاصفة شديدة ، وهاج البحر هياجاً عظيمـاً ، فلم تتمكن السفينة من الوقوف امـام ثغر يافا . ثم جذبتها الرياح الى شاطيء البحر ما بين بيروت وصيدا ، امام قبر النبي يونس عليه الصلاة والسلام ، وكان رُبّانها وصاحبهــا من اهل بيروت من آل ـ شبارو ـ رجلًا صالحاً محباً لأهل الله ، وقد ابى ان يأخذ اجراً من والدي وصاحبيه ، هُنالك قال له والدي : مد يـدك ،

(١) للشيخ احمد عباس الازهري البيروتي ، من اعيان علماء بيروت وصاحب الكلية الشهيرة باسمه فيها .

اريد ان اكافئك ، ثم اعطاه الطريقة الشاذلية .

فكان أول رجل أخذ الطريق عن شيخنا رضي الله عنه في هـــذه البلاد ، وكان فيما بعد من اخلص مريديه .

هبط والدي رضي الله عنه ارض الساحل ، وبات أولى لياليه اللائحـة في بلاد الشام ، في مقام النبي يونس عليه الصلاة والسلام ، فاستقبـــله ذلك النبي الكريم في حماه الاقدس مرحِّباً به ، ومشجعاً إياه ، ثم قـــال له : « يا عليّ ، مكـِّن الحربَة في ـ عكا ـ » بعد ان ضمه الى صـــدره ودعا له بالفتح المبين والفوز العظيم .

لقد رأى والدي حضرة ذلك النبي الكريم رؤية حقيقية لا رؤيا منام. وفي صباح اليوم الثاني ، رحل متوجهاً الى مدينة ـ عكا ـ بطريق البر ، وما ان شارفها ووقف في بريَّتها امام قبر النبي صالح عليه الصلاة والسلام ، خارج السور ، حتى كان على علم بأمر الله تعالى ، وان هنا المقام ، وهنـــا مشرق انوار الولاية الكبرى ، والصديقية العظمى ، فأحسّ بنفحـة الاستقرار الروحي ، وزال عنه ما كان يجده من قيود وتبعات روحية كانت ترغمـه على متابعة السفر والانتقال من مكان الى آخر ، بعد ان قضى اربعة عشر عاماً داعياً الى الله ، ومجاهداً في سبيل الله في تلك السياحة المقدســة في رحلته الى الله ورسوله .

* * *

الكؤوس الشرطيهْ اسكرت كل الانامْ
والعلوم الاقدسيـــهْ أثبتت رشد الغلام
يا اولي الالباب هيّا نحو هاتيك الخيام
ننظر الشمس المضيا في حمى البيت الحرام

★

مرحباً اهلًا وسهـلا بك يا كل المرادْ
يا هلالاً قـد تجلَّى بين سمعي والفؤاد

جئتَ للتحقيق مجلى وحياةً للعباد
وبك الكون تجلى بعد جهل وظلام

★

نحن بالله حمانا لا بمال وولدْ
كل من رام اذانا حسبه الله الصمد
يا عزولاً قد اتانا سيف اهل الله حد
فتنحَّ عن لقانا فهو والله السلامْ

★

يا أصحاب البيان حققوا تلك الرموز
واعقلوا هذي المعاني فهي ابواب الكنوز
وارقبوا بدر الزمان قد تهيا للبروز
ما بقي إلا التداني فافهموا روح الكلام

★

فاخلع الاكوان والبس حُلة الخلق الجديدْ
واطرح الاغيار واجلس عند ذي العرش المجيد
عن هواك النفس فاحبس تربح العز الأبيد
واجعل المحبوب مؤنس فهو يعطيك الدوام

لمحة عن عكا

كانت الدولة العثمانية تحكم – سورية – ، وكانت الحدود السورية تتاخم مصر من الجنوب والعراق شرقاً ، وكان يطلق على (سورية ولبنان وفلسطين وشرقيّ الاردن) اسم واحد هو (سورية أو الشام) وكانت مدينة – عكا – قلعة حصينة لها ماض مجيد في الحروب والحصار وصد الاعداء ، يحيط بها سور عال ، له بابان ، الأول من الشرق إلى

من اناشيد الاذكار للشيخ عبده الحمصي الدمشقي الذي وصفه مرشدنا العظيم بأنه شاعر الطريقة .

البر والثاني لجهة البحر . ووراء السور خندق عميق عريض ذو منفذين .

والمدينة شبه جزيرة يطوقها البحر من جهات ثلاث ، وتترامى خارج سورها وخندقها سهول ومروج خضراء زراعية خصبة ، تظهر فيها انواع الازهار والرياحين وزنابق الحقول في اشهر الربيع . ولم تكن السلطات يومئذ لتسمح بان تغرس في اكنافها الاشجار ، ولا ان تشاد عليها المنازل ، فهي نقطة حربية هامة ، يعتمد عليها الجيش اعتماداً كلياً .

وكانت – عكا – في ذلك العهد ، مركز القيادة العليا للجيش التركي في سائر انحاء فلسطين ، ترابط فيها فرق كاملة العدة والعدد ، ويسكنها كثير من امراء الجيش وقواده وضباطه وعائلاتهم ، وكثير من الحكام المدنيين الذين يتولون إدارة الأحكام المدنية ، كما كانت من البلاد التي يرسل اليها المبعدون السياسيون من الآستانة ، وكافة البلاد الخاضعة للحكم العثماني . فكان منهم العظماء والكبراء والوزراء والعلماء الأعلام ، ومشاهير الأدباء . ويطلق على من يعيش فيها من المبعدين السياسيين اسم (قلعة بند) ذلك لانه يعيش في بيته ويتجول في انحاء المدينة أنّى شاء . لا فرق بينه وبين باقي السكان ، شرط الا يتجاوز حدود السور . وكانت هذه المدينة تعد من اعظم الثغور القائمة على شاطيء المتوسط ، نظراً لموقعها الجغرافي الممتاز ، وقرب مواصلاتها البحرية والبرية ، الامر الذي جعلها من أهم المرافيء التجارية في ذلك العصر ، حتى أطلق عليها اسم (باب البحر) ولهذا كانت الحركة التجارية فيها دائمة في كل ناحية من نواحي الحياة . هذا عدا المؤن والذخائر الحربية التي تنقل منها واليها بطريق البر والبحر ، وكانت منطقة الساحل والجبل التابعة لها خصبة زراعية تتفجر فيها الينابيع الجارية التي تسقي الحدائق الغناء .

وفي قرية ـ الكابري ـ ، نبع صاف يسيل في قناة الى عكا ، ويمر فوق قناطر بناها احد ولاة الاتراك ، من أجل ذلك سميت ـ قناة الباشا ـ ، ولم تكن حيفا يومئذ كما هي عليه الآن من الاهمية ، بل كانت بلدة صغيرة

هادئة في جملة المدن الكبيرة والصغيرة التابعة في الحكم ـ لعكا ـ ، وكذلك كانت تقطن مدينة ـ عكا ـ عائلات ارستقراطية عريقة من مسلمين ومسيحيين ، من بينها عائلات من اشراف المسلمين ، كما كان يقطنها رجال عظماء لا من قواد الجيش والحكام المدنيين والمبعدين السياسيين فحسب ، بل من اهلها ايضاً ، منهم علماء اعلام تلقوا علومهم في الازهر الشريف ، ومنهم الزعماء والوجهاء وكبار الزراع ، وأصحاب النفوذ ، وأرباب الاعمال ، عدا علماء الجيش وأساطينه .

وقد أنشأ فيها احمد باشا الجزار ، جامعاً كبيراً على طراز مساجد الآستانة ، جعل فيه مدرسة لطلب العلم الشريف ، سماها (المدرسة الاحمدية) ومكتبة عظيمة تحوي كتباً قيمة ، يهرع اليها الناس من البلاد ، والقرى المجاورة للاستفادة منها .

هكذا كانت الحياة في مدينة عكا ، يوم دخلها سيدي الوالد رضي الله عنه في عام ١٢٦٦ للهجرة .

صاحِ ، إن ضامكَ الزمان فَيَممْ باب غوثٍ تهوى له كُلُّ جبههْ
وتوَجّــه للبشرطيّ وقبّــلْ ثغر عكّا ، فانهــا خير وجههْ
ربمــا تُسعف الحظوظ وتحظى حيث تهوى ومــا بذلك شُبهــه
كلّ وجه أهــيم فيــه وقصدي بعليٍّ مَــن كرّم الله وجهــه

دخل شيخنا رضي الله عنه ثغر ـ عكا ـ ونزل في جامع الزيتونة ، وهو مسجد صغير بالقرب من السوق في وسط المدينة يجتمع فيه خلق كثير في اوقات الصلاة . وما كاد رضي الله عنه يجلس بعد الصلاة ويتكلم بما افاض عليه الحقّ عز وجل من العلوم والفهوم والأسرار والأنوار ، حتى أقبل الناس عليه يصغون . لقد سمعوا منه ما ادهشهم

هذه الابيات نظمها الشيخ العالم السيد نصوحي الجابري الحلبي احد مريدي سيدي الوالد فهو واخوه الشيخ العالم السيد عبد الحميد ووالدهما الشيخ العالم الحاج صديق افندي، وابناء اعمامه السادة الحاج ضياء ورضا ، وجميل ، كانوا من اخواننا السابقين المنتسبين لسيدي الوالد في مدينة (حلب) ، « وآل الجابري من وجهاء تلك المدينة واعيانها » .

وجذبهم اليه ، لأن عباراته عبارات المأذون من الله لهـداية المُريد . وكذلك كانت حـأله رضي الله عنه تقتضي الصمت في حضرة الله عزّ وجل ، فهو يتلقى ما يرد على سمع قلبه من العلوم والفهوم بإلهام رباني . فإذا نطق فلهداية مُريد ، إذ كيف يصدر عنه نطق او تعبير على غير الوجـه المذكور وهو يعيش في حضرة الله حيث لا أين ، ولا غَيْن ، والصمت من آداب الحضرة . قال تعالى في كتابه العزيز : (وَخَشَعَتِ الأَصْوَاتُ لِلرَّحْمٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا)[١] ، فكان لا بـد ان تستجيب لدعوته العقـول ، وتهفو اليه قلوب الخلائق من مشارق الارض ومغاربها ، فمن اطاع الله اطاعـه كل شيء . فقد كان رضي الله عنـه مُطاعاً ثم اميناً في طريق الاستقامة والاتّباع وامتثال اوامر الله تعالى ، واجتناب نواهيه وإقامة شعائر الدين الحنيف وإحياء سنّة رسـول الله صلى الله عليه وسلم ، إذ لم تشهد البلاد السورية نهضةً صوفية مباركة بعـد انتقال سيدي الشيخ عبد الغني النابلسي رضي الله عنه ، الى جوار ربه ، إلا بعـد قدوم سيدي الوالد رضي الله عنه اليها . وكان أول من تلقّى عنه الطريقة الشاذلية وانتسب اليه مفتي – عكا – الشيخ قاسم العرابي ، والتاجر الكبير الحاج ـ احمد دلال ـ ، والسيد ـ ابو أيوب القبلاوي – ، ولم تمض إلا ايام معدودات ، حتى تبعهم معظم القوّاد والعلماء والزعمـاء وأرباب الأعمال واصحاب الحِرف وغيرهم . وبعد ذلك اخذت الوفود من المدن والقرى المجاورة تهرع اليه ، للاقتباس من ذلك النور المحمدي المستمد من انوار رسول الله صلى الله عليه وسلم . فكم من منكِر غدا من رجـال الطريق العاملين فيها والمتفانين في خدمتها ، وكم من مذنب وعاصٍ تاب وأناب لمجرّد سماع حكمه ووعظه ، ودخل في طاعة الله تعالى بعد ان جذبته الخصوصية لهذا المظهر المحمّدي الأقدس .

فكان رضي الله عنه يوجّههم الى الاعمال التي فيها التصفيـة والتطهير ،

(١) سورة مريم .

فهي طريق التزكية والجهاد الاكبر ، إذ العلم عند الناس كثير ، ولكن العمل به قليل . وعلى تقدير وجود العمل ، فلا يخلو من طلب الحظوظ والحروف وذلك منافٍ للاخلاص .

ومعلوم ان العمل هو حركة الجسم والقلب والفكر ، فان تحرك بما يوافق الشريعة سُمي طاعــــة ، وان تحرك بما يخالف الشريعة ، سُمي معصية ، لذلك اجمعوا على ان الشريعـــة لاصلاح الظواهر ، والطريقة لاصلاح الضمائر ، والحقيقة لاصلاح السرائر .

ولما كان النور المحمدي هو الشأن الكلي الجامع لكل الشئون ، وهو الاصل لحقائق الموجودات ، كانت نبوة محمد صلى الله عليه وسلم جامعة لسائر النبوات ، ورسالته عامة ، وكتابه جامع لسـائر الكتب ، لذلك كان علم الحقيقة في امة محمد صلى الله عليه وسلم غير منفصل عن شريعته الغراء ، بل هو سرها ولبّها الخالص ، منبثق من القرآن العظيم والحديث الشريف . فقد سمّى الحق نفسه بالاول والآخر والباطن والظاهر ، وباسم عالم الغيب والشهادة ، اما العمل بعلم الحقيقة المسمى بعلم الباطن في امة محمد صلى الله عليه وسلم ، فهو يختلف عما كان عليه زمن ـ موسى ـ والخضر ـ عليهما السلام ، فقد كان موسى نبي رســـالة وتشريع ، وكان الخضر نبي ولاية لا نبي تشريع ، ولم يكن تابعاً لموسى مقيداً بحكمه الظاهر ، بل كان مستقلاً بنبوة ولايتـــه كما حدثنا بذلك القرآن الكريم في سورة الكهف (فَوَجَدَ عَبْداً مِنْ عِبَادِنا آتَيْنَاهُ رَحْمَــــةً مِنْ عِنْدِنا وَعلّمْنَاه مِن لدُنّا عِلماً) [1] ذلك لأن الخضر كان مأذوناً من الله بتنفيذ علم الحقيقة لحكمةٍ ارادها الله ؛ منها اثبات هذا العلم الشريف ، في الكتب المنزلة ، ووجوب طلبه كما يجب طلب علم الشريعة ، فكان حتماً عليه تنفيذه وتأويله امـــام نبي التشريع موسى عليه السلام ، ولم يفعل ذلـــك عن امره كما اثبتت الآية الكريمة (وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ

(١) سورة الكهف .

أمْرِي ، ذلكَ تأويلُ مَا لَمْ تَستطِعْ عَلَيْه صَبْراً) [١] .

اما الولي التابع لرسول الله صلوات الله عليه وسلامه ، فهو مقيد بالشرع الشريف ، فاذا اطّلع على حقيقة بالكشف كما اطلع عليها الخضر عليه السلام ، لا يجوز له ان يعمل بمقتضى حكمها لمجرد الكشف ، ما لم يؤيدها – الكتاب – والسُّنة – ويكون هذا الكشف له بمعنى التشريف والرفعة بسعة الاطلاع على حقائق الاشياء ، قال الله تعالى في كتابه الكريم : (قُلِ انظُرُوا مَاذا في السَّمَوات) قال شيخنا سيدي ابن عطاء الله الاسكندري قدس الله سره في الحِكَم : « اباح لك ان تنظر في المكوّنات ، قل انظروا ماذا في السماوات ، فتح لك باب الافهام ولم يقل انظروا السموات ، لئلا يدلك على الاجرام ، فالاجرام ، كالصّدف ليواقيت المعاني ، فمن وقف مع الصدف حُجب عن جمال اليواقيت الباطنة » [٢] ، اهـ .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لحارثة : « كيف أصبحتَ ؟ فقال : أصبحت مؤمناً حقّاً . قال : لِكُلّ قولٍ حقيقة ، فما حقيقة إيمانك ؟ فقال : عَزَفَتْ نفسي عن الدنيا ، فأسهرت ليلي وأظمأت نهاري ، وكأني أنظر إلى عرش ربي (بارزاً) وكأني أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون ، وكأني أسمع عُواء أهل النار . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : عَرَفتَ فالْزَمْ ، مؤمن نَوَّرَ الله قلبَه » [٣]

وحقيقة الاسرار عند السادة الصوفية ، إنما هي الحقائق التي تنطوي

---

(١) سورة الكهف .

(٢) كتاب الحكم لسيدي الشيخ تاج الدين بن عطاء الله الاسكندري ص ٤ .

(٣) ذكر هذا الحديث سيدي الشيخ الجيلي رضي الله عنه في الانسان الكامل ، فقال : وكأني انظر عرش ربي بارزاً . وقال ابن عجيبة في شرح الحكم فروى الحديث (لكل حق حقيقة) . وذكره شيخنا سيدي تاج الدين بن عطاء الله ، قدس الله سره ، في كتابه – لطائف المنن – (لكل حق حقيقة) ص ٧٤ رواه ابن المبارك ، ورواه عبد الرزاق في التفسير عن الثوري ، ورواه الطبراني واخرجه البزار والبيهقي في الشعب .

عليها ظاهرات الاشياء والحكمة الالهية التي يتذوقونهـا من القيـام برسوم الاحكام والشرائع . فالصوفي لا يكتفي بظاهر العبادات المسنونة في الدين ولكنه ينظر بنور الله الى ما تنطوي عليه الرسوم والاحكام من حكمة وأسرار ، فيجتهد لاستخراج هذه الاسرار من بواطنها ، ثم هو يحرص على ان يفوز باسرار الصـلاة ، فلا يُصلي وهو شارد الفكر ينصرف بقلبه الى مكان آخر ، لأن استحضار المُصلّي بالذكر ينقله من الغفلة الى الحضور ، ومـــن الحضور الى كشف الستور ، حتى يفنى الذاكر في المذكور ، والمُراد ان يكون المـصلّي مستغرقاً بالذكر فيها . قال تعالى : (إن الصلاةَ تنهَى عن الفحشاء والمُنكَرِ ، ولَذكرُ الله أكبَر) . قال الشيخ الأكبر سيدي محي الدين بن عرَبي رضي الله عنه : (ذِكر الله أكبر أعمالها وأقوالها فيهـــا) اهـ . فهي مجموعة عبادات ، ثم هي مناجاة بين العبد والرب ، ولذلك يجب على الفقير المُصلّي ان يجمع حواسه بحضور القلب ، فيكون منقطعاً عمّا سوى الله ، مُلاحظـاً عظمة المذكور بأسم الجلالة كأنه يراه .

قلبُ الشّجي يهواكْ   أنعم له بلقـــاكْ
حيث التجا بباب الرّجا   بالحَل الاعظم يا محسن هبه رضاكْ

★

أشغلت فؤاد الصبّ   عن كل شيء سواك
يا كعبة اهل القرب   روحـي فـــداك
أقسمت بما في القلب   من لوعة في هواك
علبعد كذا والقرب   كلّـي معـــاك

★

بالمصطفـــى مرآك   أذقني شراب وصال من صافي دنان حماك

★

يا كنز شئون المبدى   يا روح روح البيانِ
قد طال عناء العبد   يا ابن المـــداني

بجميلك يا ذا الفرد أنعم له بالتّـــداني
إذ انت سبيل الرشد فـــي ذا الزمـان

★

سبحان من أرقاك لأعلى مقام وصال لا يوجد فيه سواك[1]

وبتوفيق من الله قضى سيدي الوالد رضي الله عنه ، مـــدة في عكا بذلك التوجيه الصوفي في جهاده الاكبر ، بتصفية النفوس وتزكيتها وصبغها بالصبغة الصوفية الاسلامية .

على ان انتقاله من المناطق الحارة الى رطوبة الهواء في – عكا – ، ترك بصحته أثراً . ثم اشتدت وطأة المرض عليه فالزمته الفراش مـــدة طويلة ، كان في خلالها موضع اهتمام مريديه ومحبيـــه . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إذا أحَبَّ اللهُ عَبْداً نادَى جِبْرِيلَ ، إنَّ اللهَ يُحِبُّ فُلاناً فَأحِبَّهُ ، فَيُحِبُّهُ جِبْرِيل . ثم يُنـــادي جِبْرِيلُ في السَّماواتِ ، إنَّ الله أحبَّ فُلاناً فَأحِبُّوهُ ، فَيُحِبُّهُ أهْلُ السَّماءِ ، ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ القَبُولُ في الارْضِ فَيُحِبُّهُ أهْـــلُ الارْضِ) وفي رواية (يُلْقَى لَهُ القَبُولُ في الماءِ فَيَشْرَبُهُ النَّاسُ فَيُحِبُّونَـــهُ جَمِيعاً) او كما قال عليه الصلاة والسلام [2] .

وسبب حب الله للعبد زهده في الدنيـــا ، ففي حديث الترمزي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال : (إزْهَدْ في الدُّنْيا يُحِبّكَ الله ، وأزْهَدْ بِما في أيْدِي النَّاسِ يُحِبُّكَ النَّاس) قـال الشيخ ابن عجيبة رضي الله عنه في الحكم : (إعلم ان هذا العز الذي يُعطيه الله لاوليائه لا يكون في بدايتهم ولا في اول امرهم لئـلا يفتنهم الخلق عن الحق ، بل من لطف الله بهم وغيرته عليهم ، ان ينفر بعض الخلق منهم او يسلطهم عليهم حتى يتخلصوا من رق الاشياء ، ويتحققـــوا بالوصول

(١) اي مقام الوراثة المحمدية في عصر سيدي الوالد رضي الله عنه، وهذا النشيد من نظم الشيخ عبده الحمصي الدمشقي .

(٢) ولهذا الحديث رواية ثانية (اذا احب الله عبداً قذف حبه في قلوب الملائكة ، واذا بغض الله عبداً قذف بغضه في قلوب الملائكة ، ثم يقذفه في قلوب الآدميين » لابي نعيم في (الحلية) .

والتمكين ، فحينئذ إن شاء اظهر عزهم لينفع بهم عباده ويهدي بهم من شاء من خلقه ، وإن شاء اخفاهم واستأثر بعزهم . وقد اظهر الله عز وجلّ سيدي الوالد رضي الله عنه بعزٍ لا يفنى ابداً ، ينسحب عليه وعلى اولاده . وبحمد الله ونعمه كنا وما زلنا نعيش بفضله ونعتز بعزه .

وقد تطوّع بعض وجهاء المدينة من مُريديه لخدمته بأنفسهم . وكان بعضهم يرسلون اليه اولادهم وبناتهم الصغيرات ليقمن على خدمته . ثم قرّر الاطباء ضرورة نقله إلى الجبال ، فإما ان يذهب الى مدينة – صَفَد – أو إلى قرية – ترشيحا – ، ولم تكن يومئذ الطرق مُعبّدة كما هي الآن ، فكان على المسافر إلى – صفد – ان يمتطي ظهر الدواب مسير يوم كامل حتى يصل اليها ، وكانت قرية – ترشيحا – هي الأقرب إلى – عكا – فاختار رضي الله عنه الذهاب اليها يرافقه صاحباه اللذان لم يفارقاه ابداً ، إلى ان وافاهما الأجل في هذه البلاد فدفن الأول في – ترشيحا – والآخر في مقبرة النبي صالح في – عكا – .

وبإرادة الله وحكمته ، دخل سيدي الوالد رضي الله عنه – ترشيحا – هذه القرية الجبلية ذات الهواء العليل والمناخ الصحي ، وأشجار الزيتون ، وكان يسكنها يومذاك بعض زعماء الجبل والعالِم الجليل الشيخ – محمد صالح – قاضي – ترشيحا – وقُرى الجبل عموماً ، والاسرة الشريفة الحسينية آل – شُريْح – . وقد ارسلت الحكومة ومفتي – عكا – رسائل توصية الى قاضي – ترشيحا – ليستقبل شيخنا الاستقبال اللائق به ، فكان ما اراده الله عزّ وجلّ ، فقد أختَصّ الله سبحانه تلك القرية بالأذكار والأنوار والأسرار ، والمشاهد الصوفية الرائعة ، ودقائق المعاني بإشراق أنوار الولاية الكبرى والصدّيقيَة العُظمى . وكان حكم التجلي الألهي بالاستقرار فيها ، فخضع لأمر الله تعالى . وبعد ان استردّ صحّته وقوّته ، بدأ بالدعوة بالارشاد إلى سبيل الله ، ونَشْر لواء الطريقة الشاذلية . فكان أول من سعِد بتلبية تلك الدعوة المباركة بالانتساب

اليه والأخذ عنه الشيخ – محمد صالح – قاضي – ترشيحا – والجبل وأسرته ، والسيد – يوسف شريح – الشريف الحسيني وأسرته ، وابن اخته السيد مصطفى تَوْسيز الذي كان ينزل ضيفاً على خاله يوسف شريح حيث كان موظفاً ، وسيدي الشيخ احمد عبد الرحمن ، الذي انعم الله عليه بالعلم اللدني وقد عين مقدماً ، وكان له شأن وأي شأن في خدمة الطريق ، وتربية المريدين ، والسيد احمد المعتصم وكان مقدماً ، وغيرهم كثيرون . ثم ازداد اقبال الخلق على التشرف بأخذ الطريق والعمل بمبادئها الصوفية بما يرضي الله ورسوله .

وبعد ان استقر به المقام في ترشيحا ، بأشهر معدودات ، اقترن بالسيدة الجليلة خديجة ، كريمة احمد بك توسيز ووالدها من الامراء المماليك في مصر والحكام فيها ، وزوجها السابق يعقوب بك المصري الثري الكبير ، الذي كان يقطن في ضواحي عكا ، ولم ينجب من السيدة المذكورة اولاداً وكانت قد جاءت بعد وفاة زوجها السابق لزيارة اهل والدتها في ترشيحا ، وكانت ورثت عنه ، اي عن زوجها ، مالاً وعقاراً وأراضي زراعية وأراضي مشجرة فيها الحدائق الغناء ، فكان لهذه السيدة العارفة بالله ورسوله اعظم الأثر في خدمة الطريق واهله ، وبذل المال في سبيل الله ، والسعي لانشاء الزوايا ، وقد انجبت لشيخنا رضي الله عنه ، ولده السيد محي الدين ، الذي توفي في حياة والديه ، وهو في ريعان الشباب ، وزهرة العمر ، وقد شهد له والده بالفقر والعرفان والتحقيق ، حيث قال : انه كان اهلاً للوراثة المحمدية ، وهو والد العارفة بالله ورسوله السيدة انيسة اليشرطية ، ويكنى سيدي الوالد بأبي محي الدين ، لأن اخي الكبير السيد ابراهيم كان في بلاد المغرب ، وقد عرف الناس والفقراء اخي السيد محي الدين ، قبل ان يعرفوا اخي السيد ابراهيم ، ومن هنا جاءت التسمية بأبي محي الدين لسيدي الوالد رضي الله عنه .

وبعد هذا الاستقرار الروحي والسكينة والطمأنينة بالله التي انعم الحق

بها على سيدي الوالد رضي الله عنه ، انتشرت الطريقة الشاذلية اليشرطية في – عكا – وصفد – والقدس – ودمشق – وضواحيها ، والبقاع – وحلب – وضواحيها ، ودير الزور – وطرابلس – وبيروت – وصيدا – وحيفا – ويافا ، وغيرها من البلاد . وسلك المريدون في مراتب الكمال اقتداء بشيخنا رضي الله عنه ، الذي حاز مراتب الكمال على التمام ، فما من مرتبة الا حاز اكملها واشرفها ، لقد اخذوا من مقام الاسلام كمال التقوى والاستقامة على التمام ، واخذوا من مقام الايمان الطمأنينة وكمال الايقان ، واخذوا من مقام الاحسان أعلى مراتب الشهود والعرفان .

وقد أرّخ العالم الكبير الشيخ سليم الخطيب البقاعي ، السنة المباركة التي تشذّل فيها هو واهل سورية والبقاع ، في بيت من قصيدة مطولة نظمها فقال :

أصرير اقلام المودة بيننا   قد ارّخت احكامنا الذاتية
(١٢٦٨) هجرية

* * *

وبذلك يقول الشيخ صالح سكيك في بعض اناشيده :

شيخنا عين عيون الامم   وعلى الله وردْ
جدّ في طاعة باري النسم   بكمال ورشد
فهو في القرب شريف القدم   وله الامر انعقد

اللازمة

يا امام الحِلّ ثم الحرم   مدد الله مددْ

★

خيرة الرحمن من بين الأنام   شيخنا الكاملْ علي
وعلى الافراد غوث وامام   وعلى الكل ولي
ليس في العرب ولا في العجم   مثله في الله جَد

★

يا امــــام الحـل ثم الحرم مدد الله مـــدد

★

نور دين الله غوث ووفـــا في طريق المدني
فغدا للنـــاس كهفاً وكفى بالشريف الحسني
نفـــذ الحكم بأمر الحكم وله الامر انعقد

★

يا امــــام الحـل ثم الحرم مدد الله مـــدد

★

نور مشكاة لارباب الشهـــودْ وامـام الحضرةِ
راحة الارواح بـل روح الوجود ليس تحت الخضرة
مثـــله ذو البندرَبٌّ العـــلم وله المختار جـد

★

يا امــــام الحـل ثم الحرم مدد الله مـــدد

★

مركز العـــالم عرش الاستوا والمبـــدار الدائر
وعلى الكل لدى الكل استوى بامتداد فـــاخر
بـــدر تِم في دياجي الظـــلم وبـه النور اتّقد

★

يا امــــام الحِلّ ثم الحرم مـــدد الله مدد

* * *

وكان لا بد من إنشاء الزوايا، لاقامة شعائر الدين الحنيف، والاجتماع على الله والعمل بحكم الآية الكريمة (في بُيوتٍ أذِنَ اللهُ أنْ تُرْفَعَ ويُذْكَرَ فيها اسْمُهُ، يُسَبِّحُ لَهُ فيها بالغُدُوِّ والآصالِ رِجالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجارَةٌ ولا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللهِ الخ [1]) فكان رضي الله عنه يخرج من ينتسب اليه من ظلمة الغفلة الى نور اليقظة ومن ظلمة الحس الى نور المعنى ومن ظلمة الكون الى نور المكوّن، بالطاعات والعبادات

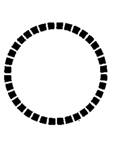
(١) سورة النور .

والذكر والفكر والشهود في بيوت الله عز وجل .

وقد أنشئت زاوية ترشيحا ، قبل غيرها من الزوايا التي أنشئت فيما بعد ، في عكا ، والقدس الشريف ، وحيفا ، ودمشق ، وبيروت ، وروودس ، والآستانة ، وغيرها من البلاد التي تشذّل بعض اهلها ، فكانت زاوية ترشيحا ، اول زاوية لنا في هذه البلاد [١] ، وكان سيدي الوالد رضي الله عنه يقطنها قبل رجوعه الى عكا وإقامته الدائمة فيها ، وقد تم بناؤها في سنة ١٢٧٩ هجرية ، ونظم تاريخها العالم الفاضل الشيخ ـ عبد الغني النحوي ـ احد علماء الشريعة في ـ صفد ـ واحد مريدي والدي المخلصين ، لقد نظمه في ثلاثة ابيات ، نقشت فوق بابها وهي :

يا طالباً نيل الوصال لربنا   بادر لزاوية لها نور جلي
واقصدرحاب الشرطي متذللا   تحظى بوصل ماجد ومكمل
يَمّم علاها وانظرن تاريخها   وهناك تلفي همّة الكامل علي

(١٢٧٩ هجرية)



(٢) في مدة اقامة سيدي الوالد في ترشيحا ، لم تكن الزاوية تسع الوفود الذين يؤمونها لزيارته رضي الله عنه ، ولهذا كانت تنصب الخيام وبيوت الشعر في البرية وفوق الهضبات ، وتحت اشجار الزيتون ، لكثرة ازدحام الخلائق من طوائف المريدين ، وكان بعض هؤلاء الزائرين يرتدون الثياب البيضاء ، ويضعون على رؤوسهم العمائم ، ويسيرون جماعات وهم يرددون : الله ، الله مولانا ، لا اله الا الله .

انوار

الطريقة الشاذلية اليشرطية

بمناسبة انتشار الطريقة في هذه البلاد، نظم الشيخ عبده الحمصي الدمشقي هذا النشيد :

لاحت بروق العين   في مشهد الارواح
من عهد ثاني أثنين   فجرُ التداني لاحْ
فاخرُج عن الكونين   واغنمْ صفاء الرّاح
تلْق بها الضدين   في مظهر الافلاح

★

نحن خيار الناس   صرنا بها دينا
مُذ لاح نور الكاس   من يدِ ساقينا
لا تختشِ من باس   يا مغرماً فينا
أجسامنا الأكياس   عادت لنا ارواح

★

قد أشرقتْ في الحال   شمسي وما غابتْ
والغير عنّي زال   مذ نظرَتي طابت
يا ذا العَلي المفضال   أجسامنا ذابت
خلّص من الأوحال   محسوبَك الملتاح

★

وقال في نشيد آخر :

انت وجدي وحياتي يا علي   انت سرّ الله ذو الفضل الجلي

★

اشرقت شمس الكمال في الوجودْ   حيّرت من نورها اهل الشهودْ
كلّ من قد ذاق معناها يعود   روح قدس بعد ذاك الهيكل

★

يا سحاب الجود يا بحر النّدى يا سمـاءً أطلعت شمس الهدى
سيدي من نورك الكون اهتدى نظرة منـك فؤادي ينجلي

★

نارتِ الاكوان طرًّا منكمُ وحديث الخير يُروى عنكمُ
سـادتي بالمصطفى أسألكم كشف ضرٍّ فيه جسمي قد بلي

جزيرة رودس

وعلى كثرة الوفود الزاحفة الى – ترشيحا – زعم المرجفون من اعداء الله تعالى، ان سيدي الوالد رضي الله عنه أنشأ في جبالها قلعة حصينة حشد فيها مائة الف مقاتل، يحملون السلاح الكامل قصد العصيان على الدولة العثمانية، فاهتمت الحكومة بما شاع وذاع أيّ اهتمام، واشتدّ بها القلق ولم يكن عصيان – عكا – وحصارها السابق بعيداً عن ذلك الزمن، لذلك قررت ابعاده رضي الله عنه الى جزيرة – رودس – ثم أرسلت باخرة من – الآستانة – فيها قائد كبير وضباط وجنود لنقل شيخنا إلى منفاه، ولتطويق الزاوية خشية قيام ثورة عند إبعاد الشيخ كما خيّل اليهم.

وقد رست السفينة في مياه – بيروت – لزيادة التكتم بالأمر، ونزل الجنود مع الضباط والقائد، ثم ساروا بطريق الجبل دون ان يشعر بهم احد من أهل بيروت او من اهل هذه البلاد.

وذات يوم إذا بالجند يطوّقون زاوية – ترشيحا – وحين لم يجد القائد شيئاً ممّا تقوّله المرجفون لا قلعة ولا جيشاً تولاّه الأسف، فقد وجد نفسه امام بيت متواضع للسكنى فيه مكان خُصّص لاقامة شعائر الدين ورأى مُعظم المُريدين من الشيوخ الذين، أنعم الله عليهم بالتقوى والصلاح، المتفانين في حب الله ورسوله «سِيماهُمْ في وُجوهِهِم مِن أثَرِ السُّجود»[1]، فجعل يمشي على استحياء إلى ان أقبل على والدي رضي

(١) سورة الفتح.

الله عنه يُقبِّل يديه ويعتذر اليه عمّا وقع من سوء فهمهم ، ويطلب رضاه ودعواته ويستغفر الله ثم يقول : أنا عبد مأمور ليس بيدي شيء ، فقابله سيدي الوالد بلطفه المعهود وتواضعه الجَمّ ودعا له بكل خير .

ولما ذهبوا به لم يخبروا احداً عن وجهتهم ، ولم يسألهم رضي الله عنه عن المكان الذي سيذهبون به اليه ، الأمر الذي اقلق اهله ومريديه . وسار الركب الى ان وصل الى مدينة – البصّة – هنالك امر القائد الجند بالنزول ، ثم تقدم وركع بين يدي سيدي الوالد رضي الله عنه يقبل يده ، ويطلب منه ان يأخذ عنه الطريقة الشاذلية ، وبعد ان تم له ما اراده وتشرف بالانتساب اليها ، اقتدى به معظم الضباط والجنود ، فكانوا فيما بعد من المحبين الصادقين . هذا وقد أُبعد مع سيدي الوالد رضي الله عنه اثنان من مريديه العلماء هما : الشيخ احمد عبد الرحمن مقدم – ترشيحا – والشيخ سعيد الخالدي الدمشقي .

وكان الأمر الذي يحمله القائد الكبير هو ان ينزل والدي رضي الله عنه معززاً مكرماً في منزل مفتي المدينة في عاصمة جزيرة – رودس – . ثم لحق به رضي الله عنه جماعة من مريديه وهم ليسوا بمبعدين ، لكنهم آثروا ان يكونوا بين يديه ، منهم من كان يذهب الى تلك الجزيرة ليزوره ويطمئن عليه ، ثم يعود الى بلاده ، ومنهم من بقي هناك الى حين عودته . وقد اصبحت – رودس – يومئذ من المراكز الهامة لأبناء طريقتنا الشريفة ، وكان من الذين رحلوا اليها من مريديه رضي الله عنه العلامة الكبير الشيخ حسين الحسني البغدادي مفتي – دير الزور – والسيد عثمان بليق من اهل مدينة – بيروت – وكان ذهابه الى تلك البلاد نعمة من النعم الالهية على اهلها ، فالاصفياء الاخيار الذين اغناهم الله بعطائه ، وجعلهم سبب الغنى لكثير من عباده ، فاذا ظهر واحد منهم في عصر او حل في مكان ، انتفع به اهل ذلك العصر عامة واهل ذلك المكان خاصة ، وافاض الله عليهم نعمه بسببه وهم لا يشعرون إلا من اختصه

الله وفتح بصيرته وقلبه ، فعرف صاحب الفضل وانتسب اليه .

وقد فتح الله على كثير من اهل تلك البلاد ، بعد ان اخذوا عنه وانتسبوا اليه ، وهكذا قضى واحداً وعشرين شهراً في تلك الجزيرة داعياً الى الله ، دالاً عليه مطاعاً ثمّ اميناً ، فكان موضع الاجلال والاحترام من الجميع ؛ فانتشرت بذلك الطريقة الشاذلية اليشرطية هناك ، وانشئت لهم زاوية وعمّ الفضل وكثر المريدون والمنتسبون الى الله . ويأبى الله إلا ان يتم نوره ولو كره الكافرون . وعيّن رضي الله عنه احد الشيوخ المريدين من اهلها مقدماً على الفقراء ليكون نائباً عنه يعطي الطريقة الشاذلية ، ويكون المتولي على الزاوية يربي المريدين ، ويقوم بشعائر الدين الحنيف ويقيم الاذكار ، حسبما تقتضيه اوامر الطريق ضمن حدود آداب الشريعة الغراء .

وعرفت الحكومة خطأها فاعتذرت اليه ، وعيّنت لزاوية ـ رودس ـ مرتباً شهرياً : عشرة دنانير ذهبية ، تُنفق عليها ، ثم عرضَت عليه ان يكون شيخ السلطان في القسطنطينية ، فأبى رضي الله عنه ، واختار العودة الى حيث كان في ـ ترشيحا ـ .

هنالك اشترطت عليه الحكومة ألاّ يجعل إقامته الدائمة في جبال ترشيحا ، وما عدا ذلك فله الخيار وهو مطلق الحرية في ان يعيش في أي مكان يريده ، وان يسافر حرّاً ، ولا مانع من ان يقضي اشهر الصيف ، في ترشيحا ، ما دام الهواء والمناخ يُفيدان صحته . وعندما اعتزم العودة اليها اجتمع المريدون من اهل تلك الجزيرة وقرروا ان يصحبه جماعة منهم ، وأن يقضوا اياماً في رحابه الشريف ، ثم يؤبون الى بلادهم ، فرحلوا تحت رعايته . ويوم ان رجعوا الى رودس بقي منهم العالم الفاضل الشيخ محمد الرّودسلي ، متجرّداً في زاويتنا الى ان توفّاه الله ، وكان رجوعُ سيّدي الوالد من منفاه في عام ١٢٨٥ هجرية .

وبعد عودته الى ترشيحا ، واستقبال المهنّئين له ، من الاخوان والاحباب والاصحاب ، قرّر ان تكون إقامته الدائمة في عكا ، فرحّب به مريدوه من اهل تلك المدينة ، وكانت عودته اليها عيداً سعيداً لأولئك الأبناء البررة المخلصين ، وبركة عامة ، ونعمة شاملة لأهلها ، وقد ذكرها الكثيرون من إخواننا في اناشيدهم وأشعارهم ، وكان يحج اليها المريدون من سائر الأقطار الاسلامية .

هل فاقد الشّمّ يدري نشر ريحاني ... أم الأصَمُّ غدا يشدو بألحاني (١)
يا حاديَ الركبِ إن جئت الحمى سَحَراً ... حيّ الحمى إنني في حبهم فاني
واستفتح القول في ذكري لهم كَرَماً ... لعلّ ان يرحموا نوحي وأحزاني
هنـاك تلقى نجوم الدين واردةً ... هلالهم ما له في عصرنا ثاني
عَليٌّ قدرٍ له في عصرنا مددٌ ... بادر إليه تراه للعلى داني
فاْخلع به كل ما اوليت من نعمٍ ... تلقى نعيماً حُلاهُ سرمداً داني
يا طائر البان هل لي منك لي خبرٌ ... عن آل ذاك الحمى يا طائر البان
كانت منازلهم للسجن محدثةً (٢) ... فأحدثوها فصارت دار رضوان
بمَشهد الحب بالساقي لنا قَسَماً ... يا آل ذاك الحمى رفقاً بولهان
يا عاذلي بالذي أهواه دع عَذَلي ... أوّاه يا عاذلي لو ذقت أشجاني
لكنت في صحبتي لمّا صَبَوت لدى ... دار العلى ومُنادي القُرب ناداني
من عهدِ قالوا بلى قد كنت اعرفهم ... ونَشأتي فيهم من قبل عرفاني
يراهمُ ناظري في كل لائحةٍ ... وإن سألت فؤادي قال سُكّاني

وبعد عودته الى هذه البلاد رضي الله عنه ، ذهب الى دمشق بدعوة من الامير عبد القادر الحسني الجزائري المغربي ، ونزل ضيفاً على ذلك الامير الكريم ، وفي دمشق اجتمع بالكثير من علمائها واهلها ، وكانت

(١) نظم احد مريدي سيدي الوالد ، بعد عودته الى (عكا) .
(٢) يعني مدينة (عكا) حيث كان يرسل اليها المبعدون السياسيون ، وكيف اصبحت جنة بعد وجود والدي فيها .

اختي السيدة عائشة زوجة للأمير مصطفى الحسني شقيق الامير عبد القادر المار الذكر .

والامير عبد القادر ، معروف مشهور لا يحتـاج الى تعريف ، فهو مجاهد كبير ومن اكابر علماء الشرع الشريف ، والتصوف ، وله كتاب نفيس بعلم التصوف سمّاه - المواقف - ، تحدث فيه عن سلوكه في مقام التحقيق والمشاهدة ، ويعود له الفضل بتصحيح كتاب - الفتوحات المكّية - تأليف الشيخ الأكبر سيدي محيي الدين بن عربي قدّس الله سره ، فقد ارسل الامير عبد القادر جماعة من دمشق الى مدينة (قونية) [1] ، لتصحيح الكتاب عن نسخة موجودة فيها ، ثم طبعه على نفقته الخاصة بعد تنقيته من الكلام المدسوس على المؤلف ، وكان الامير عبد القادر محبًّا لسيدي محيي الدين بن عربي ، يحترمه ويعتقده ، وتُقرأ في بيته مصنفاته ، وقد أوصى ان يدفن بعد وفاته في مقام الشيخ الأكبر ، فكان ذلك .

لطيفة

كان السيد مصطفى السباعي رحمه الله من وجهاء - دمشق - وكان خطاطاً شهيراً (هاوياً) ومفكراً شغوفاً بالبحث عن الحقيقة حتى انه اعتنق المذهب الشيعي مدة لزيادة الاطلاع ، ثم رجع الى مذهب اهل السنّة ، كما انه دخل في معظم الجمعيات ، منها الجمعية الماسونية التي تدرّج في مناصبها حتى نال أعلى الدرجات فيها . لكنه ظل يبحث عن الحقيقة الى ان تشذّل وانتسب الى سيدي الوالد ، وثبت على العهد ، وكان من اكابر إخواننا العارفين بالله ورسوله .

وقد تحدّث رحمه الله عن كيفية أخذه الطريق ، فقال : سمعت ان شيخاً يدعى الشيخ - محي الدين الاسكندراني - يجلس كل يوم في الجامع الأموي يتكلم في علم التصوف ، فأحسست ان بي نزوعاً شديداً

(١) مدينة في بلاد الاتراك .

لرؤياه ، فقصدته وسمعت حديثه وأعجبت به ، ثم دعوته الى بيتي . وبعد يومين طلبت منه ان آخذ الطريقة الشاذلية عنه ، وإذ به يغمض عينيه ، ويُصاب بشبه غيبوبة حتى خشيت ان يكون قضى نحبه ، ثم إذا به يفتح عينيه ويقول : لقد استخرت الله عز وجل في طلبك اخذ الطريق ، واستأذنت شيخي ، فعلمت انك ستأخذها منه مباشرة ، عندما يأتي الى — دمشق — ، وستلقاه في منزل احد الكبراء في قاعة كبيرة لها ثلاث — عتبات — ، ويرحّب بك باسمك قبل أن تقدّم نفسك اليه ، ثم يقول لأحد اتباعه ، قدّم الى السيد — مصطفى السباعي — (فنجاناً) من القهوة . وبعد اعوام قابلت شيخنا رضي الله عنه صدفة في منزل الأمير عبد القادر الحسني الجزائري ، في القاعة الكبيرة ذات الثلاث — عتبات — وكان ما قاله لي الشيخ محي الدين الاسكندراني . وكان يومئذ اخونا الشيخ مصطفى ابو ريشة يستقبل الزائرين ويقدم لهم القهوة ، وعندها تقدمت الى حضرة شيخنا رضي الله عنه وجلست بين يديه ، وأخذت عنه ، وسلكتُ في طريقه ، وكنت وما ازال من ابنائه وأتباعه البررة المخلصين .

وكما زار رضي الله عنه — دمشق — زار — بيت المقدس — مرات عديدة ، وفيها كان يحلّ ضيفاً على الشيخ — محمد علي النقيب — الحسيني نقيب الأشراف ، او ينزل في دار الشيخ — حامد البديري — وكلاهما من مريديه المخلصين ، ثم يرجع الى عكا . وفي القدس الشريف اجتمع بكثير من العلماء والوجهاء ، وقد اخذ عنه بعضهم وكانت زيارته الأولى لمدينة القدس ، في سنة ١٢٦٦ على اثر وصوله الى عكا ، وقبل صعوده الى ترشيحا .

★

يا نورَ فجر الارشادِ   يا رحمةً للعبـاد (١)

---

(١) لحسن الحكيم الحلبي .

ما ثمّ إلاّك هادي بالقـول والافعـالْ

لازمـة

شرّفت كل البلادِ يا معدن الكمالْ

✲

يا حَسني يا حُسيني يا روحي وضيا عيني
انت الامين بلا ميْن وسيّـد الرجـال

✲

قدرك عظيم لا يُدرك والجزء لكن لا يُترك
وفي هواك ما أشرك قلبي ولست بسالْ

✲

الكُل قالوا مرحبا والكون صاح طربا
والوهم ولّى هربا وكل كربٍ زال

✲

في البدء ثمّ المنتهى صَلُّوا على سِرّ النهى
القـائل أنا لهـا في سائر الاهـوالْ

✲ ✲ ✲

وكذلك زار رضي الله عنه – صفد – اكثر من مرة لقربهـا من – ترشيحا – وعكا – زارها ملبياًدعوة اخواننا من اهلها ، ذلك لأن معظم اهل تلك المدينة كانوا من السابقين الاولين ، حين تشرفوا بأخذ طريقتنا ، وكانوا يقدسون الولاية في ذات شيخنا الكريمة . فنزل في اول زيارة لها في منزل مريده العالم الفاضل الشريف الحسني ، الحاج احمد الحاج عيسى – الذي كان مقدماً على الفقراء في – صفد – . واما في زيارته الاخيرة فقد نزل في بيت الوجيه الكبير السيد – عبد الله الخضرا – وقد تجلى

مبلغ اخلاص الصفديين لأهل الله في تلك الاحتفالات العظيمــــة الرائعة المنقطعة النظير التي كانوا يقيمونها ، ولم تشهد البلاد لهـا مثيلاً في سائر الاقطار العربيـــة ، في ذلك العصر ، إذ لم تقتصر تلك الاحتفالات على اهل – صفد – والجبل والساحل ، بل كان يزحف اليها الشاذليون وانصارهم من سورية الشمالية والجنوبية وغيرهـا من الاقطار التي تشدّل بعض اهلها ، حتى غـدت تلك الاحتفالات مضرب الامثال ، وما زال يتحدث عنها الناس الى يومنا هذا .

وقد زار رضي الله عنه بيروت ، وصيدا ، وغيرها من المـــدن . وكان يعود الى عكا ، بعد كل زيارة من تلك الزيارات .

★

عكّا المني ، عكّا المنى كل الهنا فيها ... تشرّفت بعـــلي الله يهنيهــــا [١]

يا كعبةً كلٌّ من قد حجَّها أو زار ... لم يبق ذنب عليه لا ولا اوزارْ

والقصد ان يشهد الأسرار والانوار ... مستغرقاً دائمـاً بل هائمـاً فيهـا

كلٌّ يقول أنا أبن المرشد الكامل ... أنا الفقير الحقـير المنتهي الواصلْ

هذا ادعـــاء فأين الشاهد العادل ... ما كل من يدّعي دعوى يوفيهـا

نحن اجتمعنا على أمرٍ عظيم الشان ... يدعو الى وحدة الانسان في الاكوان

مَن صحّ توحيده في هذه الاعيانْ ... لم يخف شيء عليه من معانيهـــا

أعضد أخاك وإياك الجفـــا عنه ... وألزمه ظلاًّ له واحفظه بل كُنهُ

هناك إن صح هذا منك أو منـــه ... حققتها نسبة سبحان مبديهـــا

نحن بنو اليشرطي أرواحنا بعنـا ... بحبه وأسترحنـا بعد ما متنـــا

نِعم الوفاة التي من بعدها عشنـا ... ما ذاقها قطّ من لم يعتنِ فيهـا

★

(١) لتوفيق عزيز من صفد .

الحمى الشاذلي

رجوع سيدي الوالد الى عكا

اعود الى سياق الحديث فأقول : نزل شيخنا رضي الله عنه – عكا – بعد رجوعه من جزيرة – رودس – وجعل اقامته الدائمة فيها فكانت الحياة الروحية الصوفية فيها اتمّ واعم ، بعد ان تشذّل خلق كثير من العرب والاتراك ، وبعد ان تشذّل السلطان عبد الحميد الخليفة العثماني ، على يد سيدي الشيخ ظـافر نجل شيخ والدي رضي عنه ، الذي كان مقيماً في – القسطنطينية – ثم تعرف السلطان عبد الحميـد الى والدي رضي الله عنه بواسطـة مريده – باشكاتب المابين الهمايوني – علي رضا باشا ممتاز .

كان السلطان عبد الحميد العثماني ، خليفة المسلمين بعد خلع سلفه وتولّيه الملك ، يخشى كبار الموظفين ، فعمل على استبدالهم بغيرهم وعين – علي رضا باشـا ممتاز – (باشكاتب المابين الهمايوني) وانعم عليه برتبة – الباشوية – ، وبعد ايام ، ولأول مرة القى عليه حديثاً شفويـاً ، وامره بكتابته ، ولهيبة الملك كان – علي رضا باشا – في حالة اندهاش انسته بعض نقاط الحديث ، فقضى تلك الليلة قلقاً ، وجعل يبتهل الى الله تعالى ويستنجد ويستجير بصاحب الوقت ان ينجده مما هو فيه ، وعندها سمع صوتاً يأمره بكتابة ما قاله السلطان ، ثم املى عليه الحـديث فكتبه – علي رضا باشا – ووجد فيه جملة زائدة لم يقلهـا السلطان املاها عليه الهاتف ، فكتبها ايضاً ووجد نفسه يسأل الهاتف الذي املى عليه قائلاً : من انت يا سيدي ؟ قال : انا صاحب الوقت الذي استجرت به . قال ما اسمك ؟ قال : الشيخ علي نور الدين اليشرطي الحسني الشاذلي الموجود

في عكا . قال علي رضا باشا : اجزني يا سيدي بتلاوة أوراد الطريقة الشاذلية ، فأجازه الهاتف بها ودلّه عليها ، وفي الصباح حمل – علي رضا باشا – الاوراق الى القصر – وقدمها الى السلطان ، فأعجب بها الملك ايما اعجاب ، وخاصة بالجملة التي لم يقلها ، وسأله كيف تسنى له ان يكتبهـــا ! فقص عليه ما سمعه في الليل . فدهش الملك وقال له : اجزني بما اجـــازك به الشيخ [1] .

وفي ذلك الوقت كان شيخنا رضي الله عنه في – عكا – يأمر مريده الشيخ محمود (ابو الشامات الدمشقي) بالسفر الى الآستانة ، لعملٍ يختص بالزاوية ، وفي الليـــلة التي سبقت يوم وصوله رأى – علي رضا باشا – شيخَنا في منامه يقول له : لقد ارسلنا اليك ولدنا الشيخ – محمـــود – وهو مسافر في الباخرة الفلانية ، وسيصل غداً ، فيجب عليك ان تخفّ لاستقباله وتنزله في بيتك ، وهكذا كان . وبوجود الشيخ – محمود ابي الشامات – في منزل – علي رضا باشا – دخـل في الطريق جماعات من الوزراء والأعيان والولاة والحكام ، وغـيرهم من إخواننا الأتراك الذين تشذّلوا وانتسبوا الى سيدي الوالد رضي الله عنه . وقـــد كان الشيخ – محمود – من المحسوبين على شيخنا رضي الله عنه منـذ ان كان طفلاً صغيراً . وبعد ان سلك في الطريق ، وفتح الله عليه أجازه سيدي الوالد بإعطاء الطريقة وتربية المريدين . وبعد هذه الزيارة الى الآستانة ، تعرّف الى السلطان – عبد الحميـــد – بواسطة – علي رضا باشا – ، وكان يذهب الى زيارة إخواننا هناك ، فيُقـيم عندهم أياماً ، ثم يعـــود الى بـــلاده .

(١) ليس هذا بمستبعد عن اهل الله تعالى ، فقد وقع مثله لسارية عندما ناداه امير المؤمنين عمر ابن الخطاب عن مسيرة ثمانية ايام بلياليها ، وذلك وقت الظهيرة وقد سمع سارية النداء وعمل بـــه . وهذا من فيض فضل ذلك الارث الروحي ، الموروث عن نبينا محمد صلى الله عليه وسلم . اخرج هذا ابن الاعرابي في كرامات الاولياء ، والبيهقي في الدلائل ، واللالكائي في شرح السنة ، والديرعاقولي في فوائده ، باسناد حسن عن ابن عمر ، وصححه ابن تيمية وذكره السيوطي .

وكان – علي رضا باشا – من اكابر إخواننا العارفين المحققين الواصلين الذين ساروا في طريق الله ، وهو الذي اهدى الى إخواننا زاوية – البلطجيّة – في – دمشق – لاقامة شعائر الدين الحنيف ، وإقامة الأذكار وتلاوة الأوراد والاجتماع على الله .

ومن أظرف ما يُروى ، ان إحدى بناته اعتراها مرض شديد فأخطر والدها الأطباء ، انها مصابة بمرض (السل) ، فكتب الى شيخنا رضي الله عنه يطلب منه الدعاء لها بالشفاء ، فوصف لها والدي رضي الله عنه ان تأكل الزّبدة ، فأكلتها ونالت الشفاء . فنظم – علي رضا باشا – هذه الأبيات ، رغم انه تركي لا يعرف إلاّ القليل من اللغة العربية . قال :

بزُبدة نور الدين طابت صدورُنا ... فطِبنا وغِبنا وأُنتفت ظُلمة الشكّ
ودرْنا على اعتابه دورة الصّفا ... فطِرنا بذاك الجنح في عالم المُلك
وسِرنا ببحر الذات سيرة واصلٍ ... إلى الحضرة الزّلفى بأعلى من الفلك
فأنعم بذاك الشرطيّ الذي علا ... مقاماً سما عن فهم مثلي وعن دَرْك
لقد كنت تركيّاً فلما عرفته ... تعرّبتِ الألفاظ لي وأنا تركي

مثال

من رسائل علي رضا باشا

الى شيخه سيدي الوالد رضي الله عنه

●

سيّدي ومولاي

من أخس العبيد ، المعترف بالتقصير في أداء محامد إلطافه تعـالى ، وشكر الآئه ، إلى أعتاب أخصّ أوليائه ، ذُكاء مشارق أنوار الهُدى وكنز النّدى ، مَظهَر أتمّ الاسرار النبوية ، ومفتـاح باب مدينة العلوم المرتضوية ، النـائب المحمدي ، والوارث الحقيقي الاحمدي ، منبع أنهرِ العوارف ، ومعدن أفاخر المعارف ، النور الساطع من النيّرين ، أعني صنو سيدنا الحسن والحسين ، سيّدي ومولاي علي نور الدين نَفَعنـا الله به آمين .

قد تشرفت بكتابكم الكريم ، الحاوي أنواع المكارم والتعطـُّفات التي لسان البيان عن إيفـاء تشكراتها قاصر جداً ، ولا سيما البشارة والاشارة الصادرة من حضرتكم ، أغرَقَتني في لجج المباهج التي لا يمكن حق أدائها ابداً ، فانتظرُ الموعود متوكلًا على الله الكريم الودود ، وإن كنتُ غير مستحق بهذا اللطف والكرم ، فلا أنقطع املي ابداً من اهتمامكم الأعمّ ، وتوجهاتكم الجليلة التي ترفعني من خصائص الزلات والمذلات ،

إلى الدرجات العاليات ، وعواطفكم تحفظني من كل المكاره والمنكرات ، فبتقابل عناياتكم تضمحل المساوىء ، وبإحاسن انظاركم تتبدل السيئآت بالحسنات . وإن حضرتكم تعاملون على الدوام عبدكم بما يليق بكرمكم ولم تعاملوني ابداً بما استحقه ، لأن الصادر مني الأخطاء ، ومنكم العطاء ، ومني المظالم ، ومنكم المكارم ، ومني الردى ، ومنكم الهدى والندى ، ومني زيْغ الأبصار ، ومنكم غض الأنظار ، ومني خلع العِذار ، ومنكم إرجاعي إلى مرضاة العزيز الغفار ؛ ومني الاشتغال بما لا يعني ، ومنكم السحب بسلاسل التصريف إلى حضرة الغني ، ومني ما يوجب الملامة ، ومنكم اللطف والكرامة ، وبضاعتي شدة الافتقار ، ومن خزائن جودكم واحسانكم الايثار ، ومني الداء ، ومنكم الدواء ، ومني العري ، ومنكم الاكساء ، ومني الاستغاثة والاستمداد ، ومنكم الامداد والرشاد ، ومني الانجهاد ، ومنكم الايقاد ، ومني التكشُّف ، ومنكم التلطُّف ؛ ولعمرك لا يقدر احد إيذائي ، ما دمت في حماك ، ولا احرم من رجائي ابداً بشمول انظارك ، ونيل رضاك .

ويا سيدي وسندي وملاذي ، ها انا عبدك لا التجيء إلا الى بابك ، فمن يلوذ به لا يخيب ، وانت لمن يقصدك قريب ، ولمن يناديك مجيب . وانا السائل وانت الكريم ، ولن تطرد السائل فتغنيه من برّك العميم . انا احوج الى عطفك من سائر الاخوان وعليك الاعتماد والاتكال . والأمر لولي الاحسان » .

حرر في ٧ صفر الخير عام ١٣٠٢ — للهجرة العبد المتخصص

علي رضا ممتاز

ومن رسالة له ايضاً

اما بعد ، فالحمد لمن لا يستحق الحمد إلا هو ، والشكر لمن هدانا الى سبيل الرشاد ، ولا هادي إلا هو ، واكمل التحيات واتم التسليمات ،

على من انكشفت الحقائق من حقيقته الذاتية ، وظهرت التعينات بأسرها من جواهر صفاته الاصليــة ، ورضوان الله وسلامه على من خصهم الله بمحبته ، ولاحظهم بعنايته ، خصوصاً عن سمي باب مدينـة العلم وصنوه وسره ، ونور الدين والدنيا ، والوارث الحقيقي الذي اغنى من التجأ الى لطفه وبره ، فجمع المحاسن الباطنة والظاهرة ، وثمرة الشجرة الطاهرة ، من تفكّـه منها لا يجوع ولا يظمأ ، ومن تصفّى بزلال افضاله لا يحمأ . من ذاق من سره لا تسره السرّاء ولا تضره الضرّاء ، ولا يميـل كل الميل الى آلاء الدنيـا والعقبى ، وان النعم والنّقم عنده سواء ، وإنمـا مقصوده الرضا .

فيا سيّدي ومولاي ، كما لا يخفى عليكم أنني عـلى سُرر السرور متكئٌ ، ومتصدّرٌ ، ومن إرادته ومشيئته تعالى فيَّ مُبتهج ومتفاخرٍ ، إذ فعلُ الجميل جميلٌ ، ولسان الحال والقال ، عن اداء الشكر كليـل . ونعتقد بالجزم الواثق ان حضرتـكم على بُسط البَسط والسكينة والراحة ، من هذا التنقّل والارتحال ، من حالٍ الى حال ، فنتيجتـه أخـيَر وأولى وأجمل وأحلى ، فكيف نعدُّ نعمة الله ونحصيها ، ثم نعرض لمعالي اعتابكم انه قد أخذنا كتاباً من اخينا الشريف سيدي محمود ابي الشامات ، وفيه عبارات واشارات ، تُنبيء كلهـا عن تُحف توجّهاتـكم ونفائس عناياتـكم وإشاراتـكم ، ولا نُفصِّلها لاحاطة علمكم الشامـل ، على كل الأحـوال والمسائل . ونعرض ان المتعلقات كلها بخيرٍ وعافية ، يقبّلون اقدامـكم ، ويرجون خـير الدعوات من حضرتـكم ، في كل الأحيان والأوقات ، فمطلوب رضاكم ، رضاكم ، ولا له حمىً إلا حماكم .

حرر في ١٩ محرم الحرام عام ١٣٠٣ للهجرة

محسوب بابكم
علي رضا ممتاز

ومن كتاب له

الى اخينا الشيخ محمود ابي الشامات

اما بعد ، فقد صار حضرة سعادتلو الحاج عزة افندي متصرف مركز الشام ، ولقنّاه طريقتنا نيابةً عن سيدنا الهمام ، ووصّيناه بان يوفق حركاته وسكناته برضائه الشريف ، ولا ينحرف عن طريقه المنيف ، ويجتهد غاية الجهد بتعيين محل مناسب في الشام ، لذكر الله الملك العلاّم ، ويسعى على حماية الفقراء ويغتنم منهم الدعاء ، ويُجري الأمور المفوّضة على ما تقتضي المصلحة والحكمة ، ويلزم الاستقامة ، وإن أراد الخير فله الخير ، وإلا فعليه الضير ، كما قال تعالى : (إنْ احسنتمْ احسنتمْ لأنفسِكم) — الآية — ويستميل من كان أشدّ ، ويستجلب المحبة ممن علينا ألدّ ، فالاشارة كافيةٌ والعبارة وافية . اقبّل اقدام سيدنا نفعنا الله به وأرضاه ، ويوفقنا برضاه ، ويجعلنا دائماً تحت انظاره متمتعين من اثمار اسراره [1] . ونستدعي من همتكم تبليغ سلامنا الى الاخوان المستظلّين تحت ظلال العطف والاحسان .

جمادى الآخرة عام ١٣٠٠ للهجرة — الفقير

علي رضا ممتاز

✶

وقد تشذّل — نسيم باشا — مدير الخاصة الملكية — وتوفيق بك — سر خزنة السلطان ، وغيرهم كثيرون من الوزراء والولاة ، منهم — رشيد باشا — ، زيور باشا — ، عثمان باشا — ، صبحي باشا — والي ازمير شفيق — علي رضا باشا — ، — حاجي افندي باشا — وكان مقدماً على الفقراء هناك ، والشيخ — امين — والشيخ — حافظ عثمان الموصلي — المقرىء الشهير المعروف — والحاج عزت الشابجي — .

(١) حضرة سيدي الوالد رضي الله عنه .

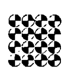
وفي كل عـــام كان يأتي الى – عكا – لزيارة شيخنا جماعات من اولئك الكبراء والعظماء ، فيمكثون اياماً يتبركون بها بحضرته رضي الله عنه ، ثم يعودون الى بلادهم . وبعد نزول سيدي الوالد الى – عكا – وإقامته الدائمـــة فيها ، انشئت الزاوية القديمة التي كان يسكنها ، وهي عبارة عن بيت كبير خصص منه قسم لاقامـة الصلوات الخمس ، وإقامة الاذكار . ثم انشئت زاويتنا المعروفة الآن التي تقع في حارة (المجادلة) وفيها التكية . وكانت قبلًا – سرايا لعبد الله باشا – اي من ممتلكات الدولة ، ثم باعتهـــا الحكومة الى سيدي الوالد رضي الله عنه ، فلما تم بناؤها انتقل والدي اليها ، وعاش فيها بقية ايام حياته ، ثم دفن فيها . وضريحه الشريف يزار هناك . وبعد بناء هذه الزاوية كان بنـــاء زاوية – دمشق – وزاوية – بيروت – وغيرها من الزوايا ، التي أنشئت في هذه البلاد على حياة سيدي الوالد رضي الله عنه . ونظراً لتقدم شيخنا في السن بعد رجوعـــه من – رودس – وزيارته – دمشق – ، لم يكن ليذهب الى ابعد من – حيفا – او ترشيحا – او صفـــد – او قرية الكابري ، وهي قريبة جداً . وقد أنشئت في – حيفا – زاوية كبيرة تسع الكثير من الوفود .

وكان من عادتنا ان نصعد إلى – ترشيحا – لتمضية فصل الصيف ، فتجتمع الجماهير من قرى الجبل لاستقبالنـــا ، ويحتشد النـاس من القرى في الطرق التي كنـــا نمر عليها لتحيتنا . وكان شيخنا رضي الله عنه يحاول عبثاً اقناع اولئك النـــاس بالعدول عن ذلك ضنّاً براحتهم وزهداً منه بتلك المظاهر .

وإني لأذكر وأنا طفلة ، اننا صعدنا في مطلع الصيف إلى – ترشيحا – لتمضية اشهرٍ فيها حسب عادتنا ، ورغم ان سيدي الوالد رضي الله عنه لم يخبر احداً عن موعد انتقالنا زهداً بتلك الاحتفالات ، فمـــا كدنا نبلغ اول الطريق ونحن نجدُّ السير على ظهور الجياد ، حتى بلغ اهل الجبل خبر

قدومنا ، فخرجوا لملاقاتنـا رجالاً ونساءً ، شيوخاً وأطفـالاً ، بالتهليل والتكبير ، والأناشيد والزغاريد . وقبل وصولهم الينا علم رضي الله عنه بالأمر ، فأوقف الركب واختار العودة ، حيث كان لترشيحا طريق ضيّق بين جبلين كثير المنحدرات صعب المسالك يسمى طريق الزقاق ، اختار المسير فيه رضي الله عنه رغم شيخوخته وتقدمه في السن ، وهكذا وصلنا – ترشيحا – ونزلنا في بيتنـــا ، دون ان نصادف احداً من اولئك المُهيّئين للاحتفال بقدومنـــا ، إذ كان رضي الله عنه أبعد الخلق عن المظاهر الخارجية .

على ان اولئك المحتفلين وردوا جميعاً على زاوية – ترشيحـا – لتأدية التحية والسلام .



الثقافة الروحية

في الحمى الشاذلي في ـ عكا ـ

الا يا مُظهِرَ الاسرارْ ومَجْلى الذات والانوارْ
تعطف يا عليّ الشانْ وخلّصنا من الأغيــارْ[1]
فقلــبي نـــارْ ودمعـــي جـــار
وفكري حـــار بنورٍ يُدهش الأبصـــار

★

شهِدنا الذات في مرآك وإن جلّت عن الادراك
ولم تنظر بهـا إذ ذاك سوى باهي سنـا مَعنـاك
ففـــي الافـــلاك والأمـــلاك
لبـــاهي عـــلاك عيونٌ بالشهـــود تراك

★

شربنـا من يديك الراحْ فأفنينا بهـا الاشبـــاحْ
ومذ قامت بنا الأفراح تَمَحّضْنا لهـــا أرواح
فقُـــم يـــا صـــاحْ إلى الأقـــداح
فمنهـــا فـــاح شذىً فيـه النهى ترتـــاح

★

شذىً منه بدا العرفانْ لاهل الذِكر والتبيان
ولمّا أشرق البُرهـانْ رأوا مـا لا يرى إنسانْ
ففـــي الاذهـــان مـــدى الازمـــان
مـــن الاشجـــان غرامٌ لم يصفـــه لسانْ

★

(١) نظم العلامة الشيخ احمد عباس الازهري البيروتي

بجب اليشرطي الأوابْ حديثُ قديمنا قد طابْ
وعنّا كل شيءٍ غابْ سِوى ما كان في الاكوابْ
ففـــي الاعتـــابْ تـرى الاحبـــابْ
أولي الالبـــاب وكلٌ قلبُـــه قـــد ذاب

★

صلاةٌ منك يا غفّـارْ على مَجْلاك ذي الانوار
مُفيض الجود والاسرار كذاك صحبه الاخيـار
هُـــمُ الابـــرارْ والاطهـــارْ
والانصـــار لديـــنِ السيّـد المختـــار

* * *

الثقافة الروحية

الزاوية ؛ ... هي مكانٌ لاقامة شعائر الدين الحنيف بالصلاة والصوم والتهجّد ، والتأمّـــل ، والذكر ، والفكر ، والاستغراق ، وتلاوة الأوراد ، وإقامة حلَق الذكر ، والانقطاع الى الله سبحانه عما سواه ، وطلب المعرفة والتحقيق ، والشهود والوصول الى الله عز وجل ، والفناء في حب الله ورسوله .

وتسمّى رُبَطاً ، وخانقاه ، وتكيّة ، وغير ذلك من الاسماء المعروفة ثم هي تنقسم الى اقسام :

(١) التكية ، وهي الحرَم الكبير ، الذي تُشاد فوقه قبة عالية ، وتقام فيه الصلوات الخمس والأذكار ، ويُعيَّن له المؤذنون ، والقـــراء ، والمدرِّسون ، والمقدَّمون والمنشدون .

(٢) وفي الزاوية محلات كثيرة لاقامة الزائرين ، اثنـــاء زياراتهم ، وغيرها ولاقامة الفقراء المتجردين ، وبيوتٌ صغـــيرة ، تسكنها عائلاتُ

المتجردين ، وفيها قسمٌ خاص للعجزة والمرضى ، والشيوخ من هـؤلاء المتجردين ، ومن المساكين من اتباع الطريق ، ويخصص قسمٌ منه للنساء .

(٣) وفيها البيت الذي يسكنه الشيخ ، واهل بيته واولاده .

وتكون عظمة الزاوية ليست بفخامة بنائها ومظهرها ، وإنما على قدر رفعة شيخها ، ومقامه في المراتب الالهية ؛ وحسبما افاض عليه الله عز وجل من الأسرار والأنوار ، والعلوم والفهوم ، والتربية الصحيحة ، والأدب المحمدي الكامل ، فكمال الكاملين ، مرآة الكمال المحمدي ، والكمال المحمدي مرآة الكمال الالهي . فإن نالت تلك الزاوية شرف الانتساب ، الى صاحب الوقت الذي هو واحدٌ في كل زمان ، والذي هو موضع نظر الحق من الخلق [1] فهي إذاً مسجد لاقامة شعائر الدين الحنيف وإحياء سنة رسول الله ﷺ ، ومعهد لطلب العلم في الشريعة والحقيقة ، ورباطٌ للتهجد والتأمل والاستغراق ، بشهود عظمة الله تعالى ، وزاوية لسلوك المريدين .

هكذا كانت زاويتنا على عهد سيدي الوالد رضي الله عنه ، فقد كان جو الحياة الثقافية الروحية فيها معطراً بالعبادة والاذكار والاسرار والانوار ، ونفحات النسائم القدسية في الثقافة الاسلامية الرفيعة ، في علمي الظاهر والباطن ؛ بمجالس الذكر ، والعلم والأدبَ ، والفكر والسماع ، في عالم الوجود الصوفي ، ذلك لأن هذه الثقافة ، وإن تعددت الوانها فهي ثقافة روحية اسلامية ، تجمعها العبادة وذكر الله في كل حال من الاحوال .

لقد كانت حلق التدريس تعقد في زاويتنا فتقرأ دروس الفقه والحديث والتفسير والتصوف ، ، وغير ذلك من علوم الشريعة والحقيقة مساء كل يوم . وكانت الزاوية آنذاك اشبه بمعهد علمي تقصده طوائف الخلق لا

---

(١) هذا ما اثبته السادة الصوفية في امهات كتب التصوف .

للسلوك وطلب المعرفة والتحقيق فحسب ، بل للاستفادة من ذلك الينبوع الاقدس ، كلٌّ حسبما اراد واحتاج اليه من الثقافـــة الاسلامية والتهذيب الروحي . وكانت مجالس شيخنا رضي الله عنه تجمع اهل الظاهر والباطن من علماء وعوام ويحضرها الغني والفقير ، وقد لا يجـد المرء محلاً يجلس فيه في ذلك الحرم الكبير من كثرة ازدحام المستمعين .

وكان لشيخنا رضي الله عنه مجالس خاصة لا يحضرها إلا اكابر علماء الشريعة ، واكابر من علماء الحقيقة ، ولم تكن تلك المجالس مقتصرة على ابناء طريقتنا فحسب ، بل كان يحضرها كثير من العلماء الذين لم ينتسبوا الى طريقتنا وشيخنا .

وكان يفِد على زاويتنا علمـــاء من المدن القريبة والاقطار البعيدة والمجاورة ، منهم المنتسون الى سيدي الوالد رضي الله عنه ، الذين يؤمون الزاوية لزيارته . وفريق آخر كان يدفعهم الميل لرؤيته رضي الله عنه ومعرفة مقدرته العلمية ، وهل هو من رجال الله حقاً ؟

وكان في عكا رهط من اكابر علماء الشريعة من اهلها ممن تلقوا علومهم في الازهر الشريف ؛ منهم المفتي (مفتي عكا ولوائها) ونقيب الاشراف وعلماء آخرون هم علمـــاء الجيش ، خريجوا معاهد العلم في الاستانة ؛ ومعظم هؤلاء من الاتراك ، منهم مفـــتي الجيش ، وقاضي الشرع .

وكان لبعض العلماء من اهل المدينة وظائف يشغلونها في إلقـاء دروس الفقه والحديث والتفسير وغيرها من علوم الدين في جامع ـ الجزار ـ ، كما اختص فريق آخر بتدريس العلوم الشرعيـة في الكلية الأحمدية ؛ ولضيق مساحة عكا بسبب حصرها في نطاق السور والخندق ، ولعدم سماح الحكومة التركية للاهلين يومئذ ان يبنوا بيوتهم خارج السور ، حيث السهـــول الفيحاء والمروج المترامية الاطراف ، وشاطيء البحر الجميل ، اضطر اهل هذه المدينة ان يقيموا مساكنهم طبقات بعضها فوق بعض . امـا المنازل الكبيرة الفسيحة فكانت مـــأهولة بأصحابها من الاسر القديمة العريقـــة ،

والعائلات الكريمة الارستوقراطية ، وبعض هذه المنازل كان يسكنها الكبراء والامراء والحكام ، ولهذا كله اتخذ اولئك العلماء لهم مركزاً في جامع الجزار يجتمعون فيه مساء كل يوم ، إذ لا يوجد مكان آخر افضل منه ؛ فهناك مياه كثيرة ، وحديقة جميلة ، وأشجار واسعة ، وظل ظليل ، وهواء عليل ، ومكتبة عامة تحوى كتباً قيّمة ، وقاعة فسيحة معدّة للجلوس ، مؤثثة تأثيثاً يليق بهؤلاء الكبار الاعلام . ولما أراد الله سبحانه وتعالى لحضرة سيدي الوالد رضي الله عنه ان يهبط عكا ، ويجعل إقامته الدائمة فيها ، تلقى معظم اولئك العلماء الطريقة الشاذلية عنه رضي الله عنه ، فمنهم من تلقاها عنه في أول مرة دخل فيها عكا . وفريق آخر اخذ عنه بعد نزوله من ترشيحا ؛ وبعد انتساب هؤلاء العلماء اليه كان لا بد لهم من ان يكون مركز اجتماعهم في زاويتنا بين يدي شيخهم رضي الله عنه .[1] اما العلماء الذين لم يتشذلوا ، فقد نشأت بينهم وبين سيدي الوالد مودة وصحبة ، فكانوا يحضرون مجالسه الخاصة والعامة ، وهكذا انتقلت تلك الحركة العلمية الثقافية من مسجد احمد باشا الجزار ، الى زاويتنا ؛ وغدا مركز اجتماع العلماء فيها .

لقد كانوا يذهبون الى جامع الجزار لتأدية الواجب المفروض عليهم حسبما تقتضيه وظائفهم واعمالهم ، ومن ثم يُهرعون الى زاويتنا للاجتماع بشيخنا رضي الله عنه وسماع أحاديثه ومذاكراته[2] في مجالسه الروحية . لقد شاهدوا من علومه ومعارفه وشمائله ولطفه وتواضعه ما قادهم بكليتهم اليه .

كانوا يجلسون بين يديه يتلقون عنه ، أو يصغون اليه ، او يسألونه ، وكان رضي الله عنه يطلب من احد اولئك العلماء ان يقرأ الدرس في ذلك اليوم ، ثم يعلق رضي الله عنه على الموضوع بما فتح الله عليه من فيض فضل الله ، وانوار رسول الله ﷺ ، وفي النهاية يتلو المقرىء ما تيسّر من آي الذكر الحكيم ؛ ثم يذهب كل واحد منهم في سبيله .

(١) كان هذا بعد ان انشئت الزاوية .

(٢) ابداء الرأي في الموضوع الروحي والتعليق عليه بالشرح والتفسير .

وهكذا كانت زاويتنا تجمع جماعات من وجوه اهل الفضل ، العلماء الاعلام ، من الزائرين والمقيمين في المدينة . ولامر يريده الله سبحانه وتعالى فإن بعضاً من هؤلاء العلماء كانوا يجتمعون بزملاء لهم قضوا واياهم زمن الدراسة في الازهر الشريف ثم تفرقوا ، وبعد اعوام جمعهم الحق عز وجل في رحاب شيخنا رضي الله عنه ، تحت لواء الطريقة الشاذلية ليجددوا عهد ودّهم بالاخوة الروحية بالله .

أما الذين لم يكونوا زملاء وأصدقاء ، فيتعارفون ويتحابون في الله ورسوله ﷺ . ولم تكن زاويتنا يومذاك معهداً علمياً للثقافة الروحية فحسب ، بل ومكاناً فسيحاً لملتقى الطبقات الخاصة والعامة ، من طلاب المعرفة والتحقيق والوصول الى الله تعالى ، وكان يدخلها كل يوم وينزل فيها مئات من الزائرين ، ولم تنقطع تلك الحركة العلمية الفكرية الروحية الصوفية الثقافية طوال ايام حياة سيدي الوالد رضي الله عنه .

وبذلك يمدحه مريده الاديب الشاعر الشيخ قاسم ابو الحسن الكستي ، البيروتي ، بقصيدته التي يقول فيها :

يا مَن تحيّر في شدائد أمره	وعليه قد جارتْ حوادث دهرهِ
لذْ بالعليِّ اليشرطي فانه	يلقى الصريخ به إزالة ضرّه
قطبٌ به فلك الحقيقة مشرق	وضياؤه ملا الوجود بأسره
زادت طريق الشاذلي برشده	فضلًا وأضحت غرّة في عصره
لو كان في السلف القديم لخلدوا	بصحائف الدنيا محاسن ذكره
وبعمر نُوح لو يجود له القضا	كنا نروم زيادة في عمره
هو من كنوز الله في ملكوته	ملآن من عمل الصلاح وأجره
في كل قلب طاهر تلقى له	حباً صحيحاً واقياً من كسره
قد أشبه المصباح في مشكاته	نوراً بدا من قلبه في صدره
ويرى بعين الكشف ما هو واقع	في الكون من عسر المعاش ويسره
متواضع بين الأنام وإنما	كان التواضع رفعة في قدره

إن حل في الأرض الجديبة أمرعت ... وزهت كما يزهو الربيع بزهره
كم جرّ شخصاً للسعادة بعدما ... قد كان أشقى من ثمود بوزره
تسعى رجال الله نحو جنابه ... زمَراً ليقتبسوا أشعة فكره
في ذاته يلقى دليلًا واضحاً ... لمكارم الأخلاق من لم يدره
مولى به المسترشدون تقربوا ... لله واغتنموا عوائد برّه
لم يعترف بالفضل من لم يغترف ... بيد العناية غَرفة من بحره
سيماه من اثر السجود بوجهه ... تزهو فتنبيء عن طهارة سره
فمن استجار به يُجار وإن يكن ... ما بين ناب ابي الشبال وظفره
يسع الكثير من الوفود مكانه ... ويضيق ظرف زمانه عن شكره
هذا الذي أدركتُه من وصفه ... ووقفت عجزاً عن تتمة خُبره
والعفو يُرجى للمقصّر حينما ... يأتي مقراً للكريم بعذره

* * *

رفع مستوى المريد بالتهذيب الروحي

وكان رضي الله عنه يهتم كثيراً برفع مستوى مريديه ، بتهذيب النفوس وصقل الطباع ، بالثقافة والعبادة والذكر والفكر والرياضة الروحية ، والهمة والحال . وكان يرسل الشبان المبتدئين الى الأزهر الشريف بعد ان يتموا دراستهم في المدرسة الاحمدية بجامع الجزار في عكا ، او في إحدى مدارس العلم الشريف ، في دمشق . وقد نبغ اكثر من واحد من هؤلاء الشبان وارتقى أعلى الدرجات العلمية ، ثم كان فيما بعد ، من أكابر علماء الشرع الشريف في زمانه ، فمن هؤلاء العلامة الكبير الشيخ عبد الله الجزار ، مفتي عكا الاخير ، الذي كان منشداً في الزاوية في اول انتسابه الى طريقتنا ، ثم ارسله سيدي الوالد الى الازهر الشريف ، وبعد عودته ، عيّن مدرساً في المدرسة الاحمدية . وبعد ان ارتقى ظاهراً باطناً ، تولى

المقدمية في زاويتنا فكان مجازاً من سيدي الوالد باعطاء الطريقة الشاذلية ، وتهذيب المريدين ، وإقامة الاذكار ، وإلقاء الدروس في العلوم الدينية في ـ تكيّتنا ـ ، ثم تولى منصب الافتاء الشرعي في عكا . وفي إحدى المرات تقلد ثلاثة مناصب علمية رفيعة في آن واحد ، ورغم هذا بقي مقدماً كما كان على عهد والدي رضي الله عنه ، وبقي مثابراً على إعطاء الدروس في المدرسة الاحمدية إلى ان توفاه الله تعالى . لقد فعل هذا امتثالاً لامر شيخنا رضي الله عنه الذي كان يعمل دائماً على نشر العلم ، فيحث مريديه العلماء على التدريس ، وبذل علمهم في سبيل الارشاد الى سبيل الله ، وخدمة المسلمين .

لطيفة

وكان العالم الفاضل الشيخ مصطفى الترك ، من اهل حمص معلماً يدرس القرآن والعلوم الدينية في إحدى المدارس هناك ، ونظراً لتقدمه في السن رأى ان يعتزل مهنة التعليم ، فجاء إلى عكا يستأذن سيدي الوالد بذلك ، فأجابه رضي الله عنه « يا شيخ مصطفى إن منزلتك عند الله كبيرة ، فأنت سفير بين الحق والخلق تلقن آياته لخلقه » فلما سمع الشيخ مصطفى هذا غيّر رأيه وبقي مستمراً في مهنته التي قضى عمره في خدمتها . اه

ويوم كان أخي السيد محي الدين يطلب العلم الشريف ، تطوع لتعليمه وتدريسه نخبة من أكابر علماء الشريعة في ذلك العصر ، من إخواننا الذين تركوا بيوتهم وتجردوا في الزاوية لمدة تعليمه ، ولما كانت الحياة في زاويتنا سواسية ، فلا رفيع ولا وضيع ، فقد درس مع اخي شبان عديدون من إخواننا . ويوم تشذل العالم الكبير الشيخ محمود ابو الشامات الدمشقي ، كان شاباً يافعاً يطلب العلم في الشام ، ثم رحل الى ترشيحا ، وتجرد هناك ، ونشأت بينه وبين اخي محي الدين صداقة واخوّة بالله فكانا يطلبان العلم معاً ، ويدرسان ويتفقهان في الدين ، ويسلكان في الطريق

بين يدي والدي رضي الله عنه فيسيران فيه سير الجد . ودأبت تلك الصلة بينهما حتى بعد ان رجع الشيخ محمود إلى دمشق ، وقد ارتقى الشيخ محمود فيما بعد في الأوساط العلمية ، بفضل شيخه رضي الله عنه ، وفضل انتسابه لأهل الله تعالى ، والمداومة على ذكر الله ثم كان مقدماً على إخواننا في دمشق وضواحيها ، وكان واسطة دخول جماعة من إخواننا الاتراك من اهل القسطنطينية في طريق الله ، منهم الوزراء والولاة والاعيان وله مؤلفات قيمة في علوم التفسير والتصوف ، واشعار منظومة صوفية في مدح سيدي الوالد ، عبر فيها عن سلوكه في الطريق بين يدي شيخه ، وتعشقه له وفنائه فيه .

وتلقى العلم مع اخي السيد محي الدين ، اخوه في الرضاعة ، الشيخ عبد الرازق القاضي ، نجل الشيخ محمد صالح ـ قاضي ترشيحا ـ وكلاهما من مريدي والدي رضي الله عنه المخلصين المتفانين في حبه ، وكان الشيخ عبد الرازق عارفاً كبيراً محققاً ، سار في طريق الله بين يدي شيخه ، وعاش صديقاً حميماً لاخي محي الدين ، حافظاً ودّه بعد انتقاله الى رحمة الله . وقد تولى فيما بعد منصب القضاء الشرعي في حكم الدولة العثمانية .

وتجرد في زاويتنا الشيخ الجليل الكبير ، اسماعيل احمد الخطيب ، الشهير بالطوباسي من أكابر علماء الشريعة ، وقد تولى المقدمية على الفقراء في زاويتنا في عكا مدة طويلة ، صحب فيها سيدي الوالد ، وكان يعلّم الفقراء امور دينهم ويقرأ لهم دروساً في الفقه والحديث والتصوف ، وكثيراً ما كان والدي رضي الله عنه يوجه اليه بعض الاسئلة اثناء المذاكرة تشجيعاً لاولئك السامعين من إخواننا ، ثم يشرح سيدي الوالد الموضوع بما فتح الله عليه .

وتجرد في زاويتنا العالم الفاضل الشيخ احمد حشيشو الصيداوي ، وكان اديباً اصيلاً متمكناً ، فكان يعلّم من يشاء من الفقراء المريدين القراءة والكتابة ، والنحو والصرف وغيره من علوم اللغة ، قلتُ لمن يريد ، إذ

لم يكن التعليم في زاويتنا إجبارياً .

* * *

علم التوحيد كشف الغيون اصل التجريد هدم الحصون
حل التقييد جمع الشجون عزّ التأبيد ان لا تكون

★

روح الايمان صدق المقال نهج الاحسان رؤيا الهلال
كنز العرفان هجر الخيال كل الاكوان كافٌ ونون

★

لاحت أقماري بين الملاح خلف الاستار والغير راح
يا ذا الخمّار هات المباح صاحت اطياري فوق الغصون

★

فانهض للحان يا ابن النعيم واسمع الحاني واشطح وهيم
من علي الشان حظي قديم يدريه الداني والراسخون

★

أنعم يا ساقي لي بالمدام من خمر الباقي محي العظام
بلّغ اشواقي ذاك الامام ذي القدر الراقي نور العيون

★

صل يا ظاهر في كل حين على النور الباهر للعارفين
ياسين الطاهر سرّ اليقين ما عبد القادر حاز الفنون [1]

* * *

وليس غريباً ان نرى الذين يقودون الجمال ، ورعاة الغنم والبقر ،

(١) للشيخ عبده الحمصي مدح به شيخه سيدي الوالد بمناسبة احدى زياراته (امكا) .

وسائقي العربات ، وسائسي الجياد ، من ابناء طريقتنا يؤدون الصلوات الخمس رغم اعمالهم الشاقة المتعبة ؛ ويقرأون القرآن الكريم والوظيفـــة ، ويحفظون بعض الاحاديث النبوية ، ويذكرون الله سراً وعلانية ، ويتكلمون بعلوم القوم ؛ فالاميّ الجاهل من ابناء هذه الطبقة اكتسب الشيء الكثير من تلك الحياة الروحية الثقافية مما فتح الله به عليه بالحال والهمة ؛ فقد كان للطريقة أثر بيّن جلي في تثقيف نفوس هؤلاء الاتباع من ابنائها ؛ وفي تهذيب طباعهم ، سواء كانوا في الزاوية ، ام في غيرها من البلاد .

لقد ارتقت بهم الطريقة فهماً ومعنى . وبينما كان امثالهم من طبقة العوام لا يعي معنى لحديث ، ولا يكاد يفقه نظماً او نثراً ، كنا نرى المنسوب إلى طريقتنا من هذه الطبقة ، مصغياً باحثاً يناقش في معـــاني القول ، ويأتي بالشواهد من الحِكم والآيات والاحاديث ، وهـو الاميّ الذي لم تتعهده مدرسة ولم يتخرج على يد استاذ . وقد نظم بعض هؤلاء البسطاء الشعر الصوفي ، على قدر حالهم ، وحسبما أفاضت عليهم الطريقة من نعم الله تعالى ؛ وهذه بعض ابيات تكلم بها بعض الاميّين من إخوانـــا ، اوردُها على سبيل المثال :

يا حيـاة الروح يا ساكن في الجوى بوصلك لا ابوح (والنجم إذا هوى)
كن انت لي ذخراً في كل لحظة وحين في الدنيا والاخرى امـام المرسلين
يا صاحب القدرة الجوهر الثمـين (وكهف المزايا) (للفتيا اوى)

★

عامل بالاحسان باسم الستـار يا ابن المـداني منبع الاسرار [1]
يشرطي المعـاني (تنوري قد فار) وانبجس عيـاني للقـــلب روى

(١) كان هذا الشاب الناظم امياً نشأ في قرية (السفيرة) من قرى حلب، ونراه هنا قد رصع نظمه ببعض الفاظ القرآن الكريم ، وزينه بمعاني بعض آيات كريمة ، مما يعجز عن امثاله النابهون ، وهذا من فيض سر الطريق ، وبفضل الذكر الجليل .

وكان في بيروت ، رجل حبشي من إخواننا ، يدعى هلال المقدسي ، جاء (الى السيد محمد صقر احد أكابر إخواننا في بيروت) وقال له : (لقد عملت طاقية) فظن انه يعني حياكة شيء ما يضعه فوق رأسه وإذ به يسمعه هذه الأبيات :

قال لي العاذلون كم ذا تراعي   نجم ليل الى صباح السُّراةِ
قلت كفّوا فما عليكم بشأني   قد رضيت بصبوتي ومماتي
لو رأيتم ما قد رأيت لقلتم   لك حق بسيد السادات

فلما سمع منه اخونا (محمد صقر) دهش وادرك ان صاحبه كان يعني كلمة (تائبة) لا (طاقية) ، وعندها تمثل بقول شاعرنا الصوفي الكبير ، سيدي عمر بن الفارض رضي الله عنه :

ولو قرّبوا من حانها مقعداً مشى   وينطق من ذكرى مذاقتها البكم[1]

* * *

وكان سيدي الوالد رضي الله عنه ، والمقدمون ، والأشياخ ، وبقية المريدين من الزوار والمتجردين ، وسكان ذلك الشارع ومن بالجوار يؤدون الصلوات الخمس جماعة في حرم التكية ، (كما هي الحال في المساجد) ، على ان كثرة الوفود من طوائف المريدين الزائرين ، كانت تضفي على المكان رهبة وخشوعاً بكثرة صفوف المصلين الخاشعين لله ، إذ انهم كانوا يتجاوزون باب الحرم ويملؤون الرواقين ، وكان شيخنا رضي الله عنه يقف في صفوف المصلين وراء الامام مقتدياً به ، متواضعاً لله ، وكانت تأخذه الخشية والاستغراق بعباداته وصلواته ، فهو دائماً يعيش بالله .

وكان صوت المبلغ وهو يكبر بقوله (الله اكبر ، الله اكبر) جميلاً ساحراً تحنّ اليه القلوب القاسية فيخضعها باسم الله لعبادة الله وطاعته ، مما يزيد في الروعة والجلال في حرم الله .

---

(١) ديوان الفارض ص ٩٤ .

اما صوت ترتيل آي الذكر الحكيم من ذوي الأصوات الحسنة ، فهو لا ينقطع ابداً إلا في اوقات الصلاة والدرس والاذكار والنوم . وكانت مجالس الذكر والعلم والأدب والسماع ، عامرة بوجود شيخنا رضي الله عنه ، يتبارى فيها إخواننا كل حسب ثقافته ومشربه وسيره في الطريق .

هذا يشتغل بالتدريس ، وذاك يعلم امور الدين ، او يؤلف رسالة ، او يشرح كتاباً ، وجماعة ينظمون الشعر ، وبعض الملحنين يجتهدون بوضع ألحان جميلة للأناشيد ، توافق المعنى واللهجة في طبقات الصوت في حلق الذكر ، ومجالس القوم ؛ وكان رئيس المنشدين في زاويتنا المقرىء الكبير الشيخ عبد المنعم المشلاوي ، رئيس المؤذنين في مسجد الجزار ، واحد كبار المقرئين فيه ؛ وهو نجل العالم الفاضل الشيخ علي المشلاوي ؛ وكلاهما من مريدي سيدي الوالد .

وقد أنعم الله على الشيخ عبد المنعم ، فوهبه صوتاً حسناً مع جودة الأداء ، وفصاحة الالقاء ، وإتقان التجويد ، وكان يتذوق الأدب ، وينظم الشعر ، ويلم بعلم النغمات والألحان .

وكان السيد عبد الرحمن العاقل ، احد وجوه مدينة عكا وقد تولى رآسة المجلس البلدي فيها ، ذا صوت حسن ، فبعد ان تشذل كان منشداً في حلقة الذكر في زاويتنا .

وكانت وفود الزائرين من المدن القريبة والأقطار البعيدة او المجاورة ، تدخل الزاوية جماعات وأفراداً ، وكثيراً ما كان بعضهم يردد قول : الله الله مولانا ، لا إله إلا الله ، يقولون هذا بصوت عال ، جماعة ، وبنغمة خاصة ، ثم يرتلون بعض الأناشيد السهلة البسيطة ، ذات النغمات الخفيفة ، التي تناسب المقام . اما اهل القرى فيهزجون الأهازيج الجميلة بأنغام بدائية كقولهم :

هيّا بنا، هيا بنا   للذكر نجلي قلبنا   نُدعى رجالاً ذاكرين   وذكرنا منّا لنا(١)

(١) لأحد مريدي والدي الصادقين .

نحن بنيّ الشاذلي وسرنا دوماً جلي إذا لفظنا يا عــلي اهلكنا رايد ذلنا
نحن سيوف باترة نحن نجوم زاهرة لنا قلوب عامرة تعلقت بربنـــا
إذا افتخرتم باعوام علينا فخركم حرام كفانا عزاً واحتشام أنا نجالس ربنا [1]

* * *

وحال وصول الزائرين ، كانوا يدخلون الحرم فيصلون ، ويذكرون ، وينشدون الأناشيد الصوفية القديمة والحديثة في المجالس وفي حلق الذكر ، وبعدها تقام حلق الذكر عدا التي تقام في ليلتي الجمعة والاثنين ، من كل اسبوع بعد صلاة العشاء الأخيرة ، وبعد تــلاوة الورد الكبير (اي الوظيفة) مباشرة ؛ اما في ايام المواسم ، فتقام الاذكار اكثر من مرة في كل يوم ليلاً او نهاراً ، صبحاً او مساءً حسب التجلي الالهي .

هذا وتقام حلق الذكر في زاويتنا على الوحــدة الموسيقية بالنغمات والاوزان ، دون اية آلة موسيقية ، وينشد المنشدون ما يناسب طبقات الصوت في كل لهجة من لهجات الذكر .

وقد نشأت بين ابناء طريقتنا مودة ومحبة وصحبة ، بين الطبقات ، فالعالم والجاهل ، والغني والفقير ، في مجالس العلم والذكر والسماع ، كانوا يجلسون جنباً الى جنب ، ولا غرابة في ذلك ، فالتعاليم الصوفية إنسانية ، تغمر الوجود بأسره بالحب والرحمة ، وتقرب بين الطبقات ، وتجمع بينهم بالاخوة الروحية ، ضمن حدود آداب الشرع الشريف ، وتحت حكم الامر والنهي الالهي .

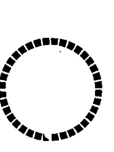
وأشير هنا الى ان ترتيل الاناشيد عند السادة الصوفية ، لم يكن من شروط التصوف ، او زيارة الشيخ ، ولكنهم اهل وجد وتواجد ، وهيام بالله ورسوله ﷺ .

اما إقامة الاذكار مع السماع وترتيبها على تلك الصورة المعروفــة ،

---

(١) اي انهم يجلسون في الصلاة والذكر بين يدي الله في حالة خشوع .

وتعيين نخبة من المنشدين من ارباب العـــلم بالنغمات والألحان ، فكان القصد منه جلب الخلق الى الطريق ومنع الشبان من الجلوس في المقاهي ، حيث الشراب والانهماك في الملذات الحسية ؛ فبواسطة السماع الروحي ، ينقلونهم الى عـــالم المعاني الروحية ؛ وقد يكون ذلك الانتقال ، من اسباب هداية هؤلاء الشبان ، الى الصراط المستقيم ، وقد ثبت ان سماع ما يحرك الاحوال السنية مندوب اليه .



فتاوي

علماء الشرع الشريف

بعقد حلق الذكر والجهر به مع التهليل

من الأناشيد

التي تنشد عند قيام حلقة الذكر

هيّا يا اهـــل الوصالِ   راق خمـــر الاتصال [1]
وكؤوس الرّاح دارتَ   من يديْ قطب الكمال

★

نور ذات الله لاحـــا   صيّر الكون صباحاً
وعبير المسك فاحـــا   من شذا مسك النّوال

★

أثبتتْ ليـــلى عهودي   فتمـــلكتُ شهـودي
قَـدّس الحبّ وجودي   صِرتُ من خير الرجال

★

اشرقت شمس يقيـــني   عن شمـــالي ويميـــني
سلبتْ عقلي وديـــني   في الهوى ذاتُ الجمـالِ

★

قـد سقتني كأس خمرِ   غبت عن زيـد وعمرو
ثم عن نهـــي وأمر   ثم عن حالي ومـــالي

★

أخرجتـــني عن مرادي   أنعمـــت لي بالرشـاد
بيتها صار فـــؤادي   أشرقت شمس كمالي

★

يا عـلي يا أبن الحسيْني   يا إمـــامَ الثّقليْنِ [2]

(١) للشيخ عبده الحمصي الدمشقي .
(٢) مرتبة الوراثة المحمدية .

كن لِعاري ٱلمقلتَيْنِ مُسعِفاً في كلّ حال

★

أنت قلبي ولساني أنت روحي وجَناني

جئتُ بالشيخ ٱلمداني [1] أرْتجي تحسينَ حالي

* * *

حلوه الذكر

أمّا عقد حلَق الذِكرِ والجهر به مع التهليل ، فهو جائز شرعاً ، وقد ورد في حق الذكْر آياتٌ بيّناتٌ ، منها قوله عزّ شأنه : (أذكروا اللهَ ذِكْراً كثيراً ، وسبّحوه بُكرةً واصيلاً [2]) . وقولُهُ جلّ جلاله : (الذين يَذكرونَ اللهَ قِياماً وقُعوداً وعلى جُنوبهم) الخ [3] . وقوله سبحانه : (ألا بِذِكْرِ اللهِ تطمَئِنُّ القلوب) [4] . وكذلك وردت احاديث كثيرة بِحقّ الذكر ، وفي التحليق في الذكر ، منها ما رواه الطبراني بإسناد حسن ، مرفوعاً إلى النبي ﷺ قال : « قال رسول الله ﷺ : (ليبعَثَنَّ اللهُ اقواماً يوم القيامة في وجوههمُ النورُ في مَنابرِ اللؤلؤِ ، تُعظِّمُهم الناسُ ، ليْسوا بأنبياءَ ولا شُهَداء) ، فجثا اعرابيٌ على ركبتيه وقال : يا رَسول الله حلّهم لنا نعرفهم ، فقال : هُمُ المُتحابُّونَ في الله مِن قبائل شتّى ، ومن بلادٍ شتّى ، يجتمعون على ذِكرِ الله » .

ومنها ما اخرجه الترمذي رضي الله عنه قال : « قال رسول الله ﷺ : « إذا مَررتمْ برِياضِ ٱلجنة فأرتَعوا ، قالوا : يا رسول الله ،

(١) شيخ والدي ، قدس الله سره .

(٢) سورة الاحزاب

(٣) سورة آل عمران

(٤) سورة الرعد

وما رياض الجنّة ؟ قال : « حَلَقُ الذِكْر »[1] ومنها ما اخرجه البزّار عن انس رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ انه قال : « إنّ لله سيّارةً من الملائكة ، يتطلّبون حلَقَ الذِكر ، فإذا أتوا عليها حفّوا بها ، فيقول اللهُ : غشّوهم برحمتي ، فهم الجلساءُ لا يشقى بهم جليسهم » .

وعن جابر بن عبد الله الأنصاري رضي الله عنه ، أن رجلًا كان يرفع صوته بالذِكر ، فقال آخرُ لو أن هذا خفض صوته ، فقال رسول الله ﷺ : (دَعْهُ فأنّه اوّاه) اهـ ، (أي رقيق القلب) ورُوي أن اناساً كانوا يرفعون اصواتهم بالذكر عند الغروب ، في زمن عمر بن الخطّاب رضي الله عنه ، فاذا خفضوها ارسل اليهم : نوّروا الذكر ، اي ارفعوا اصواتكم . والآيات والاحاديث في الذكر كثيرة فمن شاء فليجدها في القرآن الكريم ، وفي كتب الأحاديث . والذكر بإسم الله الأعظم ـ أي ـ الذكر باسم الجلالة . وفي ردّ المحتار ما نصّه عن اسم الجلالة والذكر به ، وروى هشامٌ عن محمدٍ ، عن ابي حنيفة ، انه الاسم الأعظم وبه قال الطحطاوي وكثيرٌ من العلماء .

وقد ألّف الحافظ الكبير المحدث الامام المجتهد ، الشيخ جلال الدين السيوطي الشاذلي رضي الله عنه ، وهو من كبار ائمة الشافعية رسالة ، سماها ـ نتيجة الفكر في الجهر بالذّكر ـ بناها على سؤال رفع اليه فيما اعتاده السادة الصوفيـة من عقد حلق الذكر والجهر به في المساجد ، ورفع الصوت بالتهليل ، وهل في ذلك مكروه « فاجاب بان لا كراهيَة في شيء من ذلك » ، وألّف رسالة ثانية سماها ـ السيف القاطع اللامع لأهل الاعتراض الشوايع ـ ردّ فيها على المعترضين وذكر اسماء علماء اعلام افتوا بجواز اقامة حلق الذكر منهم :

قاضي القضاة شيخ الاسلام ـ كمال الدين القادري الشافعي
قاضي القضاة شيخ الاسلام ـ نور الدين الطرابلسي الحنفي

(١) ذكره السيوطي في كتاب « السيف القاطع » ص ١٦

قاضي القضاة شيخ الاسلام – شرف الدين الدميري المالكي
قاضي القضاة شيخ الاسلام – شمس الدين الفتوحي الحنبلي

ثم ذكر اسماء علماء اعلام غير هؤلاء ، منهم شيخ الاسلام وسلطان العلماء عز الدين بن عبد السلام ، وشيخ الاسلام سراج الدين البلقيني ، والعلامة برهان الدين الايناس ، والشيخ جمال الدين الاسيوطي [1] .

وقد ألّف العالم الكبير العلامة الفاضل الشيخ يوسف العجمي رسالة في فضل الذكر .

والف سيدي الشيخ عبد الغني النابلسي رضي الله عنه ، رسالة سمّاها – جمع الاسرار في منع الاشرار من الطعن على الصوفية الاخيار ، اهل التواجد والاذكار – ، ذكر فيها اسماء عدد كبير من علماء الشافعية والحنفية والمالكية والحنبلية وكل منهم قال : « ان لا كراهية بذلك وافتوا بجواز اقامتها في المساجد » [2] .

وقد سئل الحافظ الكبير المحدّث ابن حجر عن رقص الصوفية وهل له اصل « فأجاب نعم له اصل ، فقد روي ان جعفر بن ابي طالب رضي الله عنه ، رقص بين يدي رسول الله ﷺ لما قال له : (اشبهتَ خَلْقي وخُلُقي) من لذة الخطاب ولم ينكر عليه رسول الله ﷺ ذلك » [3] .

وبهذا المعنى يقول سيدي الشيخ ابو مدين رضي الله عنه :

يحرّكنا ذِكرُ الأحاديث عنكمُ ولولا هواكمْ في الحشا ما تحرّكنا
فقُل للذي ينهى عن الوجد أهلَه إذا لم تذقْ معنا شرابَ الهوى دعْنا
إذا اهتزّتَ الأرواحُ شوقاً الى اللقا نعمْ ترقصُ الأشباح يا جاهل المعنى

---

(١) الشيخ المطلع الناقل جمال الدين الاسيوطي
(٢) السيف القاطع للسيوطي ص٤ و٢٢ و٢٣ الالهامات الالهية للشيخ محمود ابي الشامات ص٦٢
(٣) السيف القاطع للسيوطي ص٤ ،حديث شريف رواه ابو الدرداء باسناد حسن، عن البخاري، واخرجه البيهقي في السنن .

أما تنظر الطـيرَ المقفّص يا فتى　إذا ذكر الأوطان حنّ الى المغنى
يفرّج بالتغريـد ما في فؤاده　فيُطرِب أرباب العقول إذا غنّى
ويرقصُ في الأقفاص شوقاً الى اللقا　فتضطرب الأعضاء بالحسّ والمعنى
كذلك ارواحُ المحبّـين يا فتى　تهيّجها الأشواق للعالم الأسنا
أنلزِمها بالصبر وهي مَشُوقة　وهل يستطيع الصبر من شاهد المعنى [١]

* * *

وسئل الحافظ المذكور عمّن يذكرون الله قياماً وقعوداً وبالأنغام الموسيقية ، بالتمطيط وإظهار ما بين الهمزة ولام الف (إلهٓ) ، ومد الهاء من (إله) ، ويقولون : (هو) و (ها) و (هي) ، ويذكرون بالحلْق وهو الحاء ، بان يقول حي ، حيّ ، ويرقصون في بعض الأحيان بالتواجد ، والوثبات ، ويغيبون عن إدراكهم وينشدون الأشعار واصناف الكلام المطرب المهيج المحرك للنشاط ، وغير ذلك ، بما يتعلق باحوال المريدين من اهل الطريق عموماً وخصوصاً ، وهل هو حرام ام لا ؟ وهل لذلك اصل في الكتاب والسنة ؟ وهل يجوز سب مشايخ الطريق ام لا ؟ افيدوا مأجورين ؛ فأجاب رحمه الله تعالى بقوله : « يجوز الذكر بجميع الأنواع ، بإيل ، ولا ها . لورود الشرع بذلك ، لان (إيل) اسم الرحمن (ولاها) اسم المحبوب ، ولا يلزم ذكر لا إله إلا الله إلا في الشهادتين ، والأذان ، والتشهد ؛ ويجوز الذكر بحرف واحد ، كما ورد في اوائل السور ككاف ، وهاء ، وياء ، وعين ، وصاد ؛ ويجوز الذكر باسماء الله طراً ، ويجوز الرقص بدليل فعل الحبشة في المسجد بين يدي النبي ﷺ ، ولم ينكر عليهم ، وكان رقصهم بالوثبات والوجد . وحصل لعمر بن الخطاب رضي الله عنه وجد ، حتى غاب عن إدراكه . وإنشاد الشعر ، وغير ذلك جائز بلا إنكار ، وكانت الصحابة رضوان الله عليهم يتناشدون الأشعار بين يدي النبي ﷺ ، واصل هـذه الطرائق من

(١) إيقاظ الهمم لابن عجيبة ص ٥٨ الحاشية شرح المناهج الأصلية .

الكتاب والسنة ، ولا يجوز الانكار عليها بالاتفاق ، وسب المشايخ إهانة في الدين ، والاهانة في الدين كفر شرعاً وعقلًا بلا خلاف » اه [١] .

وسئل خير الدين الرّملي عمّا اعتاده الصوفية من حلق الذكر والجهر به في المساجد ، ونشدِ القصائد الصادرة عن ذوي المعارف الربّانية ، وغير ذلك من عوائدهم . فأجاب بما حاصله : « إن الأمور بمقاصدها ، والأعمال بالنيّات » الى أن قال : « حقيقةُ ما عليه الصوفية لا يُنكرها إلا كل نفسٍ جاهلة غبية ، وأما حلق الذكر والجهر به مع الانشاد ، فقد جاء في الحديث الشريف ما اقتضى طلب الجهر به ، نحو قوله ﷺ في الحديثْ القدسي : (وإنْ ذكرني في ملأٍ ذكرْتُه في ملأٍ خيرٍ منه) [٢] رواه البخاري ، ومسلم ، والترمذي ، وابن ماجه ، واحمد ، وإن ذلك تتعدّى فائدته للسامعين ؛ ويوقظ قلبَ الذاكر ، ويجمع همّته الى الذكر ، ويصرف سمعه اليه ، ويطرد النوم ، ويزيد في النشاط ، انتهى » [٣]

واجاب ابو الفتح محمد بن عبد السلام ، وهو من أكابر أئمة المالكية ، عن سؤال رُفع اليه بوادق هذا السؤال المتقدّم بأن ذلك جائزٌ شرعاً ، والمعترض عليهم مُبطل » [٤]

واجاب الشيخ عز الدين بن عبد السلام ، وهو سلطان العلماء ، وقد سئل عن مثل ذلك ، فقال : (سماعُ ما يحرّك الأحوال السنية المذكرة للآخرة مندوبٌ اليه ؛ ومَنْ جزم بالتحريم والتكفير فقد أخطأ فيما قال ، واستحق العقوبة والنكال . » [٥]

---

(١) السيف القاطع للسيوطي ص ٧ ص ٨ ص ٩ . الالهامات الالهية للشيخ محمود ابي الشامات ص ٦٣ ص ٦٤ ص ٦٥ .

(٢) لهذا الحديث رواية ثانية وهي : « لايذكرني عبد في نفسه إلا ذكرته في ملأ من ملائكتي ، ولا يذكرني في ملأ إلا ذكرته في الرفيق الأعلى » رواه الطبراني.

(٣) الالهامات الالهية على شرح الوظيفة للشيخ محمود ابي الشامات ص ٦٥

(٤) الالهامات الالهية على شرح الوظيفة للشيخ محمود ابي الشامات ص ٦٥

(٥) الالهامات الالهية على شرح الوظيفة للشيخ محمود ابي الشامات ص ٦٥

وألف سيدي الشيخ ظافر ، نجل شيخ والدي قدس الله اسرارهم ، رسالة ، سماها – النور الساطع والبرهان القاطع – ، رد فيها على المعترض ، على الذكر مع الجهر به ، وإنشاد القصائد ، وقد ذكر اسماء بعض علماء الازهر الشريف وغيرهم ، الذين تصدوا للرد على اولئك المعترضين ، على حلق الذكر ، والمبايعة ، ولبس الخرقة ؛ وقد أفتوا بجواز ذلك ؛ وان هذه الطريقة على قدم الشريعة الغراء ، في سائر الاحوال ، فمن سلكها جاز الشرف ، ومن ذاق عرف .

وهذه اسماء العلماء المذكورة في تلك الرسالة :

العلامة الكبير الشيخ ابراهيم السقّا الشافعي	شيخ الازهر
العلامة الكبير الشيخ محمد عليش المالكي	شيخ الازهر
العلامة الكبير الشيخ محمد فتح الله المالكي	من علماء الازهر
العلامة الكبير الشيخ حسين الكتبي الحنفي	من علماء الازهر
العلامة الكبير الشيخ محمد بيرم التونسي المالكي	
العلامة الكبير الشيخ جمال الدين المكي الحنفي	مفتي مكة المكرمة
العلامة الكبير الشيخ احمد السباعي	من علماء الازهر
العلامة الكبير الشيخ حسن العطار	من علماء الازهر
العلامة الكبير الشيخ ابراهيم الملوي المالكي	من علماء الازهر [1]

* * *

اما البدع ، فهي المحدثات من الامور التي لم تكن في زمن النبي ﷺ ، اي إنها محدثة لم تكن في الماضي . وتنقسم البدعة الى واجبة ، ومندوبة ، ومكروهة ومحرمة ، وضلالة ، ومباحة ؛ والطريق في ان تعرض البدعة على الشريعة ، فان دخلت في قواعد الايجاب ، فهي واجبة ، او الندب ، فهي مندوبة ، او التحريم ، فهي محرمة وهكذا .

وقد وردت احاديث شريفة في هذا المعنى ، منها ما رواه الترمذي

(١) البرهان القاطع لمولاي الشيخ ظافر ، نجل شيخ والدي ص ١٥ ص ٢٠ ص ٢٤ .

عن ابن جرير عن ابيه قال : قال رسول الله ﷺ : (مَنْ سنَّ سُنّة خير فاتّبع عليها ، كان له اجرُه ومثلُ اجورِ من اتبعهُ غيرُ منقوصٍ منْ أجورهم شيئاً ، ومَن سنّ سُنّة شرٍ فاتبع عليها كان عليه وِزْرُهُ ومثلُ أوزار مَن اتّبَعَهُ غيرُ منقوصٍ من اوزارِهمُ شيئاً » .

والاحاديث الشريفة في هذا المعنى كثيرةٌ ، فمن شاء فليطلبها يجدها في كتب الحديث الشريف . فالسادة الصوفية لم يخرجوا عن حدود الشرع الشريف في إقامة الأذكار ، فالمتصوفون من أشد خلق الله تمسكاً باهداب الشريعة الغرّاء ، وكلٌّ من يقول إنهم أهلُ تفريطٍ بها فقد ظلمهم .

هؤلاء السادة تركوا المكروهات ، فضلًا عن المُحرّمات ، ولا يَقدحُ في حقهم مخالفة جماعةٌ من المنافقين ، الذين نسبوا انفسهم إلى التصوّف لغاياتٍ وماديات وشهواتٍ لايذاء اهل الله ، فقد كان في زمن النبي ﷺ منافقون ، يتظاهرون بالايمان ، وكل عصر من العصور لا يخلو من اشباه اولئك المنافقين ، الذين انزل الله في حقهم سورةً من القرآن الكريم ، وأمَرَ نبيَّهُ ان لا يُصلّي عليهم بعد الموت .

كذلك لا يقدحُ في حق اهل الطريق أن يكون بين هذه المئات والالوف ، رجلٌ عاصٍ مذنبٌ ، او رجالٌ عاصون مذنبون ، من جهلة المتصوفة . فالولاية ، مهما عظم امرها انما هي نقطة من فيض بحر النبّوة الكريم ؛ وها نحن نرى كثيراً من اخواننا المسلمين ، لا يعملون بأوامر دين الله ، ويرتكبون المخالفات جهراً عَياناً ، أمام جميع الناس ، على ان هذه الاعمال من المخالفين ، لا تقدحُ في حق الشريعة الغرّاء ، فهي طاهرةٌ نقيّةٌ مقدّسةٌ ، ولا في حق الاسلام والمسلمين العاملين باوامر الله .

شهر

رمضان المبارك

ومواسم الاعياد

سبحان من قد اسقاني من خاص خمر العرفانِ [1]
ان رمت يا خلي الوصول فالحب باب الاحسان

يا اول انت الآخر يا باطن انت الظاهر
والكل كالموج الثائر في ماء بحر الصمداني

يا خلي خلّ الشواغل وانهض الى باب الكاملْ
وافتح جميع القوابلِ تهدى على الفرق الثاني

فاخلع رداء الوجود والبس ثياب الحدودِ
واقرأ كتاب الودود واصغ لسمع رباني

يا ربّ نوّر فؤادي من ذلك النور البادي
واسمح بكامل ارشادي من حضرة ابن المداني

قد تمّ تقديس القلبِ لمّا بدت شمس القربِ
قولوا لأرباب الحجبِ هذا عطاء رباني

صلّ وسلم يا ظاهر على المصطفى طه الطاهر
ما جاء من عبد القادر سبحان من قد اسقاني

* * *

رمضان المبارك والاعياد

كانت ايام شهر رمضان المباركِ ، ولياليه اللائحة ، في زاويتنا ، منقطعة النظير في هذه البلاد ، يجتمع فيها خلق كثير من ابناء طريقتنا

(١) من اناشيد مجالس القوم للشيخ عبده الحمصي الدمشقي

الشريفة ، ونخبة من القراء والمؤذنين والمنشدين اصحاب الاصوات الحسنة ، من اهل المدينـة ، ومن المتجردين والزائرين ، الذين يؤمون الزاوية من البلاد المجاورة .

كان القراء يرتلون آي الذكر الحكيم ، بعد صلاة العصر ، الى غروب الشمس ، وبعد صلاة العشاء الاخيرة ، وصلاة قيام شهر الصيام (التراويح) ، ثم ينشد المنشدون المدائح النبوية الصوفية ، والمؤذنون يسبحون الله وتزدحم الخلائق في زاويتنا وامام بابها في الشارع الكبير يستمعون ، وتبقى الناس على تلك الحالة الى وقت السحور فيتناول من شاء منهم طعام السحور في الزاوية ، ولم تكن لتهدأ تلك الحركة او ينام احد فيها في ليـالي شهر الصوم المبارك ، إلا بعد صلاة الفجر ، وقراءة الوظيفة ، وتلاوة الاوراد ، وتأدية الواجبات الروحية ، التي تفرضها الطريق على السالك فيها .

وكانت موائد الافطار ، يحضرها من شاء كما كانت تقدم في السهرات انواع الحلوى والفاكهة ، والشاي والقهوة وشراب الليمون . امـــا في مواسم الاعياد ، فقد كانت العادة المتبعة ، ان يحتفل الجيش المرابـط في عكا ، في اول يوم العيد ، احتفالاً عسكرياً مهيباً تتجلى فيه الصبغـــة الاسلامية ، حيث يقف الجند صفين ، ما بين القلعة وجامع احمـــد باشا الجزار ، ويمر الموكب بين الصفوف ، يتقدمه القائد الاعلى ، ويتـــلوه القواد ، فالضباط ، فالمتصرف ، فالحكام المدنيون ، وكلهم آمون المسجد ، لتأدية صلاة العيد ؛ وهناك تلتقي جموعهم مع العلمـاء والاعيان ، ومعظم اهل المدينة ؛ وتقام الصلاة ، ويتصافح الناس مهنئاً بعضهم بعضاً ، بيـنما تصدح الموسيقى العسكرية قبل قيام الصلاة وبعدها ؛ ثم يغادر القائـد الاعلى المسجد ، يصحبه فريق من القواد والحكام والعلماء ؛ وبعـد ان ينتهي الاحتفال الرسمي ، كانوا ياتون الى زاويتنا مباشرة ، لتهنئة سيدي الوالد ، فقد كان يؤدي صلاة العيد في مسجد صغير بجـوار الزاوية ، ثم يعود اليها ، ويستقبل المهنئين في حرم التكيّة ، إذ لم تكن له غرفـــة

استقبال خاصة به ، ذلك لانه لم يكن ليتكلم بالاحاديث الدنيوية ، ولهذا كان مجلسه دائماً ابداً في بيت الله بين يدي الله ، ويرتفع في المواسم عدد الآتين من البلاد المجاورة والاقطار القريبة ، فهو لا يقل عن الفي نسمة في كل يوم ، منهم علماء واعيان وعوام ، من مختلف الطبقات والاجناس ، ينزلون في رحاب شيخنا رضي الله عنه ، وتقام الأذكار وتُقرأ قصة المولد النبوي الشريف اكثر من مرة في تلك الليالي العاطرة بذكر الله ورسوله ﷺ ، وتلقى القصائد التي نظمها الاخوان حديثاً ، وكذا الموشحات والقصائد التي نظمها السادة الصوفية القدماء رضوان الله عليهم .

وهذه قصيدة مطولة نظمها العالم العلامة – الشيخ رشيد سنان – احد الكبراء من علماء الشريعة في دمشق ، وقد اخذته جذبة إلهية غاب فيها عن كل ما سوى الله ، ثم رجع الى صحوه التام ، وقد تحدث فيها (اي في القصيدة) عن الحقيقة المحمدية ، المنبثق عنها انوار العرش والكرسيّ ولوح الوجود ، وتحدّث عن سريانِ اسماء الله تعالى في الاكوان ، وكيف كشف له عن تلك الوحدة الروحية في شهوده ، وعن نسبته الى صاحب الوقت ، وكيف غاب بذلك الشهود فبذل النفس بتأدية فرض الزكاة ، وكيف صام عن كل السِّوى ، وعيده بعد الصوم في رؤية شيخه ، وهكذا الى آخر القصيدة . ولذلك وجدتني أثبتها كلها في كتابي هذا تمجيداً لتلك السياحة الروحية التي تحدث عنها الناظم ، وقد ألقاها بين يدي والدي رضي الله عنه في يوم عيد الأضحى ، وعندما وصل الى قوله

فأنا الذي بستارهـا متعلّقٌ وورثت سرّها في الوجود مكمّلِ

تقدم ومسّ أذيال سيدي الوالد وتمسّك بها ؛ كان هذا امام حشدٍ كبير من إخواننا وغيرهم ، فباركه سيدي الوالد ودعا له بالخير .

من مثل أحمد

مَنْ مثل احمد في الانام الأمثَلِ [1] | خير الورى ما القلب عنه بمُنْسَلِ
نورٌ تعيَّن قبل كل حقيقةٍ | وحقائق الأشياء عنه تنجلي
عرشٌ الى الرحمن بالوصف استوى | والرّفرف الأعلى المبرقع بالحُلي
والكرسي ، والقلم الذي صفحاته | لوح الوجود مفصَّل في مُجمل
هو حلّة الاسما التي وقفتْ على | أرجائها روحي بأشرف منزل
لي نِسبة حقًّا لدولة حسنها | مخطوبها المدعوُّ بالمزّمِّل
نسَبُ المحبة روح لطفٍ غرسُه | يسمو بنور الدين ذي القدر الجَلي
فصَلاة فرض الصبح في سبحاته | بشهود طلعته بِطور تنقُّل
تلك الصلاة حقيقةٌ لمقدّسٍ | وسواها في شرع الغرام تنفُّلي
يا فرضَ صوم العارفين تنسّكاً | وقفوا على سر الحديث « الصَّوْمُ لِي »
في الصوم سرٌّ ؛ دقّ معنى فهمه | عن غير طه الوقت أفضل مُرسَل
رمضان صومي اليوم عن كل السوى | والعيدُ بعد الصوم رؤياكم يلي
ما أحلى يوماً كان فيه لقاؤه | والناس بين مكبِّر ومهلّل
يا كعبةً حجّت لها أرواحنا | من قبل طينة آدم المتبتّل
أحْرمتُ في حجّي لنادي جمالها | وتركتُ اثواب السوى للعزّل
ووقفت في نُسكي على عرفاتها | جبل التعارف عنه لم أتحوّل
والروح مني سبعة طافت بها | وجنت ثمارَ الوصل بعد تفضُّل
ومن الصفا تسعى حقيقتي بالصفا | لبديع مَنْ يحلو عليه توكّلي
ويمين يُمن اليمْن ألقت في منىً | جمرات جمر الخوف عند تجلُّل
وذبحتُ ذبحَ الوهم مني صورة | بيد الخليل بحبه المتخلّل
ودخلت في حرم الحبيب محلّقاً | وسلكت نهجَ الجمع بعد تحلُّل
وبذلت منّي النفس تأدية له | فرْض الزكاة لها بغير تعلّل
يا مُنشد الألحان شنّف مسمعي | في حضرةٍ نبويةٍ بتجمّل

(١) نظم مريد والدي الشيخ رشيد سنان الدمشقي .

كرِّر من الدرَر البديعة منطِقاً بأعزّ ما يحلو ونغمــــة بُلبل
فأنا الذي بستارهــــا متعلــِّقٌ ووريثُ سرّها في الوجود مكمّل
هو مُرشـدي الحسنيّ يرعى عهودها التونسي تاجُ المـلاح هو العَـلي
يا حبّـــذا ذاكِ الوريث المجتَبى فرْد الزمان سليل أشرف مُرسل
غوثٌ سما أوجَ السما فطريقــه اسرار آيـات الكـتاب المـنزل
شمسُ الحقيقة كنز كل رقيقـةٍ طرْف العوازل كان عنه بمعـزل
أوصافه الحسنى بدَت مشهـودةً وصْف النـبيّ مـلاذ كل مؤمّل
فخزائن المولى لديـــه جزيـــلةٌ يُعطي بلا حـدٍّ عليه فعوّل
فالوقت راحٌ فاغتنم من راحـه راحِ المحبة من يد السـاقي المَلي
صهبـاء راحِ الحب نشوان بهـا تُجْلى بكأس اللطف للمتأهّـل
هذا الأخــير الأول المـيم التي خُتمت بعـيْنٍ نُوّعت بالهيكـل
هذا الأخير وإن يكن فزمانُه مسك تنافس فيه كل مفضّـل
لو أدركوا طرّاً زمان وجـوده خضعوا لعزّة وجهـــه بتهلّــل
وأنقـاد كلّ شاهـــدٌ لجنابـــه أن الامام اليشرطيّ هو الوَلي
فالكلُّ خطّـاب لطلعـة حُسنـه وهو العروس بكل شأن ينجلي
فبنوا العــليّ تعشّقت أرواحهم وردَت بحار الشوق أعذب منهل
يا جوهر الفرد الذي هو حُسنهم فأدمْ حياة الكل بالفرد العــلي
ثم الصـلاة عـــلى النبي وآله والصّحب أربابَ الشهود الكمّل
وعلى الذي يتـــلو بصدق مقاله مَن مِثل أحمد في المقام الأمثلِ

* * *

هذا وقد جــــاء الى – عكا – قائد كبير من قواد الجيشَ التركي العثماني ، يدعى – عثمان بك (اميرالاي طوبجي سيارة) – كان قائداً في بلاد اليمن قبل مجيئه – عكا – ، وكان يشرب الخمر مدمناً عليها ، وفي ذات ليلة رأى في منامه انه يدخل زاوية كبيرة فيها شيخ جليل وجماعة يذكرون الله في حلقة الذكر ، وبعد الانتهاء تقـــدم اليه ذلك الشيخ

الجليل يعظه وينصحه بترك الشراب ، وان يتوب عنه ويرجع الى الله بالعبادة والعمل الصالح . ثم يقول له : انت ولدي ، فلا ينبغي لك ان تشرب الخمر وانت منسوب إليّ ، واصبح القائد يفكر بالرؤيا وبالشيخ والتوبة ، لكنه لم يقو على ترك الشراب . وبعد ليالٍ عاد فرأى الرؤيا عينها وسمع الشيخ يعظه كما فعل في المرة الاولى ، فقال القائد : من انت يا سيدي ، واين مكانك ، وما هو اسمك ؟ قال الشيخ : انا علي نور الدين اليشرطي الشاذلي الموجود في – عكا – ، فما كان من الرجل إلا ان تاب وأناب وداوم على تأدية الفرائض والعمل الصالح . وبعد ستة اشهر جاء الأمر من القسطنطينية بنقله مع فرقته الى – عكا – ، وبمجرد وصوله سأل عن الشيخ الذي رآه في منامه ، فدلوه عليه . وعندما دخل الزاوية ووقع نظره على سيدي الوالد عرفه وعرف ثلاثة اشخاص من اخواننا ، كان قد رآهم في رؤياه ، وهم : الشيخ ابراهيم خريبة ، والشيخ محمد المغربي ، والمتجرد سعيد الحنبلي ، وكذلك رأى الزاوية كما رآها قبلًا في المنام ، فازداد إيماناً بقوة الظهور في ولاية شيخنا رضي الله عنه .

فأخذ عنه وانتسب اليه ، وسكن بيتاً من بيوت وقف الزاوية بجوارها ، وغدا من رجال الله العاملين ، فكان صواماً قواماً تقياً ورعاً متقشفاً وخادماً للفقراء والمسلمين ، وكان وجوده في عكا من نعم الله التي خص بها ابناء طريقتنا في ذلك العصر ، فقد شمل برعايته اخواننا الضباط والجنود ، فكان اباً روحياً لهم ، وعاش في هذه المدينة خمسة عشر عاماً ، وقد اجتمع مع الكثيرين من قواد الجيش في – عكا – ، الذين اخذوا عن سيدي الوالد ، من هؤلاء – القائمقام شريف بك – ، – ونسيب بك الاي اميني – ، وزيور باشا – ، وعبده افندي والد حلمي باشا ، وغيرهم ، فكانوا جميعهم يتعاونون ويتحدُون في خدمة الطريق وابنائه .

وكان الفريق – مصطفى رمزي باشا – قائداً أعلى للجيش في سائر انحاء فلسطين ، ومقر اقامته في – عكّا – ، وكان صاحب شخصية قوية بارزة ، ونفوذٍ فعّال في السياسة والادارة والقيادة ، ولم يكن شاذلياً او متصوفاً ، لكنه كان محباً لأهل الله يقدّس عظمة الولاية وروحانية التصوف والسادة الصوفية ، وخاصة سيدي الوالد . وقد قام بالواجب في خدمة ابناء طريقتنا واتباعها ومن ينتسب اليها على الوجه الاكمل . وكثيراً ما كان يسمح للضباط والجنود ، ان يحضروا حِلَق الذّكر في الزاوية في ليلتي الجمعة والاثنين ، وفي المواسم والاعياد – بعد تأديتهم الواجب الرسمي ، – فكان يمنحهم اجازة لتمضية تلك المناسبات السعيدة في الزاوية ، فيشتركون مع بقية الاخوان بالاحتفال بها .

وكنت ايام طفولتي ، اذهب الى القلعة والسُور ومراكز الجيش التي لا يدخلها غير القواد والضباط والجنود ، فتُفتح لي الأبواب ، وكان – مصطفى رمزي باشا – رحمه الله – شغوفاً بي ، شديد التعلق بزيارتي له ، فإن لم اذهب اليه صباح كل يوم ، يرسل – ياوره – الخاص يدعوني ، فأذهب صُحبة الرجل الذي يشرف على تربيتي إلى محل القيادة ، فيأخذني الباشا إلى – جنينة البلح – فأجلس معه في الحديقة امام بركة ماء تحيط بها الازهار والرياحين ، او يصطحبني معه لأشاهد ما يقوم به الجنود من استعراضٍ او تعليمٍ او غير ذلك ، وكان الكثيرون من اخواننا يرجونني ان اتوسط لديه بشئونهم ، فكان يتقبل ذلك برحابة صدر على كثرة الطلبات ، ولم يردّ لي طلباً .

وكان اخونا – محمد باشا اليوسف – متصرفاً في – عكا – قد تشرّف باخذ طريقتنا هو وأخوه – محمود بك – وكان عندما يمر امام باب الزاوية الشريفة في غدوه ورواحه الى مقر وظيفته في السراي ، يتجه بوجهه الى الزاوية ويسير منحرفاً حتى يتخطاها احتراماً وتعظيماً [1] .

(١) اذكر هذه الحادثة على سبيل المثال لتعظيم الحكام والعظماء له .

انتشار عاداتنا

في عكا واقتباس الناس اياها

ولم تكن لأسرة من الأسر القديمة او الحديثة في بلد من بلاد الله ، ما كان لآل - يشرط - من الحب والتقدير والاحترام في قلوب اهل - عكا - ليس من إخواننا فحسب ، بل من الذين لم يتشذلوا . وحتى بعد انتقال والدي رضي الله عنه الى جوار ربه ، فقد بقي الأهلون مداومين على العادات السابقة في الزاوية ، ومع الأسرة اليشرطية . ففي الأعياد يخرج معظم المصلّين من جامع الجزار ، ويأتون الى زاويتنا لزيارة ضريح شيخنا رضي الله عنه ، فيستمعون الى آي الذكر الحكيم من القراء ، ويشهدون حلقة الذكر التي تقام هناك بعد صلاة العيد ، وبعد ذلك يُدعون الى تناول الطعام في الزاوية ، فمنهم من يتقبل تلك الدعوة فيبادر ملبياً ، ومنهم من يعود الى بيته .

وكان أخونا العارف بالله ورسوله ، الشيخ إبراهيم الكنفاني ، تاجراً من اهل الاسباب ، فخصص في بيته غرفاً يستقبل فيها بعض إخواننا الزائرين من اهل - بيروت ، ودمشق ، وطرابلس - ، ينامون فيها للتخفيف عن الزاوية ايام المواسم ، وكثيراً ما كان يدعوهم لتناول الطعام في بيته . وقد اقتبس الاهلون في مدينة - عكا - بعض العادات عن اهل زاويتنا ، وحفظوا الشيء الكثير من اناشيدنا وموشحاتنا الصوفية ، فكانوا ينشدونها في الافراح ، وحين يتلون قصة المولد النبوي الشريف ، وفي زفّة العريس وهم يمشون في الشارع ، وهذه أنشودة من تلك الاناشيد أثبتها على سبيل المثال .

يا كوكب العصرِ يا نور بارينا لولاكَ لم يَسْرِ[1]
نور الهُدى فينا

ظَهَـــرتَ بالشرقِ تدعو إلى الحقّ ِ بالجَمعِ والفرقِ
نَــوّر مرائينـــا
هــوّاك افنـــاني عن كل إنسانِ جَمـالُكَ الداني
قد صار لي دينــا
حطّيْتُ أوزاري في بحرك الجاري بِسِرّكَ الساري
بالوصل داوينـــا
أطلّتْ عـلى القلبِ شمسٌ من الغرب فأثبَتَتْ قــربي
بـــين المحبينـــا
قد كُنت اهواهـا من قبل مجلاهـا والقلب ناجـــاها
في طُور سينينـا
يا قُطبنَا الخاتِمْ ۱ يا ابن ابي القاسم عُبَيْدُكَ الناظِمْ
يرجوك تمكينـــا
رَبِّ بلا حـــدِّ صلِّ عـلى الفردِ مُحمَّـــد المَهدي
خَتَم النبيّينـــا

وكثيراً ما كانوا يأتون بالعريس الى الزاوية ليلة زفافه ومعـه كافة المدعوين ، ثم تُقرأ قصة المولد النبوي الشريف تيمناً بعـــد صلاة العشاء الاخيرة وينشد المنشدون ، وبعد ذلك يخرجون وفي يد كل شاب منهـم شمعة تضيء ، ثم يمشون امام العريس في صفّـــين والمنشدون في الوسط يرتلون تلك الاناشيد ، حتى يصل العريس امام بيته ، فيقف احدهم ويقرأ الفاتحة ويدعو للعروسين بالسعادة والهناء .

وكذلك كانوا يحتفلون بختان اولادهم في زاويتنا ، ثم تقام حلقـــة الذكر مع الانشاد . وهنا لا بد من الايضاح وهو انه لم تكن لنا اعلام ولا طبول ولا مزاهر ، وإنما تدور حلق الذكر على الوزن الموسيقي بالالحان ، والنغمات ولا شيء غيرها اصلًا .

---

(۱) اشارة الى انه خاتم اقطاب سلسلة الطريقة .

(۲) للشيخ عبده الحمصي الدمشقي

منازل

السائرين في وحدة الشهود

بك مُهِّدَ كونيَ تمهيــدا ففدوتُ جميعي توحيدا ١

★

ان قيل بفرق او جمــعِ فأراك لساني مع سمعي ٢
واراك عطائي مـع منعي واراك بكلٍّ مشهــودا

★

ها وجْـه الحب لنا لاحا ومنادي الوصل بنا صاحا
وعبــير معارفنا فاحـــا والعــاذل اضحى مكمودا

★

قد لاح من القطر الغربي قمـــر يستغرق للقلب
فعرفت برؤيتـــه ربي اصبحت بأهـــلي مسعودا

★

والله بصحبتـــه فزنـــا وصراطَ الوهم بـــه جزنا
ومقامَ القرب لقـــد حزنا برضاه بلغنـــا المقصودا

★

يا ربِّ عـــلى السر الذاتي صلِّ بجميع الاوقـــات
من جـــاء لنـــا بالآيات وابعثـه مقامـــاً محمودا

* * *

ابيات في منازل السائرين نظمها الشيخ الاكبر سيدي محيي الدين بن عربي قدس الله سره :

ليس مـن لُوِّح بالوصـــل له كالذي ساروا به حتى وصلْ

(١) بمناسبة الحديث عن الفرق والجمع اثبت هذا النشيد للشيخ عبده الحمصي الدمشقي .
(٢) اشارة الى الحديث الشريف ، للبخاري .

لا ولا الواصل عندي كالذي قرع الباب وللدار دخلْ
لا ولا الداخل عندي كالذي سارَروه وهو للسر محل
لا ولا من ساروره كالذي صار إياهم فدع عنك العلل
فمحوه منه عنه فانمحى ثم لما أثبتوه لم يزل
ذاك شيء علق القلب به لو تجلّى منه للخلق قتل [1]

* * *

منازل السائرين

اما بعد ، فان سلوك الفقير الصوفي السائر في قطع مسافة النفس في المقامات والاحوال — اي — في معارج مدارج رقيه الروحي ، اما ان يكون بالترقي او التدلي ، سواء كان متجرداً في زاوية شيخه او سائحاً ، او من اهل الاسباب ، الذين يسعون للرزق ، ويعملون لدنياهم ويعيشون في بيوتهم .

وقد كثر الحديث والجدل ، حول هذه المنازل ، التي يقطعها السائر ، فهي كالمراحل للمسافر ، وقد زعم جماعة ان الشطح مقام [2] . وظن آخرون ان معنى الفناء عند القوم ، هو الانطلاق من القيود الشرعية ، وترك التمييز بين حقائق الاشياء واحكامها .

ولما كان هذا ليس بصحيح ، لذلك اورد طائفة من اقوال السادة الصوفية في شرح بعض منازل السائرين ، كمقام الحب الالهي ، والشهود ، والفناء ، والبقاء ، والفرق والجمع ، وجمع الجمع ، والفرق الثاني ، والوصول الى الله .

قال احد الكبراء من اهل المعرفة :

(١) قوانين الاشراق للشيخ جمال الدين محمد ابي المواهب ص ٧٩ .

(٢) الشطح عبارة عن كلمة عليها رائحة رعونة ودعوى ، وهو من زلات المحققين ، فانه دعوى بحق يفصح بها العارف عن غير اذن آلهي بطريق يشعر بالنباهة . من كتاب التعريفات للسيد الجرجاني ص ٨٦ .

ولما تجلّى من احبّ تكرماً وأشهدني ذاك الجناب المعظّما
تعرّف لي حتى تيقنت انني أراه بعيني جهرة لا توهّما
وفي كل حال اجتليه ولم يزل على طور قلبي حيث كنت مكلّما
وما هو في وصلي بمتصل ولا بمنفصل عني وحاشاه منهما
وما قدْر مثلي ان يحيط بمثله وأين الثرى من طلعة البدر إنما
اشاهده في صفو سرّي فأجتلي كمالاً تعالى عزّه ان يقسّما [1]

* * *

وقد أورد الامام السيوطي رضي الله عنه ، في كتابه ـ تأييد الحقيقة العلية ، بتشييد الطريقة الشاذلية ـ ، قول الشيخ قطب الدين القسطلاني رضي الله عنه فقال : « يظن جاهل بعلوم هذه الطائفة ، ان معنى الفناء هو ترك التمييز بين حقائق الاشياء واحكامها ، فتصير الموجودات كلهـا شيئاً واحداً ، وتبقى المخلوقات له موافقات ، فيبقى النهي عنده كالأمر لفنائه عن التمييز في الاحكام ، فان هذا المذهب معلول مدخول اليه من قصد تعطيل الشرائع وإبطال التكاليف وهو مذهب الاباحية ، وإنما المعنى فيه « اي في الفناء ، من انه فني عن اوصافه وملاحظات اغراضه ، وبقي باوصاف الحق ، فانه انما يفعل الاشياء لغيره لا لوجود استيفائه عن المنافع والمضار » [2] وقال ابراهيم بن شيبان : « الفناء والبقاء يدوران على خلاص الوحدانية وصحة العبودية ، وما كان غير ذلك فهو المغاليط والزندقة » [3] .

وقد اختلف جماعة من السادة الصوفية بتحديد عدد هذه المنازل ، فقال الشيخ ابو بكر الكتاني : (ان بين الحق والعبد الف مقام من النور والظلمة) وقال آخرون : ان هذا لكثير على الفقير السالك ،

---

(١) الابيات عن كتاب ايقاظ الهمم في شرح الحكم للشيخ ابن عجيبة ص ٥٣ .
(٢) تأييد الحقيقة العلية بتشييد الشاذلية للسيوطى ص٦٠ .
(٣) تأييد الحقيقة العلية للسيوطي ص ٦١ .

ولذلك جعلها شيخ الاسلام الامام الهروي مائة مقام تجمع الألف مقام للتخفيف عن السائر وقسّمها الى عشرة اقسام [1] .

الاول : قسم البدايات

اليقظة ، التوبة ، المحاسبة ، الانابة ، التفكر ، التذكر ، الاعتصام ، الفرار ، الرياضة ، السماع .

الثاني : قسم الأبواب

الحزن ، الخوف ، الاشفاق ، الخشوع ، الاخبات ، الزهد ، الورع ، التبتل ، الرجاء ، الرغبة .

الثالث : قسم المعاملات

الرعاية ، المراقبة ، الحرمة ، الاخلاص ، التهذيب ، الاستقامة ، التوكل ، التفويض ، الثقة ، التسليم .

الرابع : قسم الاخلاق

الصبر ، الرضاء ، الشكر ، الحياء ، الصدق ، الايثار ، الخُلُق ، التواضع ، الفتوَّةُ ، الانبساط .

الخامس : قسم الاصول

القصد ، العزم ، الارادة ، الادب ، اليقين ، الانس ، الذكر ، الفقر ، الغنى ، المراد .

السادس : قسم الادوية

الاحسان ، العلم ، الحكمة ، البصيرة ، الفراسة ، التعظيم ، الالهام ، السكينة ، الطمأنينة ، الهمّة .

السابع : قسم الاحوال

المحبة ، الغيرة ، الشوق ، القلق ، العطش ، الوجد ، الدهش ،

---

(١) منازل السائرين لشيخ الاسلام الهروي من ص ١ الى ص ٥ تلخيص .

الهيمان ، البرق ، الذوق .

الثامن : قسم الولايات

اللحظ ، الوقت ، الصفا ، السرور ، السرّ ، النفس ، الغربة ، الفرق ، الغيبة ، التمكن .

التاسع : قسم الحقائق

المكاشفة ، المشاهدة ، المعاينة ، الحياة ، القبض ، البسط ، السُّكر ، الصحو ، الاتصال ، الانفصال .

العاشر : قسم النهايات

المعرفة ، الفناء ، البقاء ، التحقيق ، التلبيس ، الوجود ، التجريد ، التفريد ، الجمع ، التوحيد ، انتهى .

* * *

طلعة المحبوبْ غاية المطلوبْ من رأى يدري والسّوى محجوبْ[1]
وجهه ظاهر باهر الاسلوب لوح نوراني بدا في الورى مكتوب

★

جلّ من أبدع سره المودع في جميع الكون فافتح المخدعْ
وافهم الاسرار لا تكن مغلوب لوح نوراني بدا في الورى مكتوب

★

ايها الحادي يمنة الوادي حسّن الانشاد انني صادي
واسأل الاحباب عن شبح مسلوب لوح نوراني بدا في الورى مكتوب

★

لاحتِ الانوار زادت الاطوار والفتى المشتاق صاحب الاسرار
وهو للعشاق كلهم يعسوب لوح نوراني بدا في الورى مكتوب

★

---

(١) من اناشيد الاذكار .

كل من يعرف قلبه يغرف من بحار العلم جهله يصرف
كاسه الملآن رائق المشروب لوح نوراني بدا في الورى مكتوب

★

يا اهيل الحي إن قلبي حي يا رفيقي قم لي حبيب حي
وارتشف خمري فهو ملء الكوب لوح نوراني بدا في الورى مكتوب

★

صلّ يا رحمن دائم الازمان للنبي المختار جاء بالقرآن
من له عبد للغني منسوب لوح نوراني بدا في الورى مكتوب[1]

* * *

وقد خالف الشيخ الهروي جماعة آخرون ، فجعلوها أقل مما ذكرت عدداً للتخفيف على السائر ، على انهم اجمعوا ان لكل مقام ثلاث مراتب : البداية ، والوسط ، والنهاية . قال سيدي الجنيد رضي الله عنه : « قد يُنقل العبد من حال الى حال أرفع ، وقد بقي عليه من التي نقل عنها بقية يشرف عليها من الحالة الثانية فيصححها » .[2]

وفي الحديث الشريف ، المروي عن ابي هريرة ، وهو مخرج في صحيح مسلم « قال : قال رسول الله ﷺ : (سِيروا سَبق المُفَرِّدُون) قيل يا رسول الله : وما المفردون ؟ قال : « المهتزّون الذينَ يهتزّون في ذِكْرِ الله . يَضَعُ الذِّكْرُ عَنْهُمْ أثْقَالَهُمْ فيأتُونَ يوْمَ ٱلقِيامَةِ خِفافاً » [3] .

وقد الف جماعة من اكابر السادة الصوفية ، الذين جمعوا بين العلم في الظاهر والباطن كتباً في منازل السائرين ، وكتباً في اصطلاحات الصوفية منها الاصطلاحات المذكورة في كتاب الفتوحات المكية ، للشيخ محي الدين بن عربي قدس الله سره ، ومنها كتاب التعريفات في اصطلاحات الصوفية

---

(١) ديوان الحقائق للشيخ عبد الغني النابلسي ص ٣١ .
(٢) منازل السائرين للشيخ الهروي ص ٣ .
(٣) منازل السائرين للشيخ الهروي ص ٤ .

السيد الجرجاني ، وقد رأيت ان اذكر بعض هـذه الاصطلاحات لزيادة الفائدة ، فالمقام عنـد السادة الصوفية هو (عبارة عن استيفاء حقـــوق المراسم) . [1] والحال (معنى يرد على القلب من غير تعمد ولا اجتلاب ، ولا اكتساب من طرب او حزن او قبض او بسط او هيئة ، ويزول بظهور آثار النفس سواء اعقبه المثل ام لا . فاذا دام صار ملكاً يسمى مقام) . وقيل : (الحال تغيير اوصاف العبد) .

مقام الحب الالهي : قال سيدي الجنيد رضي الله عنه : « المحبـــة افراط في الميل بلا نيل ، يعني ميل القلب إلى الرب وإلى ما امر به ، مما يدعو إلى القرب بلا امل عطاء ولا جزاء ذلك » [2]

وقد اجمع السادة الصوفية رضي الله عنهم بالاتفاق ، ان مقـام الحب الالهي من اسهل الطرق واقربهـا الى الله ، قال تعالى في كتـابه العزيز (يُحِبُّهُمْ ويُحِبُّونهُ) وهؤلاء على فريقين – منهم المحبون – ومنهـــم المحبوبون ، ويطلق على الفريق الثاني اسم المخطوبين ، والحب منه اليك ، ان يأخذك مـن نفسك ومن كل شيء ، ويجتبيك ، ويعلمك ، ويجعلك من المقربين الواصلين . قال شيخنا سيدي – علي وفا – قدس الله سره في هذا المعنى :

قد كنت احسب أن وصلكَ يُشترى بكرائم الامـوال والأربـــاحِ
وظننت جهـــلًا ان حبَّك هيّنٌ تفـنى عليـــه نفـــائس الارواح
حتى رأيتك تجتبي وتخصُّ مـــن تختـــاره بلطـــائف الامنـــاح
فعلمت انـك لا تنـــالُ بحيـلةٍ فلويتُ رأسي تحت طيّ جنـــاحي
وجعلت في عشّ الغرام إقـامتي فيه غدوّي دائمـــاً ورواحي [3]

(١) اصطلاحات الصوفية للشيخ محي الدين بن عربي ، نشرت في ذيل كتاب التعريفات للسيد الجرجاني ص ٣ وص ٥٥ .
(٢) تأييد الحقيقة العلية للسيوطي ص ٥٩ .
(٣) هذه الابيات عن شرح المباحث الاصلية لابن عجيبة ص ٧٦ ديوان سيدي علي وفا .

وقال احد الكبار من اهل المعرفة :

فلم يبق إلا الله لا ربٌّ غـــيره حبيبٌ لقلبٍ غاب عن كل مقصدِ
هنيئـاً لمن قد نال حُبّ حبيبـه وخـاض بترك الغير اكرم موردِ
نعـيمٌ بـلا حـدٍّ لديـه مُجـدَّدٌ على عدد الانفاس في كل مشهدِ [١]

وحدة الشهود

مقام الشهود : قال السيد الجرجاني في تعريفاته : « الشهـــود رؤية الحق بالحق » [٢] . وقد شرح الشيخ مصطفى نجـا مفتي بيروت ، قول السيد الجرجاني في كتابه كشف الاسرار فقال : « ذلك لأنـــه يشهدك تجلياته ، بسائر مخلوقاته ، لكن من غير حلول ولا مماسة ، ولا نوع من انواع التجسيم والتشبيه ، بل هو على ما هو عليه من التنزيه عما لا يليق به ، كما وقع لسيدنا موسى عليه الصلاة والسلام ، في تجليه سبحانه على النار التي رآها موسى عليه السلام في جانب الشجرة ، حيث سمع النداء : « إنـّي أنـَا أللهُ لا إلهَ إلاّ أنـَا فَاعْبُدْني » فلم ينكر موسى عليـــه السلام ، تجليه سبحانه في النار بل آمن وصدق » اهـ [٣] .

قال احد الكبراء من اهل المعرفة القدماء :

هـــذه أنوار ليلى قد بدت فلسلب العقـــل يا صاح تَهَيْ
فالفـــتى من سلبتْه جمـــلةً لا الذي تسلبـــه شيئاً فشَيْ
لا ترى في شمسها ظلَّ السوى فهي شمسٌ وهي ظلٌّ وهي فَيْ
وإذا الحسْن بدا فاسجـــد له فسجودُ الشكر فرضٌ يا أخَيْ

* * *

قال الشيخ قطب الدين القسطلاني رضي الله عنه : « شهود الحق أمر

(١) شرح ابن عجيبة على الحكم العطائية ص ٢٤٢ .
(٢) التعريفات للسيد الجرجاني ص ٨٧ .
(٣) كشف الاسرار للشيخ مصطفى نجا ص ٦٧ .

اعتباري معنوي وان المراد به إسقاط الغير عن درجة الاعتبار ، وانه في حيز التلاشي والاصفار ، وان المراد برؤية الله تعالى في كل شيء ، انه يسبق الى قلبه ذكر ربه عند رؤية كل شيء [1] .

وقال سيدي الجنيد رضي الله عنه : « المشاهدة على ثلاثة : مشاهدة من الرب ، ومشاهدة للرب ، ومشاهدة الرب . فالمشاهدة على ثلاث : مشاهدة الحق بالحق ، وهي نظر الوجدان بوجوه الاستدلال على وحدانية الذات ، ومشاهدة للحق ، وهي نظر الحق في قيام المصنوعات وتمام المبدعات وصيانتها عن الآفات ، ومشاهدة الحق قبل الاشياء ، ورؤيته قبل الاشياء ، وهي رؤية خالية عارية عن الوصف عالية عن الكشف [2] »

قال الشاعر الصوفي الكبير سيدي عمر بن الفارض رضي الله عنه :

تراه إن غاب عني كلُّ جارحة　　في كل معنى لطيف رائق بهجِ
في نغمة العود والناي الرخيم إذا　　تألقا بين ألحان من الهزج
وفي مسارح غزلان الخمائل في　　بُرد الاصائل والاصباح في البلج
وفي مساقط أنداء الغمام على　　بساط نورٌ من الازهار منتسج
وفي مساحب اذيال النسيم إذا　　أهدى إليَّ سُحيراً اطيب الارج
وفي التثاميَ ثغر الكأس مرتشفاً　　ريق المدامة في مستنزه فرج
لم أدر ما غربة الاوطان وهو معي　　وخاطري اين كنّا غير منزعجِ [3]

المقامات الثلاث التي يعول عليها بالسير والسلوك

وهي ، ا : مقام الفرق الاول ، هو مقام اهل الحجاب ، وما هم عليه من الوقوف مع الاسباب دون المسبب ، وهؤلاء يستدلون بالصنعة على الصانع . قال الشيخ محمود ابو الشامات : هو مقام الاغيار ، وما

(١) تأييد الحقيقة العلية للشيخ السيوطي ص ٥٩ .
(٢) تأييد الحقيقة العلية للشيخ السيوطي ص ٥٩ .
(٣) ديوان ابن الفارض ص ٩٨ .

هم عليه من شهود انفسهم ، وغيرها من الاشياء ووقوفهم عندها [1] .

الثاني : مقام الجمع .

هو مقام من غرفوا في بحار الاحدية ، ولم يشهدوا سوى ذات الله تعالى الاحدية ، التي هي كالبحـــار ، والنسبة هنا إلى اسم الله الاحد ، وقد اورد الشيخ مصطى نجا مفتي بيروت ، في كتابه كشف الاسرار ، كثيراً من اقوال السادة الصوفية من اهل هذا الشأن « منها ان البحـار الاحدية ، هي تجلي ذاتي ليس للاسماء ولا للصفـات فيه ظهور ولا لشيء من تأثيراتها ، فهي تقتضي محو الاكوان وبطلانها من حيث الظهور ، مع محو الاعيان واثباتها من حيث البطون » قال : « ومنها قولهم بلسان الاشارة ان الاحدية بحر بلا امواج ، ولكن الامواج المراد بها الاكوان كامنة فيه لا تظهر في هذا التجلي ، لأنها لو ظهرت لا تكون احدية ، بل تكون واحدية ، ويقال لصاحب الاحدية ، أي المتجلي عليه الحق عز وجل بالاحدية ، هو في مقام الفناء ، أي في عين الجمع المعبّر عنـــه بتجريد التوحيد ، فهي تجريد عن السوي ، وغيبة عن الآثار » اهـ [2] .

---

(١) الالهامات الالهية على شرح الوظيفة الشاذلية للشيخ محمود ابي الشامات الدمشقي ص ٣٨.

(٢) كشف الاسرار للشيخ مصطفى نجا مفتي بيروت ص ٩٣ .

وبمناسبة حديثي عن مقام الفناء اثبت هنا شعراً مترجماً عن اللغة الفارسية ، ترجمه والقاه باللغـــة الانجليزية الاستاذ احمد غلوش ، قال : « وقد اراد سيدي جلال الدين الرومي تصوير حالة الوصول الى الله بعد بلوغ مرتبة الفناء ، فكتب في كتابه المثنوي شعرا بالفارسية هذا معناه (توهم المحب انه فني في محبوبه ، فلما اهتدى الى بيته بعد طول السير والجهاد ، وقف بالباب ، فدق عليه يطلب الاذن في الدخول ، فسمع من الداخل صوتاً ينادي : من بالباب؟ فقال المحب: انا بالباب ، فقال الصوت داخل البيت : كلا . كلا . ان هذا البيت لا يسعني ويسع احدا سواي ، وظل الباب مغلقاً كما كان ، فأطرق المحب ملياً وعاود جهاده ، ثم رجع بعد عام يقرع الباب ، فعاد الصوت يسأل : من بالباب ؟ فقال ، انت انت الذي هنا ، وانت انت الذي هناك ، وانت وحدك ملء الوجود ولا وجود سواك. وهنا فتح الباب على مصراعيه ، فدلف منه المحب ليحظى بوصال الحبيب » قال الدكتور : وبهـــذه الصورة الشعرية الطريفة امكن للعارف جلال الدين ان يصور لنا كيف ان سلوك سبيل التصوف الحق ، ينيل النفس المتعطشة اقصى ما تصبو اليه من الرقي الروحي » ، اهـ (مجلة المقتطف الجزء الثاني من المجلد الثالث والتسعين) .

وقد وجدت في ديوان شيخنا مولاي علي وفا قدس الله سره بيتين يشيران الى هذا المعنى ، وهما :

الاقر تجريد الوجود عن الرتب حقاً فهذا لا تقيده الرتب
فاشهد فقيراً هكذا تشهد به أحدّية التجريد ما فيها ريب [1]

ومما ذكره الشيخ مصطفى نجا في كشف الاسرار « ان هذا التشبيه بالبحار بجامع الاحاطة والسعة في كل . كما قال سيدنا الشيخ عبد السلام بن مشيش قدس الله سره في الوظيفة الشاذلية « وزج بي في بحار الاحدية ، المحيطة في كل مركبة وبسيطة » اي السعة الذاتية ، المحيطة بالاشياء كلها . كما قال تعالى في كتابه العزيز : (ألا انه بكلّ شيء مُحيط) ه . [2]

وقال سيدنا علي وفا رضي الله عنه :

هو الحق المحيط بكل شيء هو الرحمن ذو العرش المجيد
هو المشهود في الاشياء يبدو فيخفيه الشهود عن الشهيد
هو العين العيان لكل غيب هو المقصود منْ بيت القصيد
جميع العالمين له ظلال سجود في القريب وفي البعيد
وهذا القدر في التحقيق كافٍ فكف النفس عن طلب المزيد [3]

* * *

والاحاطة باللغة ، الاحداق بالشيء من جميع جهاته ، والمراد بها هنا السعة الذاتية ، التي يلزم منها اضمحلال الاشياء وفنائها في نظر صاحب المشاهدة . قال الشيخ مصطفى نجا : « من شهد احدية ذاته تعالى لم يجد لنفسه ولا لغيره من الاكوان ثبوتاً ولا اثراً . بل يكون مستغرقاً فيها ، فلا يشهد في ظاهره وباطنه ظهوراً لسواها » اهـ [4] .

---

(١) ديوان سيدي علي وفا خط يد لم يطبع .
(٢) كشف الأسرار للشيخ مصطفى نجا ص ٩٣ .
(٣) ايقاظ الهمم لأبن عجيبة ص ٢٠٠ .
(٤) كشف الأسرار للشيخ مصطفى نجا مفتي بيروت ص ٩٣ .

وقد نبه الأئمة الصوفية على ان في مقام الجمع اخطار التوحيد ، (توحيد الاحدية) إذ يخشى على صاحبه من غلبة الروح عليه في تلك الغيبة ، كما وقع للحلاّج وغيره ، قال الشيخ محمود ابو الشامات : « يُخاف على السالك في هذا المقام ، ان يقع في اوحال التوحيد ، التي تطلق على اشياء كثيرة ، منها الكلام المجرد عن السمعيات ، فهذا أضرّ ما يكون على السالك ، والدعوى ، والاستقلال ، والانانية ، وكل ما يعيق الفقير عن اللحاق بربه » اه [1] . وقد اجمع السادة الصرفية ، ان هذا لعدم رسوخ القدم . قال شاعرنا الصوفي الكبير ابو الحسن الششتري الاندلسي رضي الله عنه :

فلا تلتفت في السير غيراً فكلّما سوى الله غيرٌ فاتخذْ ذكره حصنا
وكل مقامٍ لا تقم فيه إنه حجابٌ فجدّ السير ، واستنجد العوْنا
ومهما ترى كل المراتب تُجتلى عليك فحلْ عنها ففي مثلها حُلنا
وقل ليس لي في غير ذاتك مطلبٌ فلا صورةٌ تُجلى ولا طرفةٌ تُجنى [2]

* * *

وقد أورد الشيخ عبد الكريم القشيري ابو القاسم صاحب الرسالة القشيرية رضي الله عنه ، طائفة من عبارات الاشياخ في التوحيد . فقال : « التوحيد لغة هو الحكم بان الله واحد ، والعلم بان الشيء واحد ، ويقال وحّدته ، اي وصفته بالوحدانية ، كما يقال شجعته ، اي وصفته بالشجاعة [3] ، وسئل ذو النون المصري رضي الله عنه عن التوحيد فقال : « ان تعلم ان قدرة الله تعالى في الاشياء بلا مزاج ، وصنعه للأشياء بلا علاج ، وعلة كل شيء صنعه ، ولا علة لصنعه ، ومهما تصوّر في نفسك فالله عز وجل بخلافه ؛ وسئل الجنيد رضي الله عنه عن التوحيد ، وهو

(١) الالهامات الالهية للشيخ محمود ابي الشامات ص ٣٩ .
(٢) إيقاظ الهمم في شرح الحكم العطائية للشيخ ابن عجيبة .
(٣) كشف الاسرار للشيخ مصطفى نجا ص ٩٤ .

شيخ الطائفتين في عصره ، فقال : « التوحيد إفراد الموحد بتحقيق وحدانيته بكمال أحديته انه الواحد الذي لم يلد ولم يولد ، بنفي الاضداد ، والانداد ، والاشياء ، بلا تشبيه ولا تصوير ولا تمثيل « ليس كمثله شيء وهو السميع البصير [1] » وقال الشيخ مصطفى نجا وهو مفتي الطائفتين في عصره « التوحيد شرعاً إفراد المعبود بالعبادة مع اعتقاد وحدته ذاتاً وصفات ، او في اصطلاح اهل الحقيقة ، تجريد الذات الالهية عن كل ما يتصور في الافهام ، ويخيل في الاذهان اه [2] .

وقال احد الكبراء من اهل المعرفة رضي الله عنه :

لم يبق بيني وبين الحق تبياني ولا دليل ولا آيات برهان
هذا تجلي طلوع الحق نائرة قد ازهرت في تلاليها بسلطان
لا يعرف الحق إلا من يعرّفه لا يعرف القدمي المحدث الفاني
لا يستدل على الباري بصنعته رأيتمُ حدثاً ينبي عن ازمان
كان الدليل له منه اليه به من شاهد الحق في تنزيل فرقان
كان الدليل له منه به وله حقاً وجدناه بل علماً بتبيان
هذا وجودي وتشريحي ومعتقدي هذا توحد توحيدي وإيماني
هذا عبادة اهل الانفراد به ذوي المعارف في سر واعلان
هذا وجودُ وجودِ الواجدين له بني التجانس اصحابي وخلاني [3]

* * *

(١) سورة الشورى .
(٢) الرسالة القشيرية ص ١٣٥ .
(٣) من كتاب التعرف لمذاهب اهل التصوف تأليف الشيخ الكلاباذي ص٣٨ .
حدثني الدكتور فيليب حتي الاميركي اللبناني الجنسية في زيارته الأخيرة للبنان وهو من اكابر علماء التاريخ في هذا العصر واستاذ التاريخ في جامعة برنستون في الولايات المتحدة باميركا قال انه وزميل له في الجامعة ، قد اهتما وطبعا كتاب التعرف لمذاهب اهل التصوف تأليف الشيخ الكبير الكلاباذي ، في تلك الجامعة ، ولا ريب في ان هذا النسخة غير النسخة التي طبعت في مصر واخذت عنها .

مقام الفرق الثاني

هو مقام الوحدة الجامعة للأسماء والصفات ، وهو مقام المحققين الذين لا يرون الاكوان والأعيان إلا بعد مشاهدته تعالى ، ومشاهدة اسمائه وصفاته . قال خليفة رسول الله الصديق رضي الله عنه « ما رأيت شيئاً إلا ورأيت الله قبله » وقال العارفون : « إن الاكوان آثار الاسماء والصفات ، وتدل عليها كما قال تعالى في كتابه العزيز (سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وفي أنفسِهِم حتى يَتَبَيَّنَ لهم أنه الحَقُّ) [1] .

فالعارف المحقق يرى الله قبل آثاره ويستدل به عليها ، والمحجوب يراها قبله ويستدل بها عليه ، وهذا مقام خاصة الخاصة ، اهل الرسوخ والتمكين ، الذين كلما شربوا من خمر الحقيقة ازداد صحوهم ، وتجوهر عقلهم . ويقال لصاحب الوحدة ، هو في مقام البقاء [2] لكونه يرى قيام الحق على كل شيء ، فهي بحر والاشياء الكونية بأسرها امواج ، يقيمها البحر ويقعدها وكلها به قائمة [3] .

قال شاعرنا الصوفي الكبير سيدي عمر بن الفارض رضي الله عنه :

وقامت بها الاشياء ثم لحكمة بها احتجبت عن كل من لا له فهم [4]

ولسيدي الجنيد رضي الله عنه ، ابيات تشير الى الفرق والجمع حيث قال

وتحققتك في سر ي فناجاك لساني
فاجتمعنا لمعان وافترقنا لمعان
إن يكن غيبك التعظيم عن لحظ عياني
فلقد صيرك الوجد من الاحشاء داني [5]

(١) سورة فصلت .
(٢) البقاء رؤية العبد قيام الحق على كل شيء (اصطلاحات الصوفية في ذيل التعريفات للجرجاني ص ٤) وفي الرسالة القشيرية قيام الاوصاف المحمودة ص ٣١ .
(٣) ايقاظ الهمم لابن عجيبة ص ١٨٥ وكشف الاسرار للشيخ مصطفى نجا مفتي بيروت ص ٩٥ .
(٤) ديوان ابن الفارض ص ٩٥ .
(٥) ايقاظ الهمم لابن عجيبة ص ٣٦٣ .

ويُسمّى مقام البقاء بالجمع والفرق ، من حيث ان شهود العبد لربّه جمعه وشهوده لصنعه فرقه مع كمال الاستغراق فيه ، ويرى الشيخ مصطفى نجا ، مفتي بيروت ، : « أن هذا المقام هو المعبَّر عنه بجمع الجمع [1] حيث ذكر في كشف الأسرار ، قول جماعة من الاشياخ عن مقام جمع الجمع « وهو عبارة عن أخذ الحق عبده بعد فنائه فيُسكره [2] في شهود ذاته تعالى فيصير فانياً عن نفسه وعن السِّوى لكنه يُردُّ الى الصحو [3] عند اوقات الفرائض ، والقيام بأمور الخلق فيكون هذا الرجوع لله بالله » قال : « وهذا الرجوع يسمّى : الفرق الثاني ، وهو شهود قيام الخلق بالحق ، ورؤية الوحدة في الكثرة ، والكثرة في الوحدة من غير احتجابٍ بأحدهما عن الاخرى ، وهذه هي الولاية الكاملة » اه [4] .

وقال جماعة آخرون من اهل هذا الشأن : ان مقام الفرق الثاني غير مقام جمع الجمع . وإن عين الوحدة فوق المقامات . وهذه الرتبة مطمح شهود القُطب الغوث الاكبر كونه منزّه من ان ينحصر في وصف دون الآخر من حال إلى حال .

وقال الشيخ – محمود ابو الشامات – في كتابه الالهامات الالهية « السِّفر الرابع من أسفار العارفين هو سِفر الخَلق إلى الخَلْق بالمعرفة الكاملة والحقيقة الشاملة ، وهي النزول بظهور الآثار وانصياغها بوجود الواحد القهّار ، وهذا معنى قولهم ، النهايات رجوع البدايات ، ولا يفهم هذا السفر على مَا هو عليه إلا الوَرَثَة المحمديون ، أصحاب الارشاد ، فاما السفر الاول فهو من الخَلْق إلى الحق بالفناء عمّا سِواه سبحانه ،

---

(١) جمع الجمع ، في اصطلاحات الصوفية، للشيخ محي الدين بن عربي ، المنشورة في ذيل التعريفات للجرجاني ، هي الاستهلال بالكلية في الله ص ٤.

(٢) السكر غيبه بوارد قوي « اصطلاحات الصوفية » ص ٤.

(٣) الصحو : رجوع الى الاحساس بعد الغيبة – « اصطلاحات الصوفية » – للشيخ محي الدين ص ٤

(٤) كشف الأسرار للشيخ مصطفى نجا مفتي بيروت ص ٤١.

والثـاني من الحقّ الى الحـَق بالتحقق والتنزه عن الاكوان وصفاتهـــا بالكلية ، والثالث من الحـَقّ الى الخـَلق بالتنزّل في مراتب الاسماء الالهية والصفات الربانية ، وأما السفر الرابع الذي هو نهـــاية الاسفار ، فهو لواحد الزمان وفرد الأوان إنسان عَـيْن الأعيـان خليفة الرحمن في عـالم الامكان – محمد الوقت – الذي فيه قلت في رسالة المـُعَشّرات في حرف الميم » [1] .

محمدُ ألوقتِ عينٌ غير مُنقسمٍ   لهُ الظهورُ بحكمِ الوقت للأمَمِ
موسى وعيسى وتلك الرسل كلهمُ   همْ عينه بوجود اللهِ لا بِدَمِ
مظاهر الذات لا تعداد يلحقهـا   حقيقـة العَدّ بالأسماء للعِظَـم اهـ

ويرى السادة الصوفية رضي الله عنهم ، ان القول بالحلول كفر ، لأنه يقتضي حالاً ومحلولاً وتنزه الله عن ذلك . وعندهم ان الله سبحانه قائم على كل شيء ، والوجود قائم به ومظهر من مظاهره ، ويشبهون الاكوان في امواج البحر ، فالموجة لا يكون الماء حالاً بها لان لا وجود لها غير وجود الماء ، وإنما هي صور قائمة به .

وفي كتاب – الانسان الكامل – لسيدي عبد الكريم الجيلي ، رضي الله عنه تشبيه لطيف ، فقد شبه السر الالهي كماء الثلجة الذي في باطنها وبذلك يقول في قصيدته العينية الشهيرة :

وما الخلق في التمثال إلا كثلجةٍ   وانت بها المـاء الذي هو نابعُ
وما الثلج في تحقيقنا غير مائــه   وغَيران في حكمٍ دعته الشرائع
ولكن بذوب الثلج يرفـع حكمه   ويوضع حكم المـــاء والأمر واقعُ
تجمعت الاضداد في واحــد البها   وفيه تلاشت وهو عنهن ساطعُ [2]

ثم مثل الكون بصورة جبريل عليه السلام حين كان يتصور بصورة – دِحْيَة الكلبي – رضي الله عنه فقال :

(١) الالهامات الالهية للشيخ محمود ابي الشامات ص٣٥.
(٢) الانسان الكامل لسيدي عبد الكريم الجيلي ص٣٨ الجزء الاول.

تجليت بالتحقيق في كل صورة ففي كل شيء من جمالي لوامعُ
فما الكون في التمثال إلا ـ كدحية ـ تصور روحي فيه شكل مخادعُ [1]

وقال سيدي عمر ابن الفارض ، رضي الله عنه ، في الخمرة الازلية :

شربنا على ذكر الحبيب مدامــــة سكرنا بها من قبل ان يُخلق الكرم

ثم يسترسل قائلا :

لها البدر كأس ، وهي شمس يديرها هلال وكم تبـدو إذا مُزجت نجم

ويصفها فيقول :

يقولون لي صفها ، فأنت بوصفها خبير ، اجل عندي بأوصافها علمُ
صفاء ولا ماء ، ولطف ولا هواً ونور ولا نار ، وروح ولا جسم
تقدم كل الكائنات حديثها قديماً ولا شكل هناك ولا رسم

ويمضي فيقول :

وعنديَ منها نشوة قبل نشأتي معي ابداً تبقى وإن بليَ العظمُ [2]

* * *

ويرى سادتنا الصوفية رضوان الله عليهم ، ان الكائنات كلها تكثيف لاسرارها اللطيفة ، فلو ظهرت المعاني لاضمحلت الاواني ، وقد اشار سيدي عمر بن الفارض الى هذا بقوله :

ولطف الاواني في الحقيقة تابـع للطف المعاني والمعاني بها تسمو [3]

وقال الشاعر الصوفي الاندلسي الكبير ابو الحسن الشتري في احد ازجاله

لا تنظر الى الاواني وخض بحر المعـــاني لعلـــك تراني

ولهذا الشاعر العظيم نشيد رائع في هذا المعنى أثبته هنا :

لقد أنا شيءٌ عجيبٌ لمـــن رآني أنا المحب انا الحبيب مـا ثمَّ ثاني

★

(١) شرح الحكم العطائية لأبن عجيبة ص ٢٠٢
(٢) ديوان ابن الفارض ص ٩٤ .
(٣) ديوان ابن الفارض ص ٩٥ .

يا قاصداً عين الخبرْ غطّاه أينُـكْ أنظر لذاتك واعتبرْ ما ثمَّ غيرُكْ
ألخمر منك والخبرْ والسر عندكْ وأنت مرآة النظـرْ عـين العياني
وفيك يُطوى ما انتشرْ من الاواني

★

إسمع كلامي وانتبهْ إن كنت تفهمْ لأن كنزك قد عرَى عن كل طلسمْ
من هو المكلَّم والكليم عن طور الأفهام إسمع ندائي من قريبْ بلا آذانِ
فشمس ذاتي لا تغيبْ عن العيانِ

★

أنظر جمالي شاهداً في كل إنسانْ ألمـاء يجري نافـذاً في أسِّ الاغصان
يُسقى بماء واحدٍ والزهر ألوانْ أسجد لهيبة ذي الجلالْ عنـد التداني
ولتقرأ آيات الكتـابْ سبْع المثاني

✲ ✲ ✲

والوصول إلى الله تعالى لا يكون إلا بواسطة الحضرة المحمدية ، قال الله تعالى « قُلْ إن كنتمْ تُحبونَ الله فاتبعوني يُحببكم الله » وقـال جل وعلا : « ومَن يُطِـعِ الرسول فقد اطــاع الله : إن تُطيعوه تَهتدوا : وابتغوا إليهِ الوسيلة » [1] قال الشيخ مصطفى نجا « من شهد الوسيلة فقد شهد المقصد فالواصل الى حضرته ﷺ واصل الى ربه قطعاً بالاتفـــاق » وقال : « ان الله تبارك وتعالى جعل الحقيقة المحمدية واسطة لأيجاد مخلوقاته ، فالنبي ﷺ هو الحجاب الأعظم وهو حياة ارواح العوالم ، والارواح التي لا تشاهد ذلك ولا تدرك انه عين حياتها فهي من الاموات اهـ [2] .

وقد اجمع السادة الصوفية على ان الحقيقة المحمدية هي التعيُّن الاول ، الذي ظهرت منه النبوّة والرسالة والولاية ، ونشأت عنه جميع التعينـات ولأجل ذلك كان نبينـا محمد عليه الصلاة والسلام سيد الوجود واصل كل

(١) كشف الاسرار للشيخ مصطفى نجا مفتي بيروت ص٨٢ و ٨٣ و ٩٧ و ٩٨.
(٢) الفتوحات المكية للشيخ محي الدين بن عربي ص ٩٧ شرح القاشاني عـلى الفصوص للشيخ محي الدين بن عربي ص ٢٦٦ و ٢٦٧ .

موجود ، وهو اول الاولين وخـــاتم النبيين ، المختص بالاسم الاعظم الذاتي الذي لا يكون إلا له دون جميع الانبياء صلوات الله وسلامه عليهم من حيث انه المرجع الاصلي ، لجميع التعينات ، قـــال رسول الله ﷺ : « كنتُ نبياً وآدمُ بين الماء والطين » [1] .

قال السيد البكري رضي الله عنه :

قبضة النور من قـــديم أرتنا في جميع الشئون قبضاً وبسطا
وهي اصلٌ لكل اصل تبدّى بسطتْ فضلها على الكون بسطا
وهي وِتر قد أظهرت عدد الشفع بعـلمٍ فجـــلَّ حصراً وضبطا
ولَّدت شكلها فأنتج شكلا بشرياً أقـام للعـــدل قسطا
وهو عبدٌ قد حرّرته لديهـــا بيديهـــا وكم افـــاد وأعطى
حقّقته بحقهـــا فهو حـــقٌ جاء بالحق ينظِم الخلق سِمطا

ويمضي فيقول :

عالِمٌ عنـه آدمٌ عُلِّم السر وعِلمُ الأشياء رسماً وخطّا [2]

وقال سيدي ابراهيم الدسوقي رضي الله عنه :

يقولون لي ما العلم ما السر ما الذي هو الجوهر الغالي عن البحر خبّرنا
فقلت لهم هـــذي مطالـــع نورنا ومغربها فينـــا ومشرقها منـــا
على الدرة البيضاء [3] كان اجتماعنا ومن قبل خلق الخلق والعرش قد كنا

---

(١) لهذا الحديث شاهد من حديث ميسرة الفخري بلفظ «كنت نبياً وآدم بين الروح والجسد»، اخرجه احمد والبخاري في تاريخه وصححه الحاكم ، وقال السيوطي في الجـــامع الصغير حديث كنت نبياً وآدم بين الروح والجسد ، رواه ابن سلا عن عبد الله ابن شفيق عن ابي الجدعاء . ورواه قانع عن عبد الله ابن شفيق ، عن ابيه ، ورواه الطبراني في الكبير عن ابن عباس ، ورواه ابن سعد عن ميسرة الفخري .

حديث (كنت نبياً وآدم بين الماء والطين) استشهد به الشيخ مصطفى نجا واعتمده في كشف الاسرار ص ٦٢ ، وذكر حديثاً اخر فقال روي ان الله تبارك وتعالى قال لآدم عليه السلام ، لولا محمد ما خلقتك ولا خلقت سماء ولا ارضاً ، كشف الاسرار ص٦٣ .

(٢) ديوان الحقائق للشيخ عبد الغني النابلسي ص٢٠٩ .

(٣) الدرة البيضاء هي النور المحمدي المسمى بالحقيقة المحمدية المشتق عنها ما كان وما يكون .

تركنا البحـــار الزاخرات وراءنا فمن اين تدري الناس اين توجّهنا [1]

وقال البوصيري رضي الله عنه ، في بردة المدح :

وكل آي أتى الرسل الكرام بها فإنما اتصلت من نوره بهـــم
فإنه شمس فضل هم كواكبهـــا يُظهرن انوارها للناس في الظلم

* * *

وقال في الهمزية :

كيف ترقى رُقيك الأنبياء يا سماء ما طاولتها سمـــاءُ
لم يساووك في علاك وقد حا ل سناً منك دونهم وسناء
إنمـــا مثلوا صفاتـــك للنا س كما مثل النجوم المـــاء

* * *

ومضى يقول :

لك ذات العلوم من عالم الغيب ومنهـــا لآدم الاسمـــاء

*

وقال شيخنا سيدنا علي وفا قدس الله سره في مـدح النبي ﷺ من قصيدة مطولة :

قطب النُّهى غوث العوالم كلها أعلى عليٍّ سار احمد من حمـدْ
روح الوجود حياة من هو واجد لولاه ما تم الوجود لمن وجـد
عيسى وموسى والصدور جميعهم هم أعين هو نورها لمّا ورد
لو أبصر الشيطان طلعة وجهـه في وجه آدم كان اول من سجد
او لو رأى النمروذ نور جمـاله عبد الجليل مع الخليل وما عنَد
لكن جمال الله جلّ فلا يُرى إلا بتخصيص من الله الصمـــد

* * *

(١) ديوان الحقائق للشيخ عبد الغني النابلسي ص٢٧٧ .

المتجردون

حياة الفقراء في الزاوية

بدرُ المنى لمـــا دنا زال العنا يا اولي الألباب [1]

كونوا حزبنـا

★

يا هلالاً لاح من أم القرى نوّر العرش وأطباق الثرى

يا لقومي هل سمعتم في الورى مثله من يجعل الفقر غنى ؟ !

★

صار دهري كله فيه سرور وحباني بعـد غيبي بالحضور

نقطة الباء التي منها السطور ظهرت بعد الخفا في عصرنا

★

روّقت خمري بأقداح اليقين أزلاً قبل وجود العالمـــين

من شذاها صار كل العارفين يشهدون الحق في دار الفنا

★

أظهر الله بها كل المنـح مذ عليٌّ القدر للبـاب فتح

وعلينا قـد تجـــلى بالفرح بعد ما زال السوى من حيّنا

★

أشرقت من جانب الطور القديم أدهشت من نورها موسى الكليم

عاد منها كل شيء كالرمـيم ما بقي حيٌّ سواهـا عندنا

* * *

حياة الفقراء في الزاوية

وبعد ، فالفقـير الصوفي المنتسب الى طريق الله ، إما ان يكون في مقام التجريد او الأسباب . الأول : معناه الانقطاع الى الله عما سـواه ، الثاني : ان يسلك في الطريق وهو باقٍ على حاله يسعى الى الرزق ويعمل لأمور دنياه . ولهذا ينقسم الفقراء الصوفية ، الى فريقـين ، يجمعها السير والسلوك في طريق القوم تحت تربيـــة شيخ كامل من اهل الارشـــاد

(١) من اناشيد الاذكار وفي مجالس انس القوم بالله، للشيخ عبده الحمصي الدمشقي.

الوارثين . والمريد الداخل تحت تربية هذا الشيخ الكامل جميع مشاهده واحواله لا تكون إلا بمرآة شيخه وواسطته ، وهذا معنى قولهم إن الفناء على ثلاثة اقسام : الأول في الشيخ ، الثاني في الحقيقة المحمدية ، الثالث في الله عز وجل . فالسالك إذا ُكشف له عن حقيقةٍ ما من الحقائق المحمدية ، لا تنقطع الوساطة بينه وبين شيخه اصلاً . والمريد الموفّق السعيد ، هو الذي لا يغفل عن شيخه في حال من الأحوال ، ولا في مقام من المقامات .

قال سيدي الشيخ – محي الدين بن عربي – رضي الله عنه في كتابه الوصايا اليوسفية ، (يجب على المريد ان يعتقد في شيخه انه المتحكم فيه ، وأن الله تجلّى له في صورته كما قال تعالى في حق الرسول ﷺ : َمن أطاعَ الرّسولَ َفقد أطاعَ الله ، فان كل مخبر إذا لم يخبر عن نفسه واخبر عن غيره فإنه قد تجلّى لك في صورة ذلك الغير من حيث ما اخبر به ، وقد تجلّى ذلك الغير في صورته من حيث انه المترجَم عنه فهو القائل لا هذا المشافه بالخبر .) [1]

والحقيقة الانسانية عند محققي الصوفية ، هي اللطيفة المدركة الربانية المودعة في ذات الانسان ، وهي التي تميز بها النوع الانساني عن الحيوانات العجم ، ويقال لها النفس الناطقة ويعبر عنها بالنفس والروح والقلب والعقل والسر ، فجميع هذه الاسماء شي واحد ، واختلاف الاسماء لاختلاف الصفات فهي ان مالت الى النقائص كانت نفساً ، فان مالت الى الكمالات كانت روحاً وقلباً وعقلاً ، وان تخلصت وصفت وتمكنت من الكمال بذهاب آثار النقص ، كانت سراً ، وحينئذ تقوى على حمل الأسرار ، وتسطع على ذات صاحبها الانوار [2] . قال سيدي الشيخ ابن عجيبة رضي الله عنه : في – شرح المباحث الاصلية – « إذا تركت

(١) شرح الوظيفة الشاذلية للشيخ محمود ابي الشامات الدمشقي ص٢١.
(٢) كشف الاسرار للشيخ مصطفى نجا ص ٩٨ .

النفس من لوث الانوار ، وهو الوقوف مع المقامات او الالتفاتات والكرامات ، سميت سر السر »[1] . وقال ايضاً :

« إعلم ان تطورات الروح من النفس والعقل والقلب والروح والسر ، كل طور له حد ينتهي اليه في العلم والادراك ، اما النفس فحد علمها وادراكها زينة ظاهر الكون اغتراراً بمتعة ظاهرة ، وغفلة من عبرة باطنة ، واشتغالاً بحظوظها . واما العقل فحد علمه وادراكه التوجه الى خالقه بترك الاغيار وطلب الانوار ، فقد انطلق من العقال وشد في طلب مولاه الرحال ؛ واما الروح فحد علمها وادراكها مواجهة انوار الملكوت طالبة اسرار الجبروت قد استراحت من تعب السير ، لكنها لم تتمكن من السر ؛ واما السر فحد علمه وادراكه الجبروت نفذت البصيرة من الوقوف مع انوار الملكوت ، وهذا منتهى السير . قال تعالى : (وانَّ إلى رَبِّكَ المُنْتَهَى)[2] وفي هذا قال شيخنا سيدي ابو العباس المرسي قدس الله سره :

لو عاينتْ عينـاك يوم تزلزلتْ ارض النفوس ودُكَّت الاجبالُ
لرأيت شمس الحق يسطع نورها يوم التزلزل والرجال رجالُ »[3]

قالوا : « إن النفس وهي الروح ياقوتة رفيعة ، جعلها الله في صدف بشريَّتك ، فاذا صحبت الأبرار الأخيار ، فقد صنتها ورفعتها واعتنيت بها ، لأن مقام الشهود والوصول الى الله تعالى ، لا ينال إلا بصحبة فرد كامل أكمل ، والمراد بانها لا تنال على أكمل وجوهها ، وأتم شهودها ، وإلا فربما تُنال بطريق الجذب لشخص مجذوب لا يُنتفع به في الارشاد ، فوجود الشيخ الركن الأول في الطريق ، وعلوم القوم لا تؤخذ عن الكتب ، وانما تؤخذ عن الرجال . ولا بد للسالك من شيخ بصير يدلّه

(١) شرح المباحث الاصلية للشيخ ابن عجيبة ص ٢٢٠.
(٣) سورة النجم .
(٤) شرح المباحث الاصلية للشيخ ابن عجيبة ص ٥٩ .

على اللائق بصلاح احواله في مقام الاستقامة وقطع مسافة النفس ، قال شيخنا سيدي احمد زروق قدس الله سره « رب شخص ضره ما انتفع به غيره ، ويدل على ذلك اختلاف احوال الصحابة رضوان الله عليهم في اعمالهم ووصاياه ﷺ لهم ومعاملته معهم ، فقد نهى عبد الله بن عمر عن سرد الصوم ، وأقر عليه حمزة بن عمر الأسلمي ، وقال في ابن عمر : نعم الرجل لو كان يقوم في الليل . وأوصى ابا هريرة ان لا ينام على وتر . وامر ابا بكر برفع صوته وعمر بالاخفاء ، وتفقد علياً وفاطمة لصلاتهما في الليل وعائشة تعترض بين يديه لا يوقظها ، وأعلم معاذاً بان من قال لا إله إلا الله ، وجبت له الجنة ، وأمره بإخفاء ذلك على الناس ؛ وخص حُذيْفة بالسر وأسرّ لبعض الصحابة أذكاراً مع ترغيبه في العبادة عموماً . وهذه كلها تربية منه ﷺ ، في مقام الاستقامة . ومذهب الصوفي تابع لمذاهب السلف . وحكم التابع كحكم المتبوع فيما سبق فيه ، وإن كان المتبوع افضل »[1] ، ولهذا كان المريد يقتفي آثار شيخه ، ويتكمل بكماله حتى بعد انتقال الشيخ الى دار البقاء ، وإن عدم الاجتماع بالشيخ لا يوقف سيْر المريد ، ولا يقدح في محبته وصحبته لشيخه وانتسابه اليه . فنحن نحب صحابة رسول الله ﷺ ، والتابعين والأئمة المجتهدين وما رأيناهم ولا عاصرناهم وقد انتفعنا بأقوالهم واقتدينا بهم » ولكن من شرط طالب العلم في بدايته الاستماع والقبول ، ثم التصور والتفهم ، ثم التعليل والاستدلال ، ثم العمل والنشر . ومن قدم رتبته عن محلها حرم الوصول الى حقيقة العلم ، والعالِم بغير تحصيل مذلة ، ومحصّل دون تصوير لا عبرة به ، وصورة لا يحصنها الفهم لا يفيدها غيره ، وعلم عريّ عن الحجة لا ينشرح به الصدر ، وما لم ينتج فهو عقيم »[2] .

وقد اختلف السادة الصوفية في بذل علمهم لغير اهله ، فمن قائل :

---

(١) قواعد التصوف لسيدي الشيخ احمد زروق ص ٣٣ .

(٢) قواعد التصوف لسيدي الشيخ احمد زروق ص ١٤ .

لا يُبذَل إلا لأهله ، وهو مذهب الثوْري ، وغيره . ومن قائل : يُبذل لغيرهم ، ومذهب الجنيد رضي الله عنه ، أن العلم أسمى من ان يصل لغير اهله ، وقيل له : يسألك الرجلان عن المسألة الواحدة فتجيب هذا بخلاف ما تجيب الآخر ، فقال : «الجواب على قدر السائل . قال رسول الله ﷺ : « أمِرْتُ أن أخاطِبَ النّاسَ على قَدَرِ عقولِهِمْ » [1] وفي روايةٍ ثانية للترمذي : « أمِرْنا أن نكلِّمَ النّاسَ عَلى قَدَرِ عقولِهِم » [2] .

وقد كثرت اقوال السادة الصوفية في الصحبة وهم يرون ، ان في صحبة العارفين والجلوس بين أيديهم مدداً كبيراً للقلوب والأرواح ، لأن الأسرار غذاؤهم وشرابهم وفيه دواؤهم وشفاؤهم ، كلٌّ على قدر صدقه ومحبته وعلى قدر مقامه ومرتبته ، قد علم كل أناسٍ مشربهم .

« فالشيخ طبيب القلوب وأبو الأرواح ، وهو مفضّل على ابي الاشباح ، ويُشترط فيه ان يكون عارفاً بأدوية القلوب وأغذية الأرواح وأسقيتها ، عالماً بمنافع الأذكار وأذواقها ، ونتائج الأفكار ومعارفها . فالأذكار كالأغذية للقلوب ، والعلوم كالأسقية لها ، والمذاكرة كالأغذية للأرواح والفكرة والنظرة كالأسقية لها ، والشيخ يعطي المريد حسب القابل والاستعداد ، ولا بد ان يكون عند ذلك الشيخ دين الانبياء بالاتباع وتدبير الاطباء وسياسة الملوك ، وحينئذ يقال له استاذ . ويُشترط فيه ايضاً ان يكون عارفاً بالخواطر النفسانية والشيطانية والملكية والربّانية ، وبالمقاصد السنية والدُنية ، والهمم العالية ، فيعالج المُريد من الاخلاط بجمع قلبه على الله ، والغيبة عمن سواه ، والفناء التام ، وتفرّغ القلب على الدوام ، ويعالجه من المقاصد الدنية ، كحبّ الحظوظ والحروف ، بالدّلالة على تحقيق العبودية ، والقيام بوظائف الربوبية ، وهو مطلب

---

(١) قواعد التصوف لسيدي الشيخ احمد زروق ص ٨ و ٩

العارفين . » [1]

قال جماعة من العارفين : « لا بد للشيخ ان يَرِضَ العـلوم ، أي ان يتمهّر فيها حتى تصير طوع يده ليكون في اموره على بيّنـــة من ربه ، ويعلم الموجود الحقيقي وهو واجب الوجود ، والمعدوم الحقيقي ، وهو ما سوى الله ، وأن يكون في ابتداء أمره فقيهاً اذ لا يحل لامرىء ان يُقدم على أمر حتى يعلم حكم الله فيه ، وأن يعلم سائر الأحكام ليفرّق بين ما يحلّ وما يحرم عليه ، وان يدري حدود الاشيـــاء ورسومها في المنطق والأصول ، والمراد هنا اصول الفقه .

كمعرفة الواجب والمندوب والمكروه والحرام والخـــاص والعام ، والقياس والاجماع وغير ذلك مما هو مقرر في فن الاصول ، وان يعلم اللسان وهو علم العربية والتصريف واللغة والبيان والمعاني ، وان يدري معاني الذكر الحكـــيم اي التفسير ليتمكن من التدبر فيه ، وان يعلم حديث رسول الله ﷺ ، إذ التصوف مبني على الكتاب والسنّة وإلهامات العارفين المؤيدة بها » [2] قال الجنيد رضي الله عنه : « علمنـا هذا مؤيد بالكتاب والسنّة ، فمن لم يكتب الحديث ويجالس العلماء لا يُقتدى به في هذا الشأن . وقال : من لم يكتب الحديث ويجالس العلمـــاء ويتأدب بأدب المتأدبين ، افسد من اتّبعه » فان قيل كيف هذا ، وقد كان من رجال الطريق وأئمّة التصوف أفراد كمّل أميُّون ؟ والجواب في الآيـة الكريمة « واتقوا الله ويعلّمكم الله » . فهذا شيخنا سيدي – محمد وفا – بحر الصفا من اقطاب سلسلة طريقتنا العليّة ، كان أمياً وهو صاحب – كتاب الأنفاس – وكتاب العروش – وكتاب فصول الحقائق وكتاب الشعائر – والتائيّة الكبرى – وله ديوان ضخم في الموشحات والأناشيد الصوفية ، وله كلام عالٍ في علوم القوم ، وكان سيدي – علي الخوّاص – الذي تلقى عنه

(١) شرح المباحث الاصلية لأبن عجيبه ص ١٨٣ و ١٨٤ .

(٢) مقتبس من شرح المباحث الاصلية لأبن عجيبة من ص١٧٦ و ١٧٩ و ١٨٤ .

مريده سيدي – عبد الوهاب الشعراني – كتاب الجواهر والدر الكبير – وكتاب الجواهر والدُّرر الثاني – وكتاب درر الغوّاص على فتاوي الخواص – كان أمياً .

وكان سيدي – عبد العزيز الدّبّاغ – أميّاً وهو صاحب كتاب – الابريز – ، وكثير ممن علمهم الله وُخرقت لهم العادات ، اولئك الذين انعم الله عليهم من فضله ، والله يرزق من يشاء بغير حساب .

ولكن لا ينبغي لنا ان نجعل هؤلاء السادة الذين علمهم الله مقياساً لغيرهم من الشيوخ الأميين ، هؤلاء السادة الافراد الكُمّل من فحول الرجال وأئمة الطريق حتى ان معظم الفقهاء في عصر كل واحد منهم ، كانوا يجلسون بين ايديهم جلسة المستفيد ، يتلقون عنهم نفعنا الله بهم وباقوالهم ، إذن لا بد للعارف في بدايته ان يأخذ ما يحتاج اليه من العلم الظاهر وقد يتبحَّر فيه ، ثم ينتقل إلى العمل على اكمل حال ، وإلا فلا عبرة بمعرفته إن لم يعبُد معروفه ثم يزيد عليها بوراثة الاخلاق التي كان عليها باطن رسول الله ﷺ ، من زهد وورع ، وخوف ورجاء وصبر وحلم وكرم ، وشجاعة وقناعة وتواضع وتوكل ومحبة ومعرفة ، وغير ذلك مما يطول ذكره » [1] ، ولهذا قالوا : « الناس على ثلاث : عالم ، وعابد ، وعارف ، فالعالم ورث اقوال رسول الله ﷺ ، تعلماً وتعليماً بشرط اخلاصه ، وان لا يجعل علمه غاية لدنياه ، وإلا خرج من الوراثة بالكلية . والعابد ورث افعاله ﷺ ، من صيام ، وقيام ، ومجاهدة ظاهرة ، فقد قام رسول الله ﷺ الى ان تورمت قدماه الشريفتان ، وكان يصوم كثيراً ويفطر كذلك ، والعارف الصوفيّ ورث الجميع ، فهو عالم ، وعابد ، وعارف ، فقد جمع بين العلم والعمل والحقيقة والمعرفة ، وقد اجمعوا على انه لن ينال احد من العلماء والعباد والصوفية من علمه ﷺ او عمله او خلقه إلا رشفة او رشة ، فقد اختص

(١) قواعد التصوف لسيدي احمد زروق ص ٦ .

رسول الله ﷺ بخصائص لم يشاركه فيها احد ، فكان على مقـــام لا يدرك ولا يلحق ولا يعرف ، قال شيخنـــا وإمامنا الأكبر سيدي – عبد السلام بن مشيش – رضي الله عنه في الوظيفة الشاذلية : (وفيه ارْتَقَتِ الحقائِق وتَنزّلتْ عُلومُ آدمَ فأعْجَزَ الخلائِق ، ولهُ تَضاءلتِ الفُهُوم فلم يُدْرِكْهُ مِنّا سَابِق ولا لاحِق) وقال شـــاعرنا الصوفي الكبير سيدي البوصيري رضي الله عنه في بردة المدح : [1]

وكلهم من رسول الله ملتمس غرفاً من البحر او رشفاً من الديمِ
وواقفون لديه عنـد حـــدهم من نقطة العلم او من شكلة الحكمِ [2]

ولهذا كان الاقبال على الانتساب الى اقطاب سلسلة طريقتنا الشريفة، الوارثين في كل عصر من العصور عظيماً ، سواء كان الفقير المنتسب من اهل التجريد او الاسباب .

وينقسم أهل الأسباب الى ثلاثة أقسام :

منهم الذين يسعون الرزق في بلادهم ، ويزورون الشيخ فيأتون من بلاد شتى ومن قبائل شتى ، ثم يعودون الى اوطـــانهم واعمالهم ، ومنهم الذين يعملون لدنياهم ويعيشون بجواره من سكان المدينة ، ومنهم الفقراء الذين هاجروا ليكونوا على مقربة من الشيخ ثم اوجدوا لأنفسهم عملاً في تلك المدينة .

اما الذين اقامهم مولاهم سبحانه وتعالى في مقـــام التجريد ، فهؤلاء يعيشون في الزاوية بين يدي الشيخ لا يلتفتون الى الدنيا ، بعد انقطاعهم الى الله عز وجل ، وقد كان في زاويتنا عدد كبير من هؤلاء المتجردين المنقطعين إليه جل وعلا ، من طبقات متفاوتة ، واجناس مختلفة منهـــم العربي ، والتركي ، والمغربي ، والهندي ، والفارسي ، والسوداني ، كانوا

(١) شرح المباحث الاصلية للشيخ ابن عجيبة ص ١٠٠ و ١٠١
(٢) من قصيدة البردة .

اخوة بالله في الطريق ظاهراً باطناً ، على منهاج الشرع الشريف المحمدي ، بتهذيب النفوس وصقل الطبـاع ، وانكار الذات ، والاستغراق بشهود ذات الله تعالى ، كما قيل :

قـومٌ همومُهم بالله قد علقتْ ... فما لهم هِممٌ تسمو عـلى أحدِ
فمطلب القوم مولاهم وسيدهم ... يا حُسن مطلبهم الواحد الصّمد
ما ان تنازعهم دنيا ولا شرفٌ ... من المطـــاعم واللذات والولد
ولا للبس ثيابٍ فائقٍ أنِقٍ ... ولا لروح سرورٍ حلّ في بلد
إلا مُسارعـةٌ في إثر منزلةٍ ... قد قارب الخطو فيها باعدُ الأبد
فهم رهـــائن غدران وأودية ... وفي الشوامخ تلقاهم مع العدد [1]

* * *

هلال الهدى قد لاح ... فبادر ذوي الدينِ [2]
صبوت بـه يا صاح ... من قبـــل تكويني

★

تجلّى على الاكوان ... عيانـــاً بـلا سترِ
يا ربّـة العرفـــان ... ها ليـــلة القـدر

★

عبير الحمى قد فـاح ... من جـانب الغربِ
صرنا بـــه ارواح ... من عـــالم الغيب

★

لولا العلى ما كان ... فـؤادي يناجيـــني
يا ربـــة العرفان ... للقـرب ناديـــني

★

نسـيم الصَّبـــا بالله ... ان جئتَ خـــلاّني
قل يا أُهيل الجـــاه ... رفقـــاً بولهـــان

(١) الابيات من كتاب التعرف للكلاباذي لم يذكر المؤلف اسم ناظمها ص ١٠ .
(٢) من اناشيد مجالس القوم للشيخ عبده الحمصي الدمشقي.

صلاة من الغفّار حُلاها من الجوهر
على معدن الاسرار من للهدى اظهر

★

محمد ضيا الأبصار من خُص بالكوثر
مدى الدهر في (الـ اسحار) ما ربُّنا يُذكر

★

كذا آله الاخيارْ واصحابه تنشر
خصوصاً رفيق الغار صديقه الاكبر

اوراد

الطريقة الشاذلية اليشرطية

اوراد الطريقة الشاذلية اليشرطية

●

يجب على كل منتسب الى الطريقة الشاذلية اليشرطية ، تلاوة اوراد الطريق صبحاً ومساءً بعد صلاة الفجر ، وبعد صلاة المغرب ، وهي (استغفر الله العظيم الذي لا اله إلا هو الحيّ القيُّوم واتوب اليه) مائة مرة ، والصلاة على النبي وآله وصحبه مائة مرة ، وقول : لا اله إلا الله مائة مرة ، وتختم بقول محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وتُتلى الوظيفة الشاذلية المسماة بالورد الكبير في كل يوم مرتين بعد صلاة الصبح ، وبعد صلاة العشاء الاخيرة عملًا بحكم الآية الكريمة (واصبِرْ نفسَكَ مع الذين يدعون ربَّهم بالغَداةِ والعشيّ يريدون وجهه) وقد سماها سيدنا الشيخ ابو الحسن الشاذلي قدس الله سره : صلاة الفتح : وهي الصلاة الممزوجة . الأصل منها لسيدنا الفرد الكامل الشيخ عبد السلام بن مشيش قدس الله سره ، والمزج لسيدنا الفرد الكامل الشيخ ابي احمد العربي الدرقاوي قدس الله سره . اما الآيات والسور وترتيبها على هذا النسق فهو مأخوذ عن : — سفينة النجا لمن التجا — لسيدنا الفرد الكامل الشيخ (احمد زروق) قدس الله سره ، ولن يتم سير الفقير وسلوكه في مراتب الكمال ولن يحصل له الفتح المبين ، بدون تلاوتها صبحاً ومساءً اما ان يتلوها وحده او جماعة . والمداومة على ذلك بلا انقطاع طول ايام حياته وهي :

الوظيفة الشاذلية اليشرطية

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

بسم الله الرحمن الرحيم

اللهمّ صلّ وسلّمْ بجميع الشئون في الظهور والبطون على من منه انشقت الأسرار الكامنة في ذاته العليــة ظهوراً ، وانفَلقَتِ الأنوار المنطوية في سمـاء صفاته السنيّة بدوراً ، وفيه ارتقت الحقائق منه اليه ، وتنزّلتْ علوم آدم به فيه عليه ، فأعْجَزَ كُلاًّ من الخلائق فَهماً ما أُودِع منَ السر فيه ، وله تضــاءلت الفهوم وكلٌّ عَجْزُهُ يكفيه ، فذالك السر المصون لم يدركه مِنا سابق في وجوده ، ولا يَبلُغْه لاحق على سوابق شهوده ، فاعظم به من نبيٍّ رياض المُلْكِ والملكوت بزهر جماله الزاهر مؤنِقَة ، وحياض معـــالم الجبروت بفيض انوار سره الباهرة متدفقة ، ولا شيء إلا وهو به منوط ، وبسرّه الساري محوط ، إذ لولا الواسطة في كل صعود وهبوط لذهب كما قيل الموسوط ، صَلاةً تليق بك منك اليه ، وتتوارد بتوارد الخلق الجديد والفيض المديد عليه ، وسلاماً يجاري هذه الصلاة فيضه وفضــله كما هو اهله ، وعلى آله شُمُوس سماء العلا ، واصحابه والتابعين ومن تلا ، اللهم انه سرُّك الجامــع لكل الأسرار ، ونورك الواسع لجميع الأنوار ، ودليلك الدّالُّ بك عليك ، وقائد ركب عوالمك اليك ، وحجابك الأعظم القــائم لك بين يديك ، فلا يصِل

واصل إلا الى حضرته المانعة ، ولا يهتدي حـــائر إلا بانواره اللامعة ، اللهم ألحقني بنسبه الروحي ، وحققني بِحَسَبِه السُّبُّوحي ، وعرفني إياه معرفة اشهد بها محيّاه ، واصير بها مجْلاهُ كما يحبه ويرضاه ، واسلم بها من ورود موارد الجهل بعوارفه ، واكرع بهـــا من موارد الفضل بمعارفه ، واحملني على نجائب لطفك وركائب حنانك وعطفك ، وسر بي في سبيله القويم وصراطـــه المستقيم ، الى حضرته المتصلة بحضرتك القدسية ، المتَبَلّجة بِتَجَليات محاسنه الإنسيّة ، حملًا محفوفاً بجنود نصرتك مصحوباً بعوالم اسرتك ، واقذف بي على الباطل بأنواعه في جميع بقاعه ، فأدمغه بالحق على الوجه الأحق ، وزجّ بي في بحـــار الأحدية المحيطة ، بكل مُرَكَّبَةٍ وبسيطة ، وانشلني من اوحال التوحيد الى فضاء التفريد ، المنزّه عن الاطلاق والتقييد ، واغرقني في عين بحر الوحدة شهوداً ، حتى لا ارى ولا اسمع ولا اجـــد ولا احس إلا بها نزولاً وصعوداً ، كما هو كذلك لم يزلْ وجوداً ، واجعل اللهم ذلك لديه ممدوحاً وعندك محموداً ، واجعل اللهم الحجـــاب الاعظم حياة روحي كشفاً وعياناً ، إذ الأمر كذلك رحمةً منك وحناناً ، واجعل اللهم روحه سر حقيقتي ذوقاً وحالاً وحقيقته جامع عوالمي في مجامع معالمي حالاً ومآلاً ، وحققني بذلك على ما هنالك بتحقيق الحق الاول والآخر والظاهر والباطن ، يا اول فليس قبلك شيء ، يا آخر فليس بعدك شيء ، يا ظاهر فليس فوقك شيء ، يا باطن فليس دونك شيء ، اسمع ندائي في بقائي وفنائي بما سمعت به نداء عبدك زكريا ، واجعلني عنك راضياً وعندك مَرْضياً ، وانصرني بك لك على عوالم الجنّ والانس والملَك ، وايّدني بك الك بتأييد من سلك فملك ومن ملك فسلك ، واجمع بيني وبينك وازل عن العين غَيْنَك ، وحُلْ بيني وبين غيرك ، واجعلني من ائمة خيرك وميْرك ، الله ، الله ، الله ، الله منه بُدِيء الأمر ، الله الأمر اليه يعـــود ، الله واجب الوجود وما سواه مفقود ، ان الذي فرض عليك القرآن لرادُّك الى مَعاد ، في كل اقتراب

وابتعاد وانتهاض واقتعاد ، ربنا آتنـــا من لدنك رحمة وهيء لنا من امرنا رشداً ، واجعلنا ممن اهتدى بك فهدى حتى لا يقـــع منا نظر إلا عليك ، ولا يسير بنا وطر إلا اليك ، وسر بنا في معارج مدارج ان الله وملائكته يصلون على النبي ، يا ايهـا الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليمـــاً ، اللهم فَصَلِّ وسَلِّمْ منّـــا عليه افضل الصـــلاة واكمل التسليم ، فإنا لا نقْدرُ قدره العظيم ولا ندرك ما يليق به من الاحترام والتعظيم ، صلواتُ الله وسلامه وتحياته ورحمته وبركاته عـــلى سيدنا محمد عبدك ونبيّك ورسولك النبي الاميّ وعلى آله وصحبه عددَ الشفع والوَتر وعدد كلمات ربنا التّامّات المباركات ، اعوذ بكلمـات الله التّامّات من شر ما خلق ، أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق ، اعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق ، تَحَصَّنْتُ بذي العزَّة والجبروت واْعتصمتُ بربّ الملكوت ، وتوكلتُ على الحي الذي لا يموت ، إصرف عنا الأذى انك على كل شيء قدير ، إصرف عنا الاذى انك على كل شيء قدير ، إصرف عنا الاذى إنك على كل شيء قدير ، تَحَصَّنْتُ بذي العـــزة والجبروت واْعتصمتُ برب الملكوت ، وتوكلت على الحي الذي لا يموت ، إصرف عنا الأذى انك على كل شيء قدير ، إصرف عنا الأذى انك على كل شيء قدير ، إصرف عنا الأذى انك على كل شيء قدير ، تحصنتُ بذي العزة واْلجبروت ، واعتصمت برب الملكوت وتوكلت على الحي الذي لا يموت ، إصرف عنا الاذى انك على كل شيء قدير ، إصرف عنا الاذى انك على كل شيء قدير ، إصرف عنـا الاذى انك على كل شيء قدير .

بسم الله الذي لا يضُرُّ مع اسمه شيء في الارض ولا في السماء وهو السَّميع العليم ، بسم الله الذي لا يضُرُّ مع اسمه شيء في الارض ولا في السماء وهو السميع العليم ، بسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم ، حسبُنا الله ونِعم الوكيل ، حسبنا الله ونعم الوكيل ، حسبنا الله ونعم الوكيل ، لا حولَ ولا قوّة إلا بالله

العليّ العظيم ، لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، اللهم صلّ على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ، اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ، اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ، فَسَيَكْفِيكَهُمُ الله وهو السميع العليم ، فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم ، فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم ، فالله خيرٌ حافظاً وهو أرْحمُ الراحمين ، فالله خيرٌ حافظاً وهو ارحم الراحمين ، فالله خيرٌ حافظاً وهو ارحم الراحمين ، ربنا آتنا من لَدُنْكَ رحمة وَهيّءْ لنا من أمرنا رَشَداً ، ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيء لنا من امرنا رشداً ، ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيء لنا من أمرنا رشداً ، وأُفوّضُ أمري الى الله ، إن الله بصير بالعباد ، وأفوض أمري الى الله ، إن الله بصير بالعباد ، وأفوض أمري الى الله ، إن الله بصير بالعباد ، الله لا إله إلا هوَ الحيُّ القيُّومُ لا تَأخُذُه سِنَةً ولا نوم له ما في السموات وما في الأرض ، من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء وسع كرسيُّه السموات والأرض ولا يَؤُدُهُ حِفْظُهُما وهو العلي العظيم ، شهد الله انه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائماً بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم ، إن الدين عند الله الاسلام ، قُلِ اللهم مالكَ الملك تُؤْتي الملك من تشاء وتنزِعُ الملك ممن تشاء وتُعِزُّ من تشاء وتذلُّ من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير ، تولج الليل في النهار وتولج النهار في الليل وتُخرجُ الحيَّ من الميّت وتخرج الميْتَ من الحيّ وتَرْزُقُ من تشاء بغير حساب لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عَنِتُّمْ حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم ، فإن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ الله لا إله إلا هو عليه توكلتُ وهو ربُّ العرش العظيم ، فإن تولّوا فقل حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم ، فإن تولوا فقل حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم .

بسم الله الرحمن الرحيم

أَلَمْ نشرَحَ لك صدركَ ، ووضَعْنا عنكَ وِزرَكَ ، ألذي أنقَضَ ظهركَ ، ورفعنا لك ذِكركَ ، فإن مع العُسر يُسراً ، إنَّ مع العُسر يسراً ، فإذا فرَغْتَ فانْصَبْ وإلى رَبِّك فارغب ،

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

إنَّا أنزلناه في ليلةِ القدرِ ، وما أدْريكَ ما ليلةُ القدر ، ليلةُ القدر خيرٌ من ألفِ شهر ، تَنَزَّلُ الملائكة والروحُ فيها ، بإذن ربِّهمْ مِن كلِّ أمرٍ سلامٌ ، هيَ حتَّى مطلع الفجر .

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

لايلافِ قُرَيْشٍ ، إيلافِهِمْ رحلةَ الشتــاء والصَّيف ، فليعبُدُوا ربَّ هــذا البيْتِ ، الذي أطعَمَهُمْ مِن جوعٍ (وآمَنَهُمْ مِن خوفٍ) (ثلاثاً) .

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

قُلْ هوَ اللهُ أحَدٌ ، اللهُ الصَّمَدُ ، لم يَلِد ولم يولد ، ولم يكُن له كُفُواً أحدٌ ، (ثلاثا) .

* * *

بسم الله الرحمن الرحم

قُلْ أعوذُ بِرَبِّ ألفَلَقِ مِن شرِّ ما خلق ، ومن شرِّ غاسِقٍ إذا وقَبَ ، ومن شر النَّفَّاثات في ألعُقَدِ ، ومن شر حاسدٍ إذا حسدَ ،

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

قُلْ أعوذُ بِرَبِّ الناسِ ، مَلِكِ النـــاس ، إلـه الناس مِنْ شر الوسواس الخنَّاس ، الذي يُوَسْوِسُ في صدور الناس ، من الجِنَّة والناس .

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

ألحمدُ لله رب العالمين ، الرحمن الرحيم ، مالك يوم الدين ، إياك نعبد وإياك نستعين ، أهدنا الصراط المستقيم ، صراطَ الذين أنعمت عليهم ، غير المغضوب عليهم ، ولا الضالّين . آمين .

* * *

سبحان ربك رب العزّة عمّا يصفون ، وسلام على المرسَلين والحمد لله رب العالمين .

* * *

الاستغفار

أما الاستغفار فقد ورد فيه آيات بينات منها قوله عز وجل « ما كان الله ليُعَذّبهم وأنت فيهم ، وما كان الله يعذبهم وهُم يستغفرون » [١] وقوله عز شأنه « إستغفروا ربكمْ إنـه كان غفّاراً يُرسِل السماء عليكم مِدراراً ويُمْدِدْكم باموال وبنين ، ويجْعَلْ لكمْ أنهاراً » [٢] .

قال شيخنا سيدي ابو الحسن الشاذلي قدس الله سره « عليك بالاستغفار وان لم يكن هناك ذنب واعتبر باستغفار النبي ﷺ ، بعد البشارة واليقين بمغفرة ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، هذا في معصوم لم يرتكب ذنباً قط ، وتقدّس عن ذلك ، فما بالك بمن لا يخلو من الذنب والعيب في وقت من الاوقات ؟ » [٣]

(١) سورة الانفال .

(٢) سورة نوح .

(٣) كشف الاسرار للشيخ مصطفى نجا ص ٢٨

الصلاة على النبي ﷺ

أما الصلاة على النبي ﷺ فهي بحكم الآية الكريمة « إن الله وملائكتهُ يُصَلُّون على النبيّ ، يا ايها الذينَ آمنوا صَلُّوا عليه وسلِّموا تسليماً »[1] قال الشيخ مصطفى نجا مفتي بيروت « الذي استقر عليه الامر بين العلماء على ان الأمر في الآية للوجوب ، وقد اجمعوا عليه وقالوا : ولو في العمر مرة وما زاد على الواجب فهو متأكد الاستحباب فينبغي الاكثار منها ، لما فيها من القيام بمراسم العبودية والتخلق باخلاق الله تعالى ، ولعظم فضلها ونفعها للمصلّي ، وقد اجمع العلماء على ان في هذه الآية الكريمة من تعظيم النبي ﷺ والتنويه بقدره ما ليس في غيرها »[2] .

التوحيد بقول لا إله إلا الله والتلقين

أما التوحيد بقول لا إله إلا الله ، فقد روى الامام احمد والطبراني وغيرهما ان النبي ﷺ لقّن اصحابه جماعة وأفراداً ، فاما تلقينهم جماعة ، قال شداد بن أوس : كنا عند النبي ﷺ ، فقال : « هل فيكم غريب ؟ — يعني من اهل الكتاب — ، قلنا : لا يا رسول الله ، فأمر بغلق الباب وقال : إرفعوا أيديَكم وقولوا لا إله إلا الله ، فرفعنا أيدينا وقلنا : لا إله إلا الله ثم قال : الحمد لله ، اللهم انت بعثتني بهذه الكلمة وأمرتني بها ، ووعدتني عليها الجنة وإنك لا تخلِف الميعاد . ثم قال ﷺ : أبشروا فإن الله غفر لكم »[3] .

واما تلقينه لأصحابه فُرادى فقد روى الشيخ — يوسف الكوراني العجمي — رضي الله عنه بسنده الصحيح « إن علياً كرّم الله وجهه ، سأل النبي ﷺ فقال : يا رسول الله ، دُلني على أقرب الطرق اليك وأسهلها

---

(١) قرآن كريم سورة الاحزاب.

(٢) كشف الاسرار للشيخ مصطفى نجا ص ١١٢.

(٣) المفاخر العلية للشيخ ابن عباد ص ١٨١ .

على عباده وافضلها عند الله ، فقال ﷺ : أفضل ما قلته وقاله النبيون من قبلي : لا إله إلا الله ، ولو أن السموات السبع والأرضين السبع في كفة ، ولا إله إلا الله في كفة لرجحت بهم لا إله إلا الله ، فقال علي رضي الله عنه : كيف اذكر يا رسول الله ؟ قال : غمّض عينيك واسمع مني ثلاث مرات ، ثم قل ثلاث مرات وانا أسمع ، فقال رسول الله ﷺ : لا إله إلا الله ، ثلاث مرات ، مغمضاً عينيه رافعاً صوته ، وعليّ يسمع ، ثم قال علي : لا إله إلا الله – ثلاث مرات – مغمضاً عينيه رافعاً صوته ، والنبي ﷺ يسمع . وهذا سند القوم بالتلقين وقد تقدم اتصال السند من رسول الله ﷺ الى الأفراد الكمَّل ، رضي الله عنهم في سلسلة الاقطاب الوارثين » [1] .

* * *

الذكر الخفي باسم الله الأعظم بالمد

والسير والسلوك في طريق السادة الصوفية ، لا يكون بإقامة حلَق الذكر والجهر به ، فهذه لجمع الخلق على الله ، وإنما هو بالذكر الخفيّ باسم الجلالة باسم الله الاعظم ، الذي يُلقن به المريد وهو الركن الثاني في طريق السادة الشاذلية ، بعد وجود المرشد الكامل صاحب الوقت ، الذي هو الركن الاول ، وبدونه لا يحصل الاطمئنان للذاكر بما ينتجه الذكر .

يختار الفقير الذاكر مكاناً هادئاً ساكناً ، سواء كان هذا في الليل او النهار وأكثر ما يكون ليلاً ، يجلس فيه يذكر الله . وكيفية الجلوس للذكر ، ان يجتمع احدهم في قعوده وينصب ركبتيه ، إذ من التواضع الاجتماع في الجلسة ، فجلوسهم بالذكر الاحتباء او القعود على أليتيه ونصب ركبتيه ، وقد رُوي عن النبي ﷺ انه كان يقعد القرفصاء

(١) المفاخر العلية لابن عباد ص ١٨١ و ١٨٢ .

ويحتبيء بيديه [1] .

قال الامام السيوطي رضي الله عنه ، وقد كان من هَدي اهل العلم في قعودهم ان يجتمع احدهم في قعوده وينصب ركبتيه ، ومنهم من كان يقعد على قدميه ويضع مرفقيه على ركبتيه ، كذلك كانت شمائل كل من تكلم في هذا العلم الى وقت سيّدي — ابي القاسم الجنيـــد — رضي الله عنه ، وأول من قعد على كرسي — يحي بن معاذ الرازي — وفي زمن — الجنيد — ابو حمزة البغدادي — فعاب الاشياخ ذلك عليـه ، ولم يكن ذلك سيرة العارفين الذين يتكلمون في عـلم المعرفة واليقين ، إنمــا كان جلوسهم الاحتباء [2] اهـ .

وأرى ان هذا هو الأصل في جلوس الذاكر على تلك الحالة ، وقـد كان لبس الحبْوة للذاكر من اجل الراحة ، وهي عبــارة عن (حزام جلد) بعرض ثلاث (قراريط) يضعه احدهم وراء منكبـه ويشده الى الأمام بعد ان ينصب ركبتيه كما تقدم ، ولست اعني ان لبس الحبـــوة من شروط الذكر ، وإنما هي لراحة الذاكر . ورغم هـذا لم أرَ غـير بعض اشخاص في الزاوية كانوا يلبسونها في أويقات الذكر ، اما بقيــة الفقراء المتجردين والزائرين ، فكانوا يتوجهون للذكر بدونهــا ، وحسب اصطلاح القوم لا يقال : جلس يذكر ، بل يقال : هو متوجِّــه او في التوجّــه ، ذلك لأنهم كانوا يستقبلون القبلة الشريفة اثناء الذكر ، وكيفية جلوس الذاكر ان يجلس مستقبل القبلة الشريفة ، مغمض العينين

(١) روى ابو داود والبخاري في الأدب والترمذي في الشمائل ، والطبراني عن —قيلة— بنت مخرمة انها رأت النبي صلى الله عليه وسلم وهو قاعد القرفصاء ، قالت فلما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم المتخشع في الجلسة ارعدت من الفرق . وفي صحيح البخاري عن ابن عمران رأى النبي صــلى الله عليه وسلم بفناء الكعبة محتبئاً بيديه . وأخرج ابو داود والترمذي في الشمائل باسناد ضعيف عن ابي سعيد ، ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا جلس احتبأ بيده .

(٢) كتاب تأييد الحقيقة العلية بتشييد الطريقة الشاذلية ص ٢٧ و ٢٨ تأليف الامام جلال الدين السيوطي .

مستغرقاً بذات الله ، غائباً عما سواه ، قائماً بحكم الحديث الشريف (اعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فانه يراك) .

يلفظ الذاكر اسم الجلالة همساً بالمدّ على قدر ما يستطيع تنفّسه بذلك ، حيث يُطلب من الذاكر المدّ بهذا الاسم الشريف الى نهاية امكانه ، ولا مانع من ذلك اصلاً ، فتحديد حركات المدّ في علوم التجويد إلى اثني عشر حركة ، مختصة في تلاوة آي الذكر الحكيم ، وقد علّل علماء التجويد ذلك ، خوفاً من تغيير اللفظ والمعنى في الآية الكريمة ، اما هنا فلا تغيير لشيء من ذلك ، وزيادة المدّ في الذكر ، تفيد الحضور والخشوع والتعظيم لله عز وجل ، قال الامام النووي رضي الله عنه في كتاب الاذكار والصحيح المختار : « استحباب مدّ الذاكر ، كلمة الذكر ليتدبر معنى الذكر المقصود منه ذلك » [1]

وهذا هو الاسم الاعظم ، الذي يلقن به المريد والذي لا يحصل له الفتح بدونه ، ولا يصل الى منازل الابرار إلا في حالة الذكو به ، ولا يصح الذكر إلا بالانقطاع الى المذكور عن كل شيء سواه ، لأن مبنى الطريقة الشاذلية على الكتاب والسنة ، وطلب العلم وكثرة الذكر مع الحضور في موقف العبودية ، ولذلك كانت بهذا الاستحضار اسهل الطرق واقربها ، إذ ليس فيها عظيم مشقة وكثرة مجاهده ، لأن ما في النفس من النور الاصلي يتعاضد بنور العلم لمن يشتغل به ، وبنور الذكر حتى يندفع ما بها من الشوائب والادران ، ويزداد اقبالها على حضرة القدس حتى تنمحق بالكلية ويحرق الذكر ما سوى المذكور .

المبايعة

والمبايعة عند اخذ الطريق مصافحة ومعاهدة ، حيث يجلس المريد بين يدي الشيخ يتلقى عنه ما تفرضه عليه الطريق من الواجبات ، ولذلك يقال

(١) الالهامات الالهية للشيخ محمود ابي الشامات ص ٤٩ .

فلان اخذ العهد ، أي قطع على نفسه عهداً ان يعمل بهـا وأن يطيع اوامر الشيخ . قال شيخنا سيدي ابو احمد العربي الدرقاوي رضي الله عنه (يجب على المريد ان يكون بين يديْ شيخه كالجثة بين يدي الغاسل)[1]
وبذلك يقول مريد والدي الشيخ محمد السرطاوي :

يا صادقَ العهد إن العهد مسئولُ   والأمر يومئذ لله موكولُ
هيّا بنا نمتطي مَتن الوفا كَرَماً   في جانب الله فالأشيا تماثيلُ
ندور حول رسول الله وهو لها   قُطبٌ بجوره التحقيق موصول
هذي الظواهر احداثٌ بها دررٌ   فأشهد تكوُّنها فالقرب مأمول
لو لم يكن ستُرها المكنون في صدفٍ أل   أوهام ما كثرت فيها الاقاويل [2]

* * *

- يا علـيُّ يا غريباً   يا ولي يشرطيـاً [3]
لازمـة

بابن يشرط قد لذنا   وبه حقـاً فُزْنـا
صراط الوهم جُزنا   سدنا عـلى البرية

★

بك أبصرْ أعمانـا   بعد جهل اعمـانا
وشهدنا مولانـا   بقـلوب مَجليَّـة

★

عِلمُنا من لدنّـا   معرب بنا عنـا
عن يقين لا ظنـا   رشدنا ليس غَيـا

★

صلّ يا ذا الافضال   على النبي الغـالي
والصحب مع الآل   كذا من كان حيّا

---

(١) توضيح جلوس الذاكر مغمض العينين لضبط الحواس .
(٢) من مجموعة اناشيد اخواننا خط يد .
(٣) من اناشيد الاذكار ومجالس القوم لحسن الحكيم الحلبي .

كيف تقام حلق الذكر جهراً

قلت إن الفقراء يتلون الورد الكبير ، أعني الوظيفة الشاذلية ، مرتين في كل يوم ، اما كيفية ذلك ، فهو انهم يتلونها جماعة بصوت عال بعد صلاة الفجر مباشرة مرة ، وبعد صلاة العشاء الاخيرة مرة ثانية ، حيث يجلس الشيخ والمريدون في حلقة متلاصقين ، ويركع كل واحد منهم على ركبتيه ويبسط كفيه ويضعهما فوق ركبتيه ، وبعد الانتهاء من القراءة تختم بقول لا إله إلا الله مائة مرة ، وبقول محمد رسول الله في المرة الاخيرة ، ثم يُتلى عشر من القرآن الكريم ، وسورة الفاتحة ، ويتكلم الشيخ او المقدم بعدها بما فتح الله عليه من فيض مدد رسول الله ﷺ ، حسب التجلي الالهي ، وهم جلوس على تلك الحالة المتخشعة ، فإذا كانت ليلة الجمعة او الاثنين ، فقراءة الوظيفة لا تختم كما هي العادة المتبعة ، بل يبدأ الشيخ او المقدم بقول : لا إله إلا الله مرة واحدة ، ثم يتبعه الفقراء الذاكرون بصوت واحد ولهجة واحدة ، يرددونها مرات ، هم والشيخ معاً ، ثم يقول الشيخ : ، الله ، الله ، ويردد اسم الجلالة بالمد قليلاً ، وبالنغمة التي بدأ بها قول لا إله إلا الله ، بعد ان ينهض واقفاً ويتبعه الذاكرون ويأخذ كل واحد منهم بيد الآخر ، ويجعل باطن كفه بباطن كف اخيه الفقير ، مع تشبيك الاصابع ؛ بينما يتوسط الشيخ تلك الدائرة ويمشي باتزان متنقلاً من مكان الى آخر ، والفقراء يتبعون حركاته ولهجته في الذكر ، وهم وقوف ، ثم ينتقل بهم من لهجة الى لهجة ومن طبقة الى طبقة ، إذ ان للأذكار طبقات متعددة بارتفاع الصوت وانخفاضه ، ثم بتغيير اللهجة وسرعة الحركة او تخفيفها ، وتغيير اللفظ بقول الله ، الله ، او هُو هُو ، او آه آه ، ثم لهجة الصدر ، وغيرها . ويقف المنشدون في حلق الذكر مع الذاكرين ، فاذا كثر عدد الفقراء دخل المنشدون وسط الحلقة في صفين متقابلين ، هنا خمسة او أربعة ، يقابلهم

مثلهم ، فاذا ازداد عدد الذاكرين ، دخل الفقراء وسط الحلقة فيؤلفون بذلك مع المنشدين حلقة ثانية داخل الاولى ، فإن ازداد العدد كذلك ، دخل المنشدون داخل الحلقتين ، وبذلك تصبح حلقة الذكر عبارة عن صفين شبه دائرة في حلقة واحدة ، والمنشدون في الداخل ، وقد تكون في كثير من الاحيان ثلاث صفوف شبه دائرة ، والشيخ والمنشدون في الوسط ، هذا وعلى الشيخ والمنشدين ان ينقلوا الذاكرين من لهجة الى لهجة ، ومن طبقة الى طبقة ، في الصوت دون انقطاع الذكر او الانفصال بين الوحدة الموسيقية ، ذلك لأن جميع الطبقات واللهجات موزونة على الوحدة الموسيقية حسب النغمات والألحان ، وعند الانتهاء بينما يكون الشيخ او المقدم في وسط الحلقة يمشي ويدور يسرع باللهجة ، والجميع يذكرون معه بتلك السرعة بصوت عال ، اذا به يقف ويرفع يده اليمنى الى فوق رأسه امام وجهه ويشير بسبّابة يده كمن يتشهد ويقول : محمد رسول الله ، ومعنى هذا الختام ، لأن رسول الله ﷺ خاتم الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم ، هنالك يجلس الذاكرون في حلقة واحدة كما كانوا وقوفاً ، ويجلس الشيخ معهم كواحد منهم لا في الوسط ، لكنه يتصدر المجلس ، وعندها يقرأ احدهم ما تيسر من آي الذكر الحكيم وفاتحة الكتاب العظيم ، وهكذا تختم حلقة الذكر المسماة بالحضرة . ثم يبدأ الشيخ بالمذاكرة فيعظ ويرشد الى سبيل الله بالتذكير والتنبيه ، ويتكلم بالعلوم الروحية في الشريعة والحقيقة ، ثم يقرأ الفاتحة ويرجو الله حسن الختام .

على انهم قد ينشدون اناشيد خاصة بعد جلوسهم في شبه دائرة قبل قراءة عشر القرآن الكريم ، وبعد الانتهاء من الذكر مباشرة . ويردد الجميع بعد كل بيت من تلك الانشودة التي تنشدها فرقة الاناشيد ، قول لا إله إلا الله ، لا إله إلا الله ، لا إله إلا الله ، محمد رسول الله ، او يرددون قول : الله الله الله محمد رسول الله . او الله دايم ، الله

دايم ، الله الله مولانا لا إله إلا الله ، بنغمة كنغمة الانشاد ذات الوزن في الوحدة الموسيقية بالنغم ، وبعد الانتهاء ، إما ان يقول الشيخ : الله الله ، فتقام حلقة ذكر ثانية او تختم بقول : محمد رسول الله ، وبتلاوة آي الذكر الحكيم كما تقدم ، وبذلك تنتهي الحضرة ، ويذهب كل في سبيلة [1] .

وتسمى النشيدة التي تنشد في الحلقة بعد الجلوس على تلك الصورة ـ تجريدة ـ وهذه واحدة من تلك الاناشيد ، لسيدي الشيخ ابي مَدين قدس الله سره :

أهدى إليَّ الشذا من عَرفه خبرا ... فهمتُ بالسر لما ان إليَّ سرى

وغبت ما بين اصحابي ولو علموا ... بكأس حبي لما لاموا الذي سكرا

في خمرة العشق معنىً ليس يعرفه ... إلا فتىً مزّق الاطهار واشتهرا

عندي كنوز رموز ليس يدركها ... من أمة العشق إلا من علي قرا

فاشرب بكأس ضياء قد شربت بها ... وانظر ترى علَم العرفان قد ظهرا

وطُف بكعبة قلبي إن عزمت على ... وصل الحبيب ودع من صد او هجرا

قد اوجب الحب عندي والوقوف على ... عرفان معرفتي إن كنت مقتدرا

فامحُ العلوم ولا تُبقي الرسوم ولا ... تنظر لاياك لا عبداً ولا أثرا

وغِب عن الاسم واشهد عند غيبته ... ذاك المسمّى وذاك السمع والبصرا

هناك تشهد اهل العشق كلهم ... في حومة الحب في حكم الهوى أسرا

* * *

المجردون في الزاوية

المشهور على لسان معظم الناس ان فقراء ـ التكايا ـ يعيشون حياة خمول وكسل بلا عمل ، ولم يكن هذا حالهم في زاويتنا ، بل كان لكل

(١) لا يوجد في حلق الذكر عند السادة الشاذلية آلات موسيقية ولا تمايل ، الى الجانبين ، ولا خروج ، عن الترتيب المذكور ، بغلبة الروح على الذاكر بحالة غيبوبة ، لأن طريق السادة الشاذلية طريق الصحو التام .

فقير عمل يؤديه على قدر حاله وحسب استعداده وثقافته ، غير مفروض عليه ، ولكن بالتعاون والتوادّ والحب والرحمة ، الكل سواسية لا رفيع ولا وضيع ، العارف والعالم يُربّي الأميّ والعاميّ ، والعامل والفلاح والمزارع ، ويجتهد بتثقيفه الثقافة الروحية التي تؤهله لهذه النسبة المحمدية ، والكبير يعطف على الصغير ، والنّاجي يأخذ بيد اخية .

وكان الامام والواعظ والمُدرّس والمؤذّن والمنشد والمقريء في زاويتنا من اخواننا المنتسبين إلى طريقتنا الشريفة ، إما من المتجردين أو من اهل الاسباب من أهل المدينة ، وتُعتبر هذه الاعمال جزءاً من العبادة التي يقومون بها دون أقل أجر ، وإنما هي خالصة لوجه الله تعالى .

ويُعين الشيخ مُقدّماً في الزاوية ، ينوب عنه باعطاء الطريقة وتربية المريدين وإقامة الاذكار ، وإلقاء الدروس الدينية ، ولا بد ان يكون ذلك المقدّم عالماً فاضلاً مُحققاً عارفاً طلق اللسان ، يجمع بين العلم في الشريعة والحقيقة ، سواء كان من اخواننا المتجردين او من اهل الاسباب في المدينة ، إذ لا فرق بين هذا وذاك . وقد تولى المقدميّة في زاويتنا على عهد سيدي الوالد رضي الله عنه ، جماعة من اكابر علماء الشريعة الذين تلقوا الطريق عنه ، وتحققوا على يديه ، وأول من تولى المقدّمية الشيخ – احمد عبد الرحمن – الذي ذهب يدعو الناس الى طريق الله ، وقد ذكَرتُ فيما تقدّم انه كان واسطة دخول عشرات الالوف من المريدين في طريقتنا الشريفة في هذه البلاد ، وكان الفقراء جميعاً يخشونه ويهابونه ويخضعون لأوامر الطريق ، بفضل رعايته وتربيته لهم التربية الصحيحة اللائقة بهذه النسبة الروحية الصوفية ، ثم كان الشيخ – محمد اللاّز – ، وبعده تولى الشيخ – عبد الله السعدي – ، القاضي الشرعي وهو من اشراف المسلمين في مدينة – عكا – .

حدّثني السيد – عبد الفتاح السعدي – رئيس بلدية – عكا – وأحد وجهاء – فلسطين – وزعمائها ، قال : كنت والشيخ عبد الله الجزّار

والسيد عبد الرحمن العاقل ، وأخي محمد السعدي ، من فرقة المنشدين في حلقة الذكر وكنا نهاب الشيخ عبد الله السعدي ونخشاه ، لأنه كان إذا لمح شبه ابتسامة على وجه احدنا اثناء الذكر او رآه لا يحسن تأدية الذكر كما ينبغي ، كان يُخرجه من الحلقة علناً امام الجميع تأديباً له ، ولذلك كنا في مطلع شبابنا نسير مع الشيوخ وكل هذا بفضل تربية الشيخ عبد الله لنا .

ثم تولى المقدميّة بعده الشيخ الجليل الكبير الشيخ اسماعيل احمد الخطيب الشهير بالطوباسي ، وبعد وفاته تولاها الشيخ عبد الله الجزار ، مفتي – عكا – الأخير وبقي في المقدمية الى ان توفاه الله بعد انتقال سيدي الوالد رضي الله عنه الى دار البقاء ، ومن وصايا والدي رضي الله عنه قبل الانتقال قوله لأخي ولأخواننا جميعاً : الشيخ عبد الله الجزار مقدمكم الى ان يموت ، وكان الشيخ المذكور قبل توليه المقدمية منشداً في حلقة الذكر ، إذ كان من اصحاب الصوت الحسن .

وكذلك كان حال من تولوا المقدمية في المدن الكبرى ، والقرى ، فكان في – بيت المقدس – الشيخ – حامد البديري – ، وفي – بيروت – الشيخ – احمد عباس – الازهري ، والشيخ – مصطفى نجا – مفتي – بيروت – الاكبر وفي – دمشق – الشيخ – محمود ابو الشامات – والشيخ – اسعد حمزة – وفي – حلب – الشيخ – اسماعيل اللبابيدي – ثم من بعده ولده الشيخ – احمد – وفي صيدا الشيخ – محمد صالح لطفي – ، وفي – دير الزور – الشيخ – حسين الحسني البغدادي – وهؤلاء من أكابر علماء الشريعة في بلادنا .

وكان الاعتناء بالصحة والنظافة من أهم الأمور في زاويتنا ، لدرجة تفوق حد التّصور والوصف ، فاذا مرض سيدي الوالد رضي الله عنه استدعى الطبيب ، وكذلك كان فيما يختص بأهل بيته واولاده ومريديه جميعاً ، فان احتاج مريد ان يكون تحت رقابة الطب يرسل الى

المستشفى في – عكا – فان كان بحاجـــة لاجراء عملية جراحيـــة في المستشفيات الكبيرة في – بيروت – يرسل اليها ، فان احتاج لتبديل الهواء ، نقل الى الجبـــال ، فاذا اصيب احدهم بمرض سارٍ ، يُعزل لوحده . وهكذا ، وعلى رغم كثرة الوفود والزائرين من بدو وحضر ، كان الاهتمام بالصحة والنظافة ظاهراً تامـــاً ولم يصب احد بمرض ما ايام المواسم اصلاً ، والحقيقة ان الحياة لم تكن في زاويتنا حياة (دروشة) بل حيـــاة رقيّ روحي اسلامي ، تجمع بين الذكر والعـــلم والعبادة والمعرفة ، وتأدية واجبات انسانية وسير مجدّ في مراتب الكمال ، اعني المراتب المعبَّر عنها بالمقامات والاحوال ، ثم الوصول الى حضرة القرب بين يدي الله تعالى .

وتقدّم زاويتنا الطعام للمريدين الزائرين الذين لا يقل عـــددهم عن اربعمائة او خمسمائة في كل يوم ، هذا عـــدا عن المتجرّدين وعائلاتهم وأولادهم ، ويبيت هؤلاء الزائرون فيها ، وتُمـــدّ الموائد فيجلس الفقراء جماعات يأكلون ، ويقف بعضهم يحملون بأيديهم اباريق المـــاء وينشدون الاناشيد الروحية ، ويزداد عدد الزائرين في ايام المواسم الى ما فوق الالف او الألفين في كل يوم .

ويُنفق على الزاوية من ريْـع ما يُحبس لها من الاوقاف ، ومما يقدمه المريدون من المال والهدايا ، ومن مال الشيخ إذا كان له مال ، فيشترك الجميع بالانفاق عليها ، فان كان لها اراضٍ زراعية وأشجـــار زيتـون وخلافه يقوم المتجردون من الفلاحين والمزارعين بحرث الارض وزرعها ، وجمع الحصاد وقطف الثمر وعصر الزيتون لاستخراج الزيت في المعاصر ، ونقل المؤن وتربية المواشي ، وكذلك كان حالهم فيما يحتاجـون اليـه من حياكة الثياب وتنجيـــد الفراش وشراء الحاجيّات من السوق والكنس والرشّ والتنوير ، وغير ذلك من الاعمال التي لا غنى عنها ، كل هذا كان يقوم به المتجردون من اهل الحِرف والعمال . وقد كانت لنا – زوايا –

كثيرة منتشرة في البلاد والقرى ، تُقام فيها الصلوات الخمس والأذكار ، وتُقرأ فيها الدروس الدينية ، الفقه والحديث والتفسير وغيره ، ويتعلم فيها المريد امور دينه وآداب الطريق ، على انها لم تكن تقدّم طعاماً ما للمريدين قط ، ولا يبيت فيها احد ، إنما هي للاجتماع ولاقامة شعائر الدين الحنيف وإحياء سنّة رسول الله ﷺ .

ولكن إذا مرّ بتلك المدينة فقير قاصد زيارة — عكا — ، فيبيت فيها ثم يتابع السير في اليوم الثاني . اما البلاد التي لا توجد فيها زوايا ، فبيوت الفقراء من ابناء طريقتنا كالزوايا ، يجد فيه المسافر مأوىً يَحُلّ فيه لحين سفره ، ويقدّم له إخواننا ما يحتاج اليه من الطعام والخدمة .

والزاوية الوحيدة التي تقدم الطعام دائماً هي زاوية — عكا — وهي محل إقامة سيّدي الوالد رضي الله عنه ، فإذا انتقل في اشهر الصيف الى — ترشيحا — او — حيفا — ينتقل المريدون الى هناك ، فتصل الوفود الى محل إقامته كما كان الحال في الزاوية الاولى ، إذ الغاية من الزيارة الاجتماع بالشيخ .

ويُعيَّن في كل زاوية من تلك الزوايا مقدَّم يتولى امور الفقراء كما بيّنت ذلك سابقاً .

* * *

وكان معظم الفقراء المتجردون في زاويتنا على عهد سيدي الوالد رضي الله عنه ، من ابناء العائلات الكريمة والاسر القديمة .

فهذا العارف بالله ، الصادق بجانب الله ، الفاني بحب الله ورسوله ﷺ — الحاج مصطفى ابن الشيخ سعيد السعدي — كان قبل أخذه طريقتنا الشريفة من وجهاء مدينة — عكا — ورئيس المجلس البلدي فيها . ثم هو من اصحاب الاملاك والاراضي الزراعية ، ومن أشراف المسلمين ، فلما تشذل وانتسب إلى والدي رضي الله عنه ، خلع رداء الافتخار وانقطع

إلى الله معتكفاً في زاويتنا بعد ان قدم استقالته من الوظيفة واعتزم ان يهب كل ما يملك الى الزاوية ، فأبى عليه والدي رضي الله عنه ذلك ، وأمره ان يوزع املاكه وامواله على اولاده ، ثم عينه وكيلاً للزاوية فاستلم إدارتها المادية فكان يشرف على كل شيء يختص بها ، البناء ، والايجار ، والتصليح ، والانفاق عليها ، وتدبير المؤن وغير ذلك من الاعمال ، فقام بهذه الخدمة المقربة الى الله على الوجه الاكمل ، دون اقل أجر ، فقد رتب له اولاده معاشاً شهرياً بسيطاً ، ينفقه على نفسه فيما يحتاج اليه من مأكل وملبس ؛ فكان لا يأكل من طعام الزاوية رغم تلك الخدمات الجليلة التي قام بها احتساباً لوجه الله تعالى ، وكان الفقراء جميعاً يخشونه ويهابون سطوته ، ويمتثلون أوامره ، ولما كان والدي رضي الله عنه لا يزور احداً من القواد والحكام والعظماء ، كان — الحاج مصطفى السعدي — ينوب عنه برد الزيارة لهم في المواسم والاعياد .

* * *

فأخلع رداء الافتخارْ (١) والبسْ بخلقٍ من جديدْ
تراه بعد الافتقار أقرب من حبل الوريد

★

قد أشرقت شمسُ الهدى رغماً على كيد العدا
واستوردتني مورِدا في الكون يا خلّي فريد

★

يا قاصداً نيْلَ المنى دعْ عنك اغيار العنا
والزم حمى أستاذنا تُهدى على بيت القصيد

★

لاحت امانيك انتبهْ وبالسّوى لا تشتبه
فبهُداهُمُ اقتدِه إن كنت ذا رأيٍ سديد

★

(١) بمناسبة تجريد السيد مصطفى السعدي اثبت هذا النشيد للشيخ عبده الحمصي الدمشقي .

يا سائراً نحو العُلى قد كان سيرك اوّلا
مِنْ قبْل ما قالوا بَلى عشقي لِذاتك في مزيد

★

يا ابن المداني يا إمام يا قوت ارواح الأنامْ
بالمُصطفى بدر التمام عطفاً على هذا المريد

* * *

وبمناسبة تجريد الشيخ ـ محمود سكيك ـ في زاوية ترشيحا نظم ابن اخيه الشيخ صالح سكيك قصيدة مطولة منها هذه الابيات :

شيخ الطريقة والشريعة والهدى مهدي الورى عزاً وكشفاً كاشفا
وعقائداً ومعاهداً ومحامداً ومواردا ولطائفاً وطرائفا
اليشرطيّ ابن الحسين وحبذا نسب يريك معالماً ومعارفا
الشاذلي طريقة وحقيقة وشريعة ومعارفاً وعوارفا
المغربيّ الخاتمي عطاؤه ختم الولاية كن اليه عارفا

* * *

وهكذا نجد ان اكثر المتجردين في زاويتنا ، ليسوا من ابناء العائلات الكريمة والأسر القديمة فحسب ، بل ان معظمهم من اكابر علماء الشريعة ، فهذا العلامة الكبير الشيخ حسين الحسني البغدادي ، كان شيخاً لرواق الطلبة البغداديين في الأزهر الشريف ، فلما اخذ الطريقة الشاذلية اليشرطية عن سيدي الوالد رضي الله عنه ، تجرد في زاوية ترشيحا سنين كثيرة ، وكان تجريده فيها اثناء تجريد الشيخ محمود ابي الشامات الدمشقي ، ونشأت بينهما صداقة واخوة بالله ، وتجرد في زاويتنا الشيخ محمد الرودسلي ، والعارف الكبير الشيخ سعيد السواحلي المعروف بالدرويش [١] .

---

(١) طريقتنا الشاذلية اليشرطية ، منتشرة في زنجبار وسواحلها ، وفي جزر الكمرون ، وفي مدغشكر ، وفي كينيا ، وفي غينيا الجديدة ، وفي طنجنيكا ، وغيرها ، وفي كل بلد من بلدان هذه

والشيخ محمد سنجار ، الذي عهد اليه بالاشراف على تربية اخي السيد محي الدين والشيخ محمد السليماني وهما من علماء الاكراد ، والشيخ محمود سكيك من علماء « غزة » وولده عبد السلام ، والشيخ اسماعيل الطوباسي من علماء « جبل نابلس » والشيخ محمود ابو الشامات من علماء « دمشق » والشيخ محمد جديبة ، من أكابر إخواننا العارفين في « صيدا » والشيخ محمد الشريف والحاج علي كلاهما من علماء المغرب ، والشيخ يوسف المعبي من أكابر إخواننا العارفين في « بيروت » والعارف الكبير الحاج سليم بليق الذي عهد اليه بالاشراف على تربيتي ، والشيخ حامد واخوه الشيخ احمد حشيشو من علماء « صيدا » والشيخ مصطفى الخليلي ، من اكابر إخواننا العارفين من « خليل الرحمن » والعالم الفاضل الشيخ محمد البادنجكي من حلب ، والشيخ مصطفى كنعان من « حلب » وتجرد في زاويتنا السيد ابو سعيد

الجزر والسواحل زوايا عديدة انشئت هناك لأبناء طريقتنا الشريفة ، واخواننا بالله في تلك الأقطار البعيدة من اكابر رجال الطريق ، علماً ومعرفة وشهوداً وحالاً وذوقاً وفناء بالله ، ومنهم علماء اعلام جمعوا بين العلم في الشريعة والحقيقة ، وقد كان لهم اثر فعال في نهضة الاسلام المباركة في تلك البلاد ، وقد اسلم على ايديهم خلق كثير من المجوس وغيرهم ، من هؤلاء السادة الكرام العارف بالله والدال على الله سيدي الشيخ محمد معروف بن الشيخ احمد ابي بكر آل سالم ، الشاذلي اليشرطي ، اخذ عن مريد والدي سيدي الشيخ عبد الله بن سعيد الملقب بالدرويش ، وكان مولد سيدي الشيخ محمد معروف في مدينة انجزيجة ، وقد خرقت له العادات ، ونال فتحاً مبيناً في نشر الطريقة وبناء الزوايا ، وله ترجمة خاصة في مناقبه وشمائله وادعيته ، جمعها مريده العارف الكبير بالله ورسوله ، خادم الطريقة الشاذلية اليشرطية ، السيد احمد بن عبد الرحمن بن سلطان علوي . الشاذلي اليشرطي ، ونقلها من اللغة الهنزوانية الى العربية اخونا العارف الكبير بالله ورسوله السيد كمب بن السيد احمد بن السيد عبد الله المسيلي با علوي ، الشاذلي اليشرطي ، فمن شاء فليطلع عليها فقد طبعت في مصر ، الطبعة الثانية في مطبعة الحلبي البابي ، واولاده ، سنة ١٣٥٣ الموافق سنة ١٩٣٤ م ونشر بذيلها هذه الجملة تم - بحمد الله طبع كتاب مناقب السيد محمد الشاذلي اليشرطي مصححاً بمعرفتي . التوقيع احمد سعيد علي - احد علماء الأزهر وقد توفي سيدي الشيخ محمد معروف في سنة ١٣٢٣ هجرية ودفن في زاويته وضريحه يزار .

ومن اخواننا في تلك البلاد ، اخونا العارف الكبير بالله ورسوله المحقق السيد علي وفا ابن السيد محمد المعروف آل ابي بكر سالم الشاذلي اليشرطي ، ومنهم اخونا العارف بالله ورسوله المحقق ، الشيخ حسين بن محمود الشاذلي اليشرطي ، وغيرهم ممن انار الله بصائرهم وأحيى قلوبهم فكانوا من عباد الله المخلصين .

القاضي نجل الشيخ محمد صالح قاضي « ترشيحا » ، فكان وكيلًا لزاويتها ومتجرداً فيها الى ان توفّاه الله . وتجرد ايضاً السادة : محمود الادلبي من « حلب » والعارف الكبير سيدي خليل الكردي من « دمشق » وسعيد الحنبلي من « دمشق » ، محمود الفوّابي « المصري » ، محي الدين الملّي « الصيداوي » ، عبد الله المكاوي من « مكة المكرمة » ، إبراهيم الطرطوسي ، عدا جماعات كثيرين من اهل القرى والمزارعين والعمال ، وأصحاب الحرف .

وقد تجرد في الزاوية الشيخ درويش السقاء ، من إخواننا الاتراك ، هذا الولي الصالح كان يحمل على ظهره قربة ماء ، يسقي العطاش ، وقد ذهب مع الجيش التركي في اثناء حرب اليونان ، متطوعاً حاملًا قربة الماء احتساباً لوجه الله تعالى .

وكان والدي رضي الله عنه يقدر تفانيهم في محبة الله ورسوله ، فكان يعاملهم معاملة الاب لابنائه ، لا فرق بينهم وبين أخي السيد محي الدين وكثيراً ما كان يقول : لو لم يكن محي الدين فقيراً ما كنت لاحبه . فقد عاش اخي المذكور رغم كونه وحيداً لوالدته السيدة خديجة المثرية الكبيرة ، صاحبة المكانة في الهيئة الاجتماعية كأحد الفقراء المتجردين . والحقيقة انه لم ينل منا نحن ابناء الشيخ من شرف التربية بين يدي والدنا طوال ايام حياته منذ الولادة الى يوم الوفاة ، ما ناله اخي محي الدين ، فقد توفي شاباً في الربيع الخامس والعشرين من عمره ، وقضى حياته كلها في مجالس العلم والذكر بين يدي والده العظيم ، وتحت رعايته فكان من أكابر العارفين بالله ورسوله المحققين الواصلين .

ولما جاء اخي السيد إبراهيم من تونس الغرب تصحبه زوجه واولاده بعد وفاة اخيه محي الدين ، ولم يكن لشيخنا رضي الله عنه اولاد ذكور غيره ، رغم هذا امره والده ان يسلك في الطريق في مقام التجريد مع الفقراء في الزاوية سنين ، قبل ان يصعد الى بيت ابيه ، فكان ينام مع

الفقراء ويشتغل بمساعدتهم مع العمال منهم في البناء ، ويحمل الطين على يديه ، ويلبس ثوب الخام المصبوغ ، وكذلك كان حال ابن اخي السيد حسن ، الذي جاء من بلاد المغرب صحبة خاله [1] .

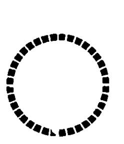
حدثني اخونا بالله السيد محمود اللحام ، عن اخيه السيد عبد الله اللحام ، وهما من ابناء العارف الكبير ، الشيخ محي الدين اللحام ، فهو واولاده من اخواننا السابقين المنتسبين لسيدي الوالد رضي الله عنه ، ومن أكابر تجار السجاد في دمشق .

وقد انعم الله سبحانه على السيد محمود اللحام ، فاعطاه لسان صدق في طريقتنا ينفع الفقراء ويقربهم إلى الله تعالى ، بالاقتداء بشيخه ، والتفاني في حبه ، فعاش اربعة وخمسين عاماً بعد انتقال شيخه الى الرفيق الأعلى على تلك الحالة المشرّفة ، فكانت حياته جهاداً موصولاً في سبيل الله تعالى وخدمة الطريق ، وآل بيت شيخه ، وقد فاجأه القدر وهو في حالة استغراق كلّي بالله ، وعلى ذكر الله ، فذهب إلى احضان ابيه بالروح (اعني شيخه) راضياً مرضيًّا .

حدثني فقال : « قال اخي عبد الله : كنا في الزاوية فبلغنا خبر قدوم سيدي ابراهيم ابن حضرة سيدنا المعظم ، إلى حيفا ، وانه وصل اليها ، وكنت مع جماعة من اخواننا الدمشقيين ، فاعتزمنا ان نذهب الى حيفا وان نحتفل مع بقية اخواننا الموجودين في الزاوية باستقباله ، وإذ بحضرة شيخنا وسيدنا يشرف مجلسنا ويقول : (هذا ابراهيم ، جاء الى حيفا ، اريد منكم ان تربوه كما ربيتكم ، لا تفعلوا معه ما فعله فقراء سيدي الشيخ « الفلاني » مع اولاده ، لقد دللوهم وعللوهم ، وألبسوهم الحرير ، فبدأ الاولاد يمشون وينظرون لأنفسهم ، فقطعوهم عن جانب الله) » قال اخي عبد الله

(١) كان والدي ، قد ترك اخي السيد ابراهيم طفلاً صغيراً في بلاد المغرب عند اهل امه ، فلما جاء الى هذه البلاد اراد ان يربيه تربية طريقة ، وقد امتثل اخي الى اوامر ابيه فسلك في الطريق في مقام التجريد .

« فبقينا في الزاوية ، ولم يذهب احد منا لاستقبال ابن شيخه ، إلى ان جاء مع اسرته ، ودخلوا الزاوية وخدمهم » وقـــال سيدي الوالد لبعض الفقراء ، بعد وصول اخي الى عكا « اتركوا الطريقة تربّيه » . هكذا كانت حياة الفقراء في زاويتنا ، حياة ديموقراطية اسلامية صحيحة مستمَدة من انوار رسول الله ﷺ .



دقائق

المشاهد الصوفيــــــة

يا بدر تم

يا بدر تمٍّ بدا من جانب الغربِ أشرقتَ يا ذا الهدى في مغرب القلب[1]
روحي لديك الفدا يا نعمـــة الرّب أزلتَ عنّـا الردى من عالم الغيبِ
جـلّ اللهْ ، ما أحـلاهْ ، في مجْـلاهْ ، أحيـا لِمَوْتانا
كـُنْ مرآه ، كي تراهْ ، او تهـواه ، تـَسْـر بسرانا

★

أترُكْ حديث الهوى يا قاصر الفَهمِ كم مدّعٍ قد هوى لأسفـــل الوهمِ
واخلع رداء السِّوى واجنح الى السّلم نحن عرفنـا الدوا من مبدىء العِلم
خلّ المالْ ، والآمـالْ ، والأعمالْ ، وأستغنِ بالواحدْ
إن القـالْ ، دون الحال ، والأفعال ، دعوى بلا شاهـد

★

نحن البـدور التي حـارتْ بمعناها عقول اهل النُهى لا غـيْم يغشاها
في الشرق قد أشرقتْ والغرب منشاها سبحان مَن خصّها من قبل مبداها
بالأسرارْ ، والأنـــوارْ ، والأذكارُ ، والمشهـد الأرفعْ
والاشهار ، في الأقطـار ، والانـكار ، للأجذم الأقطـع

★

دارت كؤُس الصفا في روض ناسوتي ممزوجـــةً بالوفا من نور لاهـوتي
مَرْضيَّـتي أقبلتْ أمّـــارتي موتي داود روحي قضى في قتـل جالوت
كأسي راقْ ، يا عشّاقْ ، والاطلاقْ ، قد صار لي مِلـّةْ

[1] موشح من اناشيد مجالس القوم للشيخ عبده الحمصي الدمشقي .

بدري فـاقْ ، على الآفاقْ ، بالاشراقْ ، وزالت العِـلـّةْ

★

أصبحتُ بين الملا كالعـين للنـاظر لمـّا حبيـبي عَلا كـَوني غـدا ناظِرْ
من يوم قالوا بَلى قد كان لي ناظر والآن إنّني إلى ميعـــاده نـاظر
عقـلي تاهْ ، في معنـــاهْ ، ما أبهـاهْ ، في عـين رائيه
صبٌ فاه ، في شـكواه ، يا ربّـاه ، حقّـق دعـاويه

★

سحب المعـاني هَمت في مهجتي منّي ومن لساني سقتْ للانس والجـــنّ
عين البيان جرت في الكون من فني رب الزمان جلت أسراره دنـــي
فهو الراح ، والاقـداح ، والارواحْ ، والشرب والساقي
والفتّــــاح ، والمفتـــاح ، والافـلاح ، والدائم البـاقي

★

يا ربنا بالصفــــا صل عـلى المصدر محمـــد المصطفى من خُص بالكوثر
وآله ذي الوفـا والصحب ما أظهر عُبيْده مِن خفـا كينونـة المظهر
من تلويحْ ، او تصريـح ، او تسبيح ، لشأنك العالي
او تصليـح ، او تنقيــــح ، او توضيـح ، لسرك الغالي

رقائق المشاهد الصوفية

في ذات يوم جلس سيدي الوالد رضي الله عنـــه في الحرم ، وإذ بمريديه من اهل قرية – ام الفحم – يأتون للزيارة ، ومعهم ما يملكون من الماشية ، جاؤا يقدمونهـا الى الزاوية ، فقـال سيدي الوالد : آتوني باربع عقلاء منهم ، وكان بين هؤلاء الاربعة – مصطفى الطه – ، فلمـا وقفوا بين يديه قال لهم : اعيدوا ماشيتكم بارك الله لكم في اموالـكم ، احرثوا الارض واخرجوا ما فيها من الخيرات ، ثم اعطوا الزاوية بعض ما تنتجون ، إن بيوت الفقراء زوايا ، وأنا لا اريد ان اهدمهـــا لعمار

زاوية واحدة ، أن عمار بيوتكم هو عمـار الزاوية ، فبكوا وطلبوا منه ان تكون قلوبهم عامرة بذكر الله تعـالى ، فقال : إن عمار قلوبكم بيد الله وسأدعوا لـكم .

* * *

وذات يوم جاء المريدون من اهل – صيدا – رجالاً ونساء واطفالاً ، بعد ان قرروا التبرع بكل ما تملكه السيدات من الحلي والمجوهرات إلى سيدي الوالد رضي الله عنه ، وبعد ان قدموها اليه ، اخذها منهم وأبقاها معه لحظات ، ثم قال لهم : لقد تقبلتُ هديتكم قبولاً حسنـــاً ، واني ارجو الله ان يفتح عليكم ، وها أنا اعيدها اليكم هدية مني ، فلمـــا سمع بكاءهم وشدة ما هم عليه من الحزن والالم ، تناول خاتماً صغيراً من الذهب وخيطاً فيه حبّات لؤلؤٍ صغيرة من النوع الرخيص ، اخذهـــا ليرضيهم واهداها إليَّ امامهم ، وما زلت احتفظ بها واعتز بتلك المناسبة السعيدة .

* * *

وكان رضي الله عنه ، زاهداً حسـًّا ومعنىً ، مُعرضاً عن الدنيـا رغم اقبالها عليه ، فكل ما جاءه منها شيء بذله في سبيل الله . حدّثني اخونا الشيخ – ابراهيم الكنفاني – رحمه الله قال : كان من عادة شيخنـــا رضي الله عنه ، انه اذا نزل الى السوق ان يجلس في حانوت رجل فقير الحال من اخواننا يدعى يوسف الصّفدي .

وذات مرة دخل الحانوت رجل من اهل المدينة ، وجعل يشكو اليه سوء الحال ، ويطلب منه الدعاء له بتيسير الأمور ، ذلك لأنه في حالة ضيق مادي وكرب عظيم ، واثناء الحديث جاء احد المريدين الزائرين ، وقدم الى شيخنا رضي الله عنه نقوداً موضوعة في منديل ، فتناولها دون ان يفتحها وابقاها في يـده ووضعها بلطف في جيب ذلك التاجر المفلس ولم يدع الجالسين يشعرون بذلك ، فلما رجـع الرجل الى بيته وجد في المنديل خمسين ديناراً عثمانيـًّا ذهباً ، فرجع الى شيخنا يخبره بما وجده ويرى

المبلغ كبيراً ، فأجابه رضي الله عنه ؛ هي لك لتصلح بها حالك .

* * *

وكان المريدون يتعشقون ذاته الكريمة ويتفانون في حُبّه ، ويفضلون حياة التجريد على الأسباب ، ليعيشوا دوماً بين يديه . على انه رضي الله عنه لم يكن يأمر احداً من مريديه بترك حرفته او تجارته او وظيفته ، فالكامل من يسلك الناس وهم في اعمالهم ، وما من سبب شرعه الله ، إلا وهو مقرب العبد من حضرة الله ، وإنما يبعد الناس عدم صلاح نيتهم في ذلك الأمر ، سواء كان في العلم او العمل او الحِرف . فقد جاءه رجل من اخواننا يستأذنه بأن يترك عمله ويتفرغ للعبادة ، فقال رضي الله عنه : اجلس في حانوتك واعمل ، واطلب من ربك ، ذلك خير لك من ان تستجدي الناس .

* * *

وقد عزم جماعة من مريديه من الفقراء من اهل – حارستا – (وهي قرية كبيرة في غوطة دمشق) ان يتركوا املاكهم ويتجردوا في الزاوية ، وجاؤوا – عكا – يستأذنون شيخنا رضي الله عنه في ذلك ، فأشار عليهم بالرجوع الى قريتهم واعمالهم ، وقال لهم : اسعوا للرزق امتثالاً لأمر الله تعالى ، وسأعلمكم ما تعملون ، فبعد صلاة الفجر وتلاوة الأوراد قولوا : نوينا السعي للرزق امتثالاً لأمر الله تعالى ، ثم توجهوا الى اعمالكم ، فينقضي يومكم كله وانتم في عبادة .

اكتساب الاوصاف

وكان الفقراء يتباهون ويتفاخرون برؤية ذاته الشريفة ، ويتسابقون ويعتقدون ان مجرد وقوع نظره الشريف على الفقير ينقله من حال الى حال ، فيحصل له الفتح المبين ، لكنه رضي الله عنه كان يرى ان المدد

الالهي لا ينقطع ، ويصل الى المريد في ايّ مكان ُوجد فيه ، ولو كان في آخر الدنيا . وان زيارة الشيخ لاكتساب الاوصاف والتخلق بالاخلاق المحمدية ، وحين زاره اخونا – عثمان باشا – احد وزراء الاتراك في حكم الدولة العثمانية ، قال لشيخنا رضي الله عنه : لقد تشرفت برؤية حضرة سيّدنا ، أفلا أكون افضل من علي رضا باشا ؟ فأجابه رضي الله عنه بقوله (اجتماع الذوات خير من اجتماع الصفات) اه .

* * *

ولما جاء الشيخ – حافظ عثمان – المقرىء التركي الشهير لزيارة سيدي الوالد ، ولم يكن قد تشرف بأخذ طريقتنا ، وكان قد نظم قصيدة اثناء سفره في البحر ، وعند مقابلته لوالدي رضي الله عنه في الزاوية ؛ وبعد السلام والحديث سأله سيدي الوالد عن القصيدة التي نظمها ولم يكن يعلم بها احد قط ، فدهش الشيخ المذكور وقال له : أتعلم الغيب ، او ان شيطاناً يوحي اليك ؟ فأجابه شيخنا رضي الله عنه ، ألست تقرأ القرآن الكريم ؟ قال : بلى ، قال : قال الله تعالى في كتابه العزيز : (عالِمُ الغيب والشهادة لا ُيطلِع على غَيبه احداً إلاّ مَن ارتضى من رسول) وانا ارتضيت من رسول الله الذي أنتمي وأنتسب اليه فسر الشيخ – عثمان – سروراً عظيماً ثم اخذ الطريقة الشاذلية عنه وكان من العارفين .

* * *

وقال رضي الله عنه للشيخ – حافظ عثمان – ، في اثناء المذاكرة [١] ، انتم حفظة القرآن ، ربنا سبحانه وتعالى ينفعنا بكم ، قال الشيخ – عثمان – : العاملون به . قال شيخنا : وهل يوجد احد يعمل بما في القرآن كله غير نبيّنا محمد صلوات الله وسلامه عليه ؟ ولكن ألم تعمل ولو بحرف واحد منه ؟ قال : بلى . قال : هذا يكفي .

---

(١) البحث في علم الحقيقة ، وإبداء الرأي في كل موضوع روحي ، والشرح والتفسير .

وكان رضي الله عنه يؤلّف بين مريديه . حدّثني الحاج – سليم بليق – ، قال : كان اخونا – ابو عباس الميداني – (الدمشقي) يجادل العالم الكبير الشيخ – إسماعيل الطوباسي – في الزاوية ، وذات مرة غضب الشيخ إسماعيل ، وبلغ الخبر سيدي الوالد رضي الله عنه ، فدخل (التكية) والفقراء مجتمعون فيها ، ثم قال لأبي عباس : إذا سألك سائل عن ما في السماء فلا تستطيع ان ترد عليه ، ماذا تعلم يا ابا عباس ؟ العالِم هو الله ، كن معلوماً لا تكن عالماً ، كن معروفاً لا تكن عارفاً ، كن مذكوراً لا تكن ذاكراً .

* * *

وقد اختلف اثنان من اخواننا اهل (صفد) في المذاكرة ، فلما قابلها سيدي الوالد رضي الله عنه قال احدهما : وقع بيني وبين اخي اختلاف بالمذاكرة ، ولا ادري من منّا المصيب ؟ فأجابه شيخنا – بعد ان جمعها في مجلس واحد : لا أحب ان يقع أي اختلاف بين الفقراء ، اريد منكم ان تكونوا قلباً واحداً ونفساً واحدة ، قال رسول الله ﷺ (وَجَبَتْ محَبَّتي لِلْمُتَحابّينَ فِيَّ) . وفي حديث آخر : (لَيَبْعَثَنَّ اللهُ أقْواماً يَوْمَ ٱلقِيامَةِ فِي وُجُوهِهِمُ النُّور فِي مَنابِرِ اللُّؤلُؤِ ، تَغْبِطُهُمُ النَّاسُ ، لَيْسُوا بأنْبِياء وَلاَ شُهَداء ، فجثى اعرابي على ركبتيه وقال : يا رسول الله حلّهم لنا نعرفهم ، قال رسول الله ﷺ : هُمُ ٱلمُتَحابّونَ بِاللهِ مِنْ قَبَائِلَ شَتَّى وَمِن بِلادٍ شَتَّى ، يَجْتَمِعُونَ عَلى ذِكْرِ اللهِ .) رواه ابو الدرداء وأخرجه الطبراني .

تواضعه بالرد على من يسأله

وكان رضي الله عنه يرد على من يسأله بتواضع ولطف ، كأنه هو السائل . حدثني العارف بالله سيدي – خليل الكردي – ، فقال : في

ذات يوم جاء اخونا (زيور باشا) الى الزاوية لزيارة شيخنا ، وهو من الحكام العسكريين في - عكا - الذين تلقوا الطريقة عنه وانتسبوا اليه ، جاء يسأله عن الروح ، فأجابه رضي الله عنه : لقـــد سُئِل رسول الله ﷺ عن الروح ، فنزلت الآية الكريمة (ويَسألونك عن الرّوح ، قُلِ الروح مِن أمر ربي) فهذا ابلغ رد ، ولكن عن أي روح تسال ؟ قال - زيور باشا - وهل هي ارواح متعددة ؟ وكم روح هي ؟ ، قال شيخنـــا : الروح التي في بدنك ، وروح القدس الذي هو جبريل عليه السلام ، وعيسى المسيح عليه الصلاة والسلام الذي هو مـن روح الله ، والمَلَكُ المسمى بالروح المذكور في القرآن الكريم ، الذي يقوم يوم القيامة ، يوم تأتي الملائكة صفاً فيقابلها هو صفًّا وحده ، والروح الكلي . فقال زيور باشا : وهل تتجزأ الروح ؟ قال شيخنا : لا ، ولكن لهـــا مراتب ، فالروح التي في بدنك لهـــا التصريف في عالم بدنك ، وروح القدس الذي هو جبريـــل عليه السلام ، لها التصريف بكمالات الوحي الالهي ، وروح المسيح عليه السلام ، لها التصريف في احياء الموتى وشفاء الاكمة والابرص ، وغير ذلك كما حدّثنـــا عنه القرآن الكريم ، والملك المسمى بالروح ذو الوجوه والعيون والافواه ، هو مُمِدٌّ لأرواح الملائكة ، والروح الكليّ ، لها اقتضاء وشئون ، وغيب وشهادة ، فالاقتضـــاء القَدرُ ، والشئون تجلياته باسمائه وصفاتـــه ، والغيب التنزيه المطلق ، والشهادة التشبيه المطلق ، قال زيور باشا : حسبي .

السؤال عن مقام الفناء

وجاء مرة ثانيـــة يسأله عن قول بعض السادة الصوفية (لا بدّ من فناء نفسك) فما هو الفنـــاء الذي عنوه بقولهم ؟ فقال رضي الله عنه : ساداتنا الصوفية كتبوا السطور وابقوا اللبّ في الصـــدور ، افتظن ان معنى فناء نفسك انك تفنى ؟ ماذا قال صاحب الوظيفة الشريفة رضي الله

عنه ؟ قال : (وأزِل عن العين غَينك) مــع ان العين لم يتصل بها حرف من الحروف ليزول عنها ، ولكن لوجود النقطة فوقها ُوصفت بالغين ، وما هي الغين ؟ ، هي وجودي ووجودك ، فيجب ان تزيــل النقطة ، قال زيور باشا : كيف أُزيلها ؟ قال شيخنا : ازل النقطة من فوقها ، وضعها في باطنها ، فلو وضعنا الف نقطـــة في باطن العين وطمسناها بالحبر لا يضر بعد ان اصبحت النقطة في باطنها .

ثم قال رضي الله عنه : نقلًا عن السادة الصوفية :

إذا قيل لك : يوجد في الشام عــالم كبير ، في علم الظاهر والباطن والمعرفة والتحقيق ، والشهود والأخلاق المرضيّة والاوصاف المحمدية ، فماذا يصير عندك ، (علم اليقين) . فاذا صحبته وعرفت ظاهره وباطنه فوجدته فوق ما وصفوه لك ، يصير علمك بــه (حق اليقين) . أذن ما الذي فني بينك وبينـــه وهو على ما هو عليه ، وانت على ما انت عليه ، لا زيادة ولا نقصان بوجود ذاتك وذاته ؟ الجواب : ان الذي فني بينك وبينه ، جهلك به .

* * *

حدّثني العلامة الكبير الشيخ – عبد الله الجزار – مفتي – عكا – رحمه الله ، كما حدثني العلامـــة الكبير الشيخ – اسعد الشقيري – احد اكابر علمــاء فلسطين ، ومفتي الجيش الرابع في الدولة العثمانية ، قال العالمان الفاضلان :

كنا بعد عودتنــا من الأزهر الشريف ، نجتمع في جامع الجزّار ، ومعنا جماعة من العلمــاء ، وذات يوم اختلف بعض هؤلاء في موضوع الملائكة حفظة الانسان في الدنيـــا ، وما يكون مصيرهم بعد موته ؟ فتباحثنا ولم نصل الى الحقيقـــة ، وكان يومئذ مفتي – عكا – الشيخ – علي ميري – ، فقال : هلمّوا بنــا الى الزاوية لنسأل سيدنا الشيخ – علي – ، فلما دخلنا ، وجدناه جالساً في حلقة المذاكرة ، فجلسنا في

نهاية المستمعين لازدحام الخلق ، وبعد الانتهاء من الدرس ، اشار الينا بيده فاقتربنا منه وسألناه ، فذكر لنا الحديث الشريف الذي اخرجه ابو الشيخ في – العظمة – والبيهقي في – شعب الايمان – عن انس رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ انه قال : « ان الله وكّل بعبده المؤمن ملكين يكتبان عمله ، فاذا مات قال الملكان اللذان وُكّلا به : قد مات فأذن لنا ان نصعد الى السماء ، فيقول : سمائي مملوءة من ملائكتي ، يسبّحونني ، فيقولان : انقيم في الأرض ؟ فيقول : ارضي مملوءة من خلقي يسبحونني ، فيقولان : فأين ؟ فيقول : قفا على قبر عبدي المؤمن فسبّحاني وكبراني واكتبا ذلك لعبدي الى يوم القيامة » ثم قال لها سيدي الوالد : ومصير الملائكة الموكلة بحفظ الانسان كمصير هذين الملكين والله اعلم [1] .

وسأله الشيخ – علي ميري – مفتي (عكا) يومذاك ، عن معنى قوله تعالى في الآية الكريمة (فإنْ كُنْتَ في شَكٍّ مِمَّا أنزَلْنَا إليكَ ، فاسأل الذين يَقرأونَ الكتابَ مِنْ قبلِكَ ، لَقَدْ جاءكَ الحَقُّ مِن رَبِّكَ فلا تكُونَنَّ مِنَ المُمْتَرِين) وهل يوجد عند رسول الله ﷺ شك ؟ فأجابه شيخنا رضي الله عنه : نبينا محمد صلوات الله وسلامه عليه ، لا يوجد عنده شك قطّ ، الشك عند قومه ، والخطاب موجّه اليهم ، فالحقُّ سبحانه وتعالى ، يخاطب القوم بواسطة سيّدهم .

التدخين

سُئل رضي الله عنه عن التدخين وسبب كراهيته فقال :

التدخين منافٍ للحكمة الالهية ، لأن الحق تبارك وتعالى ، جعل حياة الانسان بين نفَسَين ، داخل وصاعد ، فالنَّفس الداخل يؤخذ من

(١) سئل ابو الفضل شهاب الدين السيد محمود الألوسي في روح المعاني في تفسير سورة – ق – فذكر الحديث (وجاء انه : يلعنان الى يوم القيامة اذا كان كافراً) .

الفضاء بارداً نقيًّا ، فيه الحيـــاة ، والنَّفس الصاعد يخرج حارًّا ملوّثاً ، وبواسطة التدخين ، يأخذ الانسان النفس حـاراً ، فيتسرب منه شيء إلى الاقنيـة الشعرية في الرئة ، ومع طول المدة تحصل فيهـا يُبوسة ، تحدث عنها امراض ، وبإرادة الله وقضائه تكون سبباً لوفاته .

رمز في السلوك

وذات يوم كان يذاكر رضي الله عنه جماعة من اخواننا فقال : عندما يحلّق طير النسر في الفضاء يشكّل باجنحته شبه دائرة كحلقة الذكر ، وهو كلما عـلا بسط جناحيه وارتاح ، حيث يأخذ حكماً مـــن العلوّ ويظل هكذا حتى يبلغ أعلى مقام من الاحكام فيرتاح راحة تامة ، قـال الله تعالى (رِزقُـكُمْ في السماء وما توعدون) ومع هذا أتعلمون مـا الذي يَنزلُ بهذا الطير من اسمى مرتبة إلى اسفل ؟

إن الله سبحانه وتعالى منح النسر حدّة البصر ، فانه يرى أدق الاشياء على الارض وهو في الاجواء ، وانمـــا هي الشهوة التي تهبط بـه إلى الحضيض ، أتعرفون كيف ذلك ..؟

حين يكون النسر مرتفعاً ، يقع بصره على جيفة في الارض فيسقط عليها دون وعي ، وبعزم هائل بحيث لو صـادف في هبوطه ذاك شجرة لأهاضت جناحه ، او عوداً لاقتلع عينـــه ، او صخرة لحطمت رأسه ، والسرّ في امره هو انقياده للشهوة وميله إلى المادة .

نهيه عن الدعوى

كان سيدي الوالد ، رضي الله عنه جالساً في التكية يذاكر الفقراء ، وينهاهم عن الدعوى ، فقال : (المدعي يأتي بشهود يشهدون له ، وهذا ابن الفارض قد جـــاء بأربعة شهداء واربعة مزكّين ، فصاروا ثمانية ، حين قال :

سُهادي ووجدي واكتئابي ولَوعتي وحزني وسقمي واصفراري وادمعي

وانتم ما زلتم في المرتبـــة الانسانية بواسطة الادراك ، فاذا وضعنا احدكم في بيت ، واقفلنا عليه الباب ، وتركناه بلا طعام ولا شراب ، فهل يستطيع ان يعيش فيه بلا غذاء ؟ وهل يستطيع الخروج من ذلك البيت والباب مقفل ؟ ولو وُضع رجل منكم في بئر في بستـــان ، هل يستوي عنده البقاء في البئر كما لو كان يدور في البستان ؟ ان اقل مرتبة يحصل عليها من يدّعي التوحيد مرتبة الكشف عن القلوب ، لا عمّا وراء الجدران كما تفعل السحرة ، لأن طبـــائع النفوس البشرية ، تختلف عن بعضها ، فهي كصوَر الحيوانات ، فمن النـــاس من طبعه كالكلب فهو كثير الكلام (إنْ تُقبِلْ عليه يَلْهَثْ أو تَترُكهُ يَلهَثْ) طلبـــه الجيفة (اي الدنيا) ومنهم من هو كالحية تراه ليّن القول ، فاذا دنوت منه او لمسته باقل شيء يظهر الك العداوة ويؤذيك ، ومنهم من لا همّ له إلا الأكل والنساء ، ومنهم من لا يؤتمن على شيء لأن من طبعه الفسق والفساد وتخريب البيوت ، والعياذ بالله وهكذا . اما اهل الله فهم كالجياد ، سبّاقون الى المعرفـة والحقيقة والعمل الصالح ، فإياكم ان تدّعوا ما ليس فيكم ، فهذه اوحال .

* * *

كان السيد مصطفى السعدي يقرأ في كتاب التوحيد ، فسأله والدي رضي الله عنه عما أجمعت عليه الأئمة الأربعة ، فأجابه قائلًا : لا إله إلا الله ، فقال سيدي الوالد : لا إله إلا الله لا شك ولا ريب ، ولكن لا يُنسب الى التوحيد إلا من يقول : لا إله إلا الله محمد رسول الله . وسأل الشيخ « اسماعيل الطوباسي » ما هو شهودك ؟ فسكت الشيخ إسماعيل فقال سيدي الوالد : ما في شهودك إلا الله ، أليس كذلك ؟ قال : بلى ، قال والدي : اهل الكتاب يقولون : (ما في إلا الله) . وأنا أقول لا إله إلا الله محمد رسول الله وشهود الحضرة المحمدية إثبات شريعته الغراء ، لذلك أقول : أنا ما عندي

إلا محمد رسول الله ﷺ . قال عليه الصلاة والسلام : (كنتُ نبيـاً وآدم بين الماء والطين)[1] وكل واحد من الأنبياء الذين ظهروا قبل النبي ﷺ ، كان يعلم علم من قبله من الأنبياء ، وعلم وقته ، فلما ظهر نبينا محمد صلوات الله وسلامه عليه ، علم ما كان عليه الأنبياء قبله وما ستأتي به الخلفاء بعده ، ولم يُبق لأحد شيئاً يأتي به ، فكان خاتم الأنبياء الجامع ، فقد خُتمت به مرتبة النبوة وظهرت منه مرتبة الولاية ، وكل وليٍّ يظهر في الوجود يعلم علم ما كان عليه الانبياء والاولياء قبله وعلم وقته ، اما خاتم الولاية فهو على قدم محمد ﷺ ، لانه لمحة من ذلك النور المحمدي الكلي الجامع ، فهو نور من انوار رسول الله ﷺ ، وبه تختم الولاية الواسعة ، ومن بعده لا يخلو الكون من رجل يكون للعموم ، لا تختص به جماعة دون آخرين ، ويكون مستوراً عن الجميع .

* * *

كان سيدي الوالد جالساً في (التكية) والسيد ـ محمد الانطكلي ـ جالس لا يتكلم ، فقال له والدي : ما هذا الجمود ؟ لمَ لا تتكلم ؟ فأجابه : لست قادراً على التكلّم ، فإن اخواننا اغنياء في الطريق ، وأنا فقير بينهم ، فقال سيدي الوالد :

لقد وهبَنا الله عقلاً ، وشرَع لنا صراطاً مستقيماً ، نسلك فيه ، والشرع لا يحْكم على من لا عقل له ، فيجب ان تُجبر نفسك على الطاعات والعبادات (وتُبَحْبِحَهَا) بالمباحات ، وتحذّرها وتزجرها عن المحرّمات . قال محمد الانطكلي : أخشى إن انا وسّعت عليها بالرخص ان تقوى عليّ . فقال والدي : لا لا ، أُنظر هذه أُبنتي الصغيرة ـ مريم ـ ، إنها حين تنتبه من نومها في كل صباح ، تشير بيدها الى جهة المسجد وتقول : الله اكبر الله اكبر ، فنحن مجبولون في الدين منذ نشأتنا .

وماذا قال سيدي ابن عطاء الله في الحكم ؟ قال : (لا تصحبْ

---

(١) ولهذا الحديث رواية ثانية «كنت نبياً وآدم بين الروح والجسد» اخرجه احمد والبخاري .

من لا يُنهضُك حالُه ولا يدلُّك على الله مقاله) ومن الذي يُنهضك حاله ويدلّك على الله مقاله غير شيخك أو إخوانك في الله ؟ ولئن تعذّر عليك الاجتماع بشيخك والاستماع اليه وإلى إخوانك ، فعليك بمجالسة علماء الوَرَع .

* * *

وحدثني اخونا العارف بالله سيدي خليل الكردي ، فقال :

في اثناء تجريدي في الزاوية ، خطر لي ان اتريّض بالصيام ، فأطوي اربعين يوماً بلا طعام ، وبدأت اعوّد نفسي فأصوم ثلاثة ايام وفي مساء اليوم الاخير افطر على حبّات تمر ، حتى ظهر عليّ الضعف والاعياء ، فذهبت استشير حضرة سيدنا ، فلما ذكرت له امر صيامي ، نظر إليّ وقال : (من قال لك ان تفعل هذا ؟ وهل يأمرك دينك بذلك ؟) فسكتُّ واستشعرت الندم ، فقال لي : تعرف يا بنيّ ، هي النفس تدخل على الفقير من كل باب حتى من باب الطاعات فتحسّن له عمل شيء ما ، فالواجب على الفقير إذا ورد عليه خاطر ان يعرضه على شيخه فإن اذن له به فعله وإلا فلا ، وإن كان الشيخ غائباً فليتحدث امام الخلق ويقول لهم نفسي تأمرني بكذا وكذا ، هنالك تفرُّ الخواطر وتنكسر النفس . وما ضَبط العارفون نفوسهم إلا بهذا ، فلو تحدث الفقير عن نفسه الى اخوانه لوجد فيهم اخاً رشيداً يُنهِض همته بجانب الله ، ومَن يعظم شعائر الله فانها من تقوى القلوب .

ومن مذاكراته ، رضي الله عنه ، عن مراتب النفس البشرية ، قوله :

مراتب النفس سبعة : امّارة ، ولوّامة ، ومُلهمة ، ومطمئنة ، وراضية ، ومرضية ، وكاملة . فالنفس الامارة ؛ هي التي تأمر صاحبها بمتابعة هواه ومخالفة اوامر دينه ، فيبيع آخرته بشهوة صغيرة ، قال الله تعالى في كتابه العزيز (إنّ النّفس لأمّارةٌ بالسوء) . والنفس اللوّامة للمؤمن ، لأن القلب الميت لا يحس بطاعة ، ولا بمعصية ، وقلب المؤمن

حيّ ؛ فأذا اطاع المؤمن ربه تنعَّم قلبه ، وان عصاه تألم فلامته نفسه لتردّه الى الطاعات ، على ان للنفس اللوامة اشياء من الامّارة ، ولذلك قال تعالى (ولا اقسِمُ بالنفسِ اللوّامة) .

الملهمة ؛ هي التي (ألهَمَها فُجورها وتقواها) لبعدها عن مقام الثبوت والتمكين ويلزمها الاجتهاد والتصفية ؛

اما النفس المطمئنة ؛ فهي في اول درجة من الكمال ، انما يلزمها ان تكون راضية مرضية في جميع الاحكام ، هنالك يكون صاحبها محموداً بترقيه بعد ان كان حامداً قال تعالى (يا أيَّتُها النفسُ المطمئِنّةُ ؛ أرجعي إلى ربّك راضيةً مرضيّة ؛ فادْخلي في عبادي وادخلي جَنّتي) .

وأما النفس الكاملة ؛ فهي في اعلا مرتبة في العبودية ، ويكون صاحبها من اهل الشهود والعرفان والوصول الى الله تعالى ، قائماً بوظائف ربوبيته سبحانه ظاهراً باطناً ، بعد ان اغلق جميع الابواب على شيطانه ، ولم يجعل له عليه سلطاناً ، (ولِمن خافَ مقامَ ربّه جنّتان) .

تأديبه الفقراء بالهجر

كان في عكا مريد لحّام ، وكان له جار ثري أقام في يوم فرحاً بداره ، فدعاه في جملة من دعا ، وقيل ان صاحب الدار قدّم لبعض المدعوين خمراً ، وبلغ الخبر أسماع شيخنا رضي الله عنه ، فأمر بهجر المريد اللحام ، وسمعتْ سيدتي الوالدة ما دار من حديث عن الرجل ، فجاءت الى شيخنا تقول :

تُرى ، ألم يكن غير ذلك اللحام ممن حضروا ذلك المجلس ؟ او لم يظهر سواه بين اولئك الناس ؟ فأجابها رضي الله عنه : من المؤكد انه هو الذي يجب ان يظهر امره لاجل نسبته الى الطريق ، لان الذي يلبس الثوب الأبيض فإن أقل شائبة تلحق بذلك الثوب تعيبه ، واما الذي يلبس الثوب الاسود فما من شائبة تؤثر فيه .

التأديب الروحي المعنوي

حدثني جماعة من إخواننا ، وحدثتني سيدتي الوالدة حفظها الله فقالوا : كان الشيخ عبده الحمصي الدمشقي المقرىء الشهير المعروف ، يجلس بين يدي شيخنا في الزاوية في أثناء زيارته له ، وكان الشيخ المذكور قد نظم عدة أناشيد صوفية ولحنها ، فسأله شيخنا عن مبلغ علمه بفنون الشعر وكيف تسنّى له ذلك فأجاب : ربما لان لي معرفة بعلم النغمات والالحان ، وعندها نادى شيخنا على السيد « ابي سعيد القاضي » وقال له : اذهب وأقفِل النافذة التي وراء الشيخ عبده وأرخ الاستار ، فالشيخ عبده معه (برد) ومن ذلك اليوم انقطع الالهام عن ذلك الشيخ ، وقضى مدة لا يستطيع ان ينظم شعراً ، لا قصائد ولا موشحات ولا اناشيد ، حسب عادته منذ ان تشرف بأخذ طريقتنا ، فندم لانه أساء الادب مع شيخه بعدم اعترافه بفضل الطريق عليه وفضل الذكر ، وكان يسكن دمشق آنذاك ، ثم رجع الى عكا زائراً تائباً مستغفراً الله تعالى ، وهناك استطاع ان ينظم هذا النشيد الرائع الذي أنشده بين يدي سيدي الوالد ، وقد اشار فيه بتوسله كي تُفتح له الابواب وترفع الاستار ، وبعد هذا النشيد فتح الله عليه ورجع الى حالته الاولى كما كان .

* * *

لاح برق الذّات من ذاك اللّوى ... مذ ظهرْ حُبّي
وبه قد زال عن عيني السوى ... وانجلى قلبي
فانشدي لي يا سليمى بالنوى ... ساعة الشربِ
لذّ لي التمزيق يا اهل الهوى ... في هوى الغربي

★

يا نَدامى كل من يصحبنا ... ما عليه باسْ
نحن سكرى والهوى مذهبنا ... والطّلا والكاس

سار في بحر الصفـــا مركبنا ريحه الانفـــاس
ليس يدري في الورى مشربنا غـير ذي القلبِ
لذّ لي التمزيق يا اهـل الهوى في هوى الغربي

★

يا سراجَ الكون يا شمس الكمال إن جسمي ذاب
نوّرِ القلب بمصباح الجمـــال وافتـح الأبواب
واسقني من خمر كاسات الوصال شربة الأحبـاب
انت حسبي انت سؤلي والمآل يا ضيـــا ربي
لذّ لي التمزيق يا اهـل الهوى في هوى الغربي

★

يا رجـال الغيب يا سرّ الجليل انـتم الاقمـــار
ان عبد القـادر الحمصي الذليل نحوكم قـد سار
اسعفوه بالرضا يا آل الجميـــل وارفعوا الأستار
حيث من اطفالكم هـذا العليل مُكْلَم القلبِ
لذّ لي التمزيق يا اهـل الهوى في هوى الغربي

★

صلّ يارب وســـلم كل حين عالنبي المختـــار
معدن الأسرار كنز العارفين مصـــدر الأنوار
رحمـــةً ارسلتـــه للعالمـــين من عذاب النـار
وعلى اصحابـــه اهـــل اليقين حبهـــم حبي
لذّ لي التمزيق يا اهـل الهوى في هوى الغربي

☆ ☆ ☆

نفحة الرهبة

ذات يوم، طلب سيدي الوالد من مريده الشيخ (محمود ابي الشامات) ان يشرح تائيّة شيخنا سيدي – محمد وفا بحر الصفا – رضي الله عنه ،

وجلس الشيخ – محمود – في إحدى غرف الزاوية ثلاثة ايام متوالية ولم يفتح الله عليه بشيء ، وفي صباح اليوم الرابع دخل عليه شيخنا رضي الله عنه ، وما ان وقع نظره عليه حتى هبط عليه الالهام ، فنظم هذا النشيد اولاً ثم بدأ بشرح – التائية – .

***

عمّ التجـلي وانستَترتْ بنوره ... وتفجّرت عينـاي من مكنونهِ
والحقّ أسفر عـن حقيقة ذاتـه ... حتى بدت أثمـارهُ بغصونـه
لا تستروا وجه الحبيب بظل مَن ... لولاه ما كانت ظلال عيونـه
تلك الظلال وإن تكن مشهودةً ... لكن بحكم النور لا من دونـه
الله اكبر من حدوث عوالمي ... أو من شهود الظل في مسجونه
تالله لا غـيراً أرى لي مؤنساً ... لا والذي افنى الجميع بنُونـه
جاء الخِطابُ من الكتاب مؤيداً ... حال الفقير مُشاهداً بشجونـه
فالحمـد لله الذي أنا مُظهـرٌ ... مُتعَيّنٌ مُتَفَنّنٌ بشئونـه

عطفه على المريد الفقير الحال

وكان رضي الله شديد العطف على المريد الفقير الحال ، يحيطه بصنوف الرحمة والتقدير لما يبذله ذلك الفقير في سبيل الله ، فكان يأخذ تلك القروش القليلة التي يدفعها الفقير المعدِم لذاته الكريمة ، ويترك ما يقدّمه بقيـة المريدين لينفق على الزاوية ومصالح ابناء الطريق .

حدَث مرة ان جمع إخواننا في (صفد) مبلغاً من المـال للزاوية ، ولما همّ الرّكب بالرحيـل ، إذا بامرأة من إخواننا تُدعى – ام حامـد شطاره – (وهي فقيرة) تدخل عليهم وترجوهم ان يتريّثوا لبينا تذهب وتعود ، لعلّها تستطيع ان تدبّر بعض قروش ترسلها معهم ، لكنهم رحلوا دون انتظارها ، ولما لم تجـدهم لحقت بهم مشياً على الأقدام الى ان ادركتهم في قرية (عين الزيتون) ، بالقرب من (صفـد) ، فأعطتهم

(زهراوي) (عملة تركية قيمته ربع مجيدي تركي في عهد الدولة العثمانية) وخاف الرجل الذي يحمل المال اللصوص وقطّاع الطرق ، فلم يفتح الحزام ليضع (الزهراوي) فيه ، بل اسقطه في جيبه ولم يهتمّ لأمره ، وبعد ان وصلت القافلة (عكا) ، دخلوا على سيدي الوالد ، وهو جالس بين حشد كبير في الزاوية ، وقدّموا اليه المبلغ فلم يستلمه منهم ، وأمرهم ان يسلّموه الى السيد - مصطفى السعدي - وكيل الزاوية حسب العادة ، لينفق عليها وعلى الفقراء . وكان ان نسي الرجل الذي احضر المال قصة المرأة و (الزهراوي) ومضى ليأخذ مكانه في المجلس ، فإذا به يسمع صوت شيخنا يناديه ويسأله بقوله : أين الزهراوي الذي أرسلته لي المرأة الفقيرة ؟ (انا حاجتي فيه) فكاد الرجل ان يُصعق من هول الموقف ، واندفع يقدّم الامانة الى سيدي الوالد ويقبّل يديه ويطلب الصفح ويعتذر اليه ، فأخذ شيخنا (الزهراوي) ووضعه في جيبه ، ويوم رجع الركب الى (صفد) ، هرع الرجل الى المرأة يزفّ اليها البشرى ويحدّثها بما كان ، وكيف ان سيدي الوالد اهمل امر النقود الكثيرة واهتمّ بها ، فبكت فرحاً وسروراً .

عطفه على الطير

حدثني أخونا الشيخ عبد الرازق القاضي ، قال :

كان شيخنا رضي الله عنه ، لا يرضى بسجن الطير ، فإذا وصل الى الزاوية شيء من أنواع الطيور أمر بذبحها حالاً او بتسريحها في فضائها الارحب . وذات يوم اهدى احد اخواننا لسيدتي مريم كريمة شيخنا طيريْ « حجل » ، وكانت طفلة صغيرة جداً فسُرَّت بها . وفي اليوم الثاني لم تجدهما فجزعت وبكت ، فقلت لها : لقد ذهبا الى اهليهما ، وغداً او بعده يعودان الينا ، وبعد يومين ابتعت لها حجلين أتيت بهما اليها وبادرتها قائلًا : ها هما قد رجعا ، فسرت سروراً عظيما . واثناء حديثي معها

شرف شيخنا وقال لي : ما هذا ؟ هل جئت بحجلين لمريم ؟ قلت : نعم يا سيدي ، قال : الصيادون عندنا في بلاد المغرب أقدر على الصيد من اهل هذه البلاد ، وطريقة صيد الحجل عندهم ان يأتوا بطير حيٍّ في قفص ، فيضعوه على تلٍّ عالٍ ، وينصبوا الشراك حوله ، ثم يضعون في كل شرك حبًّا ، وتسمع الطيور صوت الطير الحي ، فتأتي وتأكل من الحب فتقع في الشرك ، وهكذا عمل الشيخ بكم ، نصب لكم الشرك ووضع فيه حبّة الحُبّ ، فجاء طير القلب ورآها فألقى بنفسه عليها ، فأنتم جميعاً قد وقعتم في شرك الشيخ ، قال عندها الشيخ عبد الرازق : لا خلّصنا الله من هذا الشّرَك . وفي اليوم الثاني امر شيخنا بذبح الطيرين الجديدين ، او ان يُطلق سراحها في الفضاء .

عطف على الحيوان

كان رضي الله عنه شديد الرفق بالحيوان ، لا يستطيع ان يرى احداً يضرب حيواناً ، او ان يحمّله فوق طاقته . وذات مرةٍ فقدَ جوادٌ من جياد الزاوية بصره بعد ان استخدِم مدة من الزمن ، فأراد اهل معاصر الزيت شراءه ليدير دولاب المعصرة ، ولما اراد الفقراء بيعه ، علم شيخنا بالأمر فمنعهم من ذلك قائلًا : إنه فقد بصره في الخدمة فلا يصح بيعه ، بل يجب ان يبقى في الاسطبل يُعلف مدة حياته جزاء خدمته السابقة وشفقة عليه من العناء والتعب .

الإنسانية الروحية

حدّثني جماعة من إخواننا ، حدّثتني سيدتي الوالدة ، قالوا : ذهب شيخنا رضي الله عنه وزوجه السيدة — ام محي الدين — وولدهما — محي الدين — الذي كان يومئذ في الربيع السابع من عمره الى مدينة — القدس — لزيارة الحرم الاقصى بدعوة من مريديه ، وهناك دعاه

احد اعيان المدينة الذين تلقوا الطريقة الشريفة عنه الى بيته ، – وإني امسك عن ذكر اسمه احتراماً لارادته – وكان في ذلك البيت جارية سوداء ، ولها طفل صغير مريض لا يتجاوز العام الثالث من العمر ، يدعى جوهر ، وقد أسرّ صاحب البيت الى شيخنا قائلاً : ان هذا الطفل الاسود المريض هو ولدي ، وأمه الجـــارية ملك يميني ، لكنني لا استطيع الاعتراف بذلك ، وأنا شيخ كبير ، خوفـاً على الطفـــل من ابنائي وزوجي ، ولذلك فإني اقدّمه رفيقاً لسيدي محي الدين . وحين رجع سيدي الوالد الى (ترشيحا) كان الطفل معه ، فنشأ في رحاب الزاوية ، تحت كنف سيدي الوالد معزّزاً مكرّماً ، فكان اخاً ورفيقاً لأخي السيـد – محي الدين – ، فلما بلغ مبلغ الرجال اشتراه شيخنا من الجندية ، ثم زوّجه ووهب له قطعة ارض و (وكرم زيتون) وبيتاً صغـــيراً في قرية (الـكابري) ، وقدّم له كل ما يحتاجه ، ليعيش مستقلاً في بيته ، مع أسرته وأولاده ، وقد عاش – جوهر – متفانياً في حب شيخه وفي خدمة الطريق وأهله ، وكان من أكابر اخواننا العارفين بالله ورسوله ، وقد رأيته في اواخر ايام حياته ، يوم ان كان يأتي لزيارتنا ، فسألته مرة عن نسبه وهل يعرف انه من الاشراف ؟ فأجابني قائلاً : كفاني فخراً انني اعدُّ نفسي عبداً وخادماً لأبيك ، فهو ابي وأمي واهلي وعشيرتي .

* * *

وكان من جيران الزاوية العلامة الكبير الشيخ – اسعد الشقيري – الذي تولى مناصب علميـــة رفيعة في حكم الدولة العثمانية وحكم الاتراك الاتحاديين ، وكان بيته أمام زاويتنا (في نفس الشارع) ولم يكن الشيخ – اسعد – شاذلياً او من ابناء الطرق الصوفية ، لكنه كان محباً للسادة الصوفيـــة وخاصة لسيدي الشيخ الاكبر – محي الدين بن عربي – رضي الله عنه ، قال لي :

لما عزمت على السفر الى – استانبول – ، لطلب وظيفـــةٍ ما في

القضاء او الحقّانيّة ، لم اكن اطمع يومذاك بمقابلة احد من سلاطين آل — عثمان — او نيل منصب رفيع في الدولة ، وقد ذهبت لوداع والدك قبل السفر فدعـا لي بالتوفيق والنجاح ثم قال : بلّـغ السلطـان تحيتي ودعواتي ، فقلت في نفسي : لعل سيدنا يريد ان يبعث الطمأنية الى نفسي بقوله هـذا ، وسافرت على بركة الله تعالى ودار الزمن وإذا بي موظف صغير في — مكتبة قصر يلدز — فقضيت ستة اشهر ، ولم يحضر اثناءها السلطان — عبد الحميد — الى المكتبة ، فوجدت المجـال فسيحاً امامي فعكفت على دراسة اسماء الكتب الموجودة في المكتبة ، وعرفت موضع كل كتاب دون ان احتاج الى مراجعة السجل او الرقم .

وذات يوم حضر السلطان واذا بـه يطلب من الأمين العام كتاباً سمّاه له ، وذهب الرجل لتوّه وفتح الدرج الذي فيه الرقم ، فتغير وجه السلطان ونظر اليه شزراً ، وعندها اغتنمت الفرصة فرفعت يدي بالتحية واشرت اليه اني اعرف مكان الكتاب ، فقال : اسرع وائت به إليّ ، وسرعان ما تناولته وقدمته اليه ، فانقشعت الغمامة عن وجهـه وسرّ سروراً عظيماً ثم ناداني ، فوقفت بين يديه واخذ يسألني عن اسمي وبلدي واهلي ، ثم انعم عليّ بمبلغ من المـال ؛ وحين همّ بالعودة ذكرت قول والدك فرفعت يدي بالتحية ، فوقف السلطان وقال اتريد شيئاً آخر ؟ قلت عندما غادرت بلادي ، لم اكن اطمع في ان انشرف بالمثول بين يدي مولانا (البادشاه) على ان سيدنا الشيخ علي نور الدين اليشرطي الشاذلي في — عكا — ، قال لي ، ساعة الوداع ، (بلّـغ مولانا السلطان تحيتي ودعواتي) قال الشيخ اسعد : وعندها رأيت السلطان — عبد الحميد — يرفع يديه الى رأسه ويرد التحية ويقول : وعليه السلام ، وعليه السلام ، وعليه السلام ، وبعد ايام رُقّيت الى وظيفة مدير عام للمكتبة في — قصر يلدز — وعُيِّنت عضواً في المشيخة الاسلامية .

* * *

وذكر لي الشيخ ـ اسعد ـ حادثة اخرى ، قال : على اثر عودتي من ـ مصر ـ مرضت ، وذات يوم ارتفعت درجة حرارتي ، فتناولت كتاباً وجدته في المكتبـــة لأطالع فيه ، وكان كتاب الانسان الكامل لسيدي ـ عبد الكريم الجيلي ـ ، فلما فتحته وقع نظري على هـذه الجملة (انا هو وهو انا) . فجعلت اردّدها ولم أقو على المطالعـــة ، فأعدت الكتاب الى محله السابق ورجعت الى السرير وانا اردد قول ، انا هو وهو انا ، وما كدت استلقي على فراشي حتى اغمي علي ، فصـــاحت والدتي وهرع الناس الذين في البيت والشارع يتساءلون ، ولما صحوت فتحت عيني وجعلت انظر الى من حولي في الغرفة ، فرأيت سيدي والدك واقفاً فوق رأسي وهو يبتسم ويقول لي : لو كنتَ أنت هو وهو انت ما كان ليعتريك المرض .

الحياة

الصوفية الانسانية في البيت

يا الهي

يا إلهي بهم | مَنَّ في قربهم | حزتُ من حبهم[1]
| كل عزٍّ وشان |
عصبة المصطفى | انجمٌ لا خفا | قد حباها الوفا
| من رفيع المكان |
نورُ حبّي ظهر | في جميع الصُّور | يا أهيل النظر
| بادروا للعيان |
يا أُهيل الهوى | زال عني السوى | صار سمعي هَوَى
| ويدي واللسان |
كنت قبل السُّطور | خافياً في الصدور | واجتباني الظهور
| من بحار البيان |
هِمت في قِبلتي | داخلًا جنتي | بشّروا إخوتي
| صرت فردَ الزمان |
وحّدوا ربكم | حقّقوا قربكم | مكّنوا حبكم
| من عليّ الزمان |
وصلاة القديم | على الرؤوف الرحيم | مَن هواه مقيم
| في الحشا والجَنان |

* * *

الحياة الصوفية الانسانية في البيت

كانت حياتنا في البيت على عهد سيدي الوالد رضي الله عنه حياة رغد وسعادة وهناء ، حياة سهلة بسيطة غير معقدة ، مشرقة بنور الايمان والعمل الصالح ، حياة ثقافة وتصوف وعبادة ومكارم اخلاق .

لقد كان رضي الله عنه مظهراً ذاتيًّا اقدس ، متخلقاً باخلاق رسول

(١) من اناشيد مجالس القوم للشيخ عبده الحمصي الدمشقي

الله ﷺ ، سائرا على اثره جامعاً لمراتب كمالات الوجود الظاهرة والباطنة ، لا يعطل مرتبة منها ، ويعطي كل ذي حقٍ حقه .

فهو وارث محمدي اكمل ، يغرف من فيض بحر إلهي ، ومرشد مربٍّ كامل ، وابن بارّ بوالديه واهله ، وزوج كريم صالح نبيل ، واب عطوف رحيم ، وإنسان تشمل إنسانيته الانسان والحيوان بالعطف والرحمة .

تزوج في ادوار حياته اربع مرات ، لكنه لم يجمع بين امرأتين او ثلاث في زمن واحد قط ، لقد كانت له زوجة واحدة ، فاذا توفيت او طُلقت تزوج امرأة غيرها .

لم يقرب الجواري ملك اليمين كما اباح له الشارع ، وحسب عادة اهل ذلك العصر ، ولم يمسهن ابداً ، بل كان يعاملهن بمنتهى الرحمة والعطف الأبوي الصادق ، لا فرق بينهن وبين إحدى بناته ، وكان يعتقهن ويزوجهن فيقضين حياتهن تحت رعايته .

وكان رضي الله عنه يحترم المرأة ، ويعرف ما لها من حقوق وواجبات ، ويعمل على رفع مستوى مداركها وثقافتها ، فعندما تزوج سيدتي ووالدتي العابدة العارفة بالله ورسوله حفظها الله وادامها ، بعد وفاة زوجه السابقة – السيدة الجليلة خديجة توسيز – ، كانت والدتي امّية لا تقرأ ولا تكتب ، فاستدعى لها مدرّسة خاصة تعلمها القراءة والكتابة ، وكان يلقي عليها بعض دروس بسيطة في الفقه والحديث والتصوف وغير ذلك ، وشجعها على العمل والخدمة ، في سبيل الله والسير والسلوك في طريق الكمال . وهكذا بلغت في رقيها الروحي الانساني اعلى المراتب الالهية بفضل ذلك التوجيه والمدد .

ولم يكن اهتمام سيدي الوالد رضي الله عنه برفع مستوى المرأة الثقافي الروحي ، مقتصراً على أزواجه وبناته وحفيداته فحسب ، بل كانت تُقرأ في بيتنا دروس دينية يومياً يحضرها السيدات فقط . وكان رضي الله عنه

يختار الكتاب والموضوع ، ثم يأمر السيدة الفاضلة العارفة المحققة ام اسماعيل الخالدي الدمشقية ، بإلقاء تلك الدروس . وكثيراً ما كان يشرّف المجلس فيشرح لهن ، وكان من المفروض على كل من في بيتنـــا من السيدات والمتجردات والزائرات والجواري ، ان يحضرن الدرس الديـني . إذ لم يكن في بيتنا خادمات بالأجر ، وكان بعض السيدات الصالحات من اهل المدينة يحضرن تلك الدروس للاستفادة منها .

وفي شهر الصيام المبارك ، كان يعين لنا إماماً شيخاً مسنـاً فاضلاً ، يصلي بنا صلاة العشاء الأخيرة وصلاة قيـــام شهر رمضان (التراويح) جماعة ، فيجتمع عندنا في البيت جمع غفير من سيدات المدينة لتأدية هذه الصلاة طوال ليالي ذلك الشهر الكريم .

وكان من المفروض على كل نساء بيتنا حتى الاطفـال تأدية الصلوات الخمس في كل يوم . وعلى كل طفل جاوز الربيع السابع ان يصلي ويصوم ويقرأ الوظيفة والأوراد ، وكانت لنا غرفة خاصة لتـلاوة آي الذكـر الحكيم ، ندخلها صباح كل يوم وقد حملت كل واحدة من السيدات (مصحفاً) كريماً بيدها ، وتقرأ إحـــداهن (عشراً) من القرآن الكريم بصوت مسموع ، ثم تقرأ كل منهن ما تيسر منه بصوت خافت هـو اقرب الى الهمس . وبعد ذلك كنّ ينصرفن الى تأدية اعمالهن المنزلية . كما كان يجتمع في زاويتنا نخبة من السيدات الزائرات الفاضلات اللائي يفـدن من البلاد المجاورة . وكان اول من تلقى الطريقة الشاذلية عن سيـدي الوالد رضي الله عنه من النساء في هذه البلاد السيدة « خزنة شُرَيْح » الحسينية حرم احمد بك توسيز ، وهي والدة السيدة « خديجة توسيز » زوجـة سيدي الوالد رضي الله عنه ، وكانت السيدة خزنة قبل مجيء والدي الى الشرق ، ترجو الله دوماً ان يجمعها بصاحب الوقت ، ذلك لانها كانت من العابـــدات الصالحات ، ثم بعد اخذها الطريق نالت الفتح المبين ، فجمعت بين العبادة والمعرفة والتحقيق .

وكان رضي الله عنه يعيش في بيته كما يعيش سائر المريدين ، يصلي ويقرأ الوظيفة ويتلو الاوراد ويشغل نفسه بصنوف العبادات والطاعات ، ثم هو يرشد الناس الى سبيل الله ، ولم ينقطع عن تلاوة الاوراد حتى بعد ان جاوز المئة عام ، فكان يتلوها كما يتلوها الفقير المبتدىء ، وقد سألته اختنا العارفه بالله ورسوله الشيخة — مريم ابو ريشة — فقالت : اما تزال يا سيدي بعد هذه السن وهذا المقام تتلو الاوراد ؟ فأجابها بقوله : كان رسول الله ﷺ يقوم الليل الى ان تورمت قدماه الشريفتان ، بعد ان غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، فلما سُئل عن ذلك قال : افلا اكون عبداً شكوراً ؟!

وكذلك لم يترك رضي الله عنه صلاة قيام الليل والتهجد قط ، حتى في الليلة التي سبقت انتقاله الى دار البقاء .

كان في تلك الليلة يصلي قيام الليل ويتوجه بالذكر الى طلوع الفجر وكان يقضي اوقاته في العبادة ، سواء كان في الليل او النهار (ثم هو يقرأ ما تيسر من آي الذكر الحكيم بعد صلاة الفجر وقراءة الوظيفة وتلاوة الاوراد صباح كل يوم) وكان رضي الله عنه يأكل قليلاً وينام قليلاً ويعيش لله بالله ، ويتناول القهوة الحلوة والشاي ، وينزل الى — التكية — ولا يصعد الى بيته إلا في مواعيد الأكل والنوم ، وقد يتناول طعامه مع اولاده الفقراء ، فهو يقضي معظم اوقاته معهم ، وكان يصلي الفجر معهم في الحرم جماعةً وراء الامام ، فلما جاوز المئة عام كان يصليه في غرفته . وبعد الافطار ينزل الى — التكية — كعادته ، وكان يتريض في الهواء الطلق مشياً على الاقدام ، فيخرج لزيارة النبي — صالح — عليه الصلاة والسلام ، او لزيارة قبر احد الصالحين المسمى — بأبي عتبة — بالقرب من — البهجة — ويوم ان جاوز المئة عام كان يخرج الى البرية في العربة ثم يعود الى البيت .

ولم يستعمل رضي الله عنه التدخين قط ، لكنه كان يضع في انفه

قليلاً من نشوق (التبغ) وقد تمر اسابيع او اشهر دون ان يفعل ذلك ، إذ انه لم يكن مقيداً بالعادات ، وطراز حياته في البيت يدل على نشأته الاولى الارستوقراطية الراقية ، في الهدوء والسكون والنظافة والاهتمام بالأمور الصحية ، واتقان العمل في كل شيء ، والعناية بتثقيف من حوله من الرجال والنساء والاطفال ، ثقافة دينية اسلامية صميمة ، ولكن بتواضع لله وعبودية تامة على الاخلاص الحقيقي بصدق التوجه الى الله تعالى ، مقدراً ما حباه الله إياه من النعم الالهية ، فاذا جلس في غرفته يذكر الله او يتوجه اليه او يتعبد او يقرأ او يطالع ، لا يدخل عليه اثناء ذلك احد حتى ولا زوجه ولا ابنته او حفيدته ما لم يستدعهن اليه ، فهو مشغول ابداً بربه لا تلفته حاجة من حاجات الدنيا والآخرة إلا القيام بأوامر الحق عز وجل ، فيما أقامه فيه في سبيل الهداية والارشاد الى سبيل الله .

وكان عددنا لا يقل عن ستين او سبعين من اهل البيت والزائرات والمتجردات والجواري ، وقد يرتفع العدد الى المئة في كثير من الاحيان بالنسبة لكثرة عدد الزائرات اللائي يفدن من البلاد البعيدة والقريبة . ورغم هذه الكثرة فقد كان البيت يظل هادئاً ، تكاد لا تسمع فيه حركة ولا ضجة اصلاً .

وكان رضي الله عنه يدعو الشيخ « عيداً » المقرىء الضرير ليتلو آي الذكر الحكيم في بيتنا صباح ومساء كل يوم ، ثم يطلب منه ان يهب ثواب ما يقرأه صباحاً لروح والديه رضي الله عنه ، وما يقرأه مساء لروحه هو قدس الله سره مقدّماً قبل انتقاله الى دار البقاء . وفي المواسم كان يقدم (ذبيحة) عن روح والديه عدا ذبائح ضحايا العيد .

وكنا ننام معه في غرفة واحدة ، فكان رضي الله عنه يترفق بنا ويعاملنا بمنتهى العطف الابوي والحنان الانساني الشامل . ثم هو كان يتفقد احوال كل من في البيت من المتجردات والجواري ، ويعمل على

إسعاد كل واحدة منهن ، وكان الطعام الذي يقدم للزائرين في الزاوية وللمتجردين يُطهى في بيتنا وكلنا نأكل من طعام واحد ، لا فرق بين الشيخ والمريد والغني والفقير ، وابنة الشيخ والمتجردة والزائرة ، فالجميع سواء في الطعام والكسوة والثقافة والسلوك في جانب الله تعالى .

وكانت مواعيد الاكل منظمة ، وقد يتعاون آل بيت الشيخ مع المتجردات والجواري في ايام المواسم لاعداد الطعام والخدمة التي هي جزء من العبادة ، لانها خالصة لوجه الله تعالى .

وكان رضي الله عنه لا يمنع واحدة من السيدات من اخذ قسط من الراحة والتسلية ضمن حدود آداب الشرع الشريف ، فبأثناء وجوده في التكية كن يتندّرن ويضحكن وينشدن الاناشيد الصوفية ، شرط ان يجلسن في الغرف البعيدة عن الشارع والتكية ، كيلا تسمع اصواتهن . وكن إذا اردن ان يستمعن الى الاذكار ينزلن الى الزاوية من باب خاص بهن ، يصعدن منه الى السّدة حيث يجلسن فيشاهدن حلق الذكر من وراء حجاب ، دون ان يراهن احد .

ثم هو رضي الله عنه ما كان ليمنعهن من شهود حفلة زفاف في المدينة إن أردن ذلك ، على انهن لم تكن لديهن اوقات فراغ يقضينها في الولائم والافراح إلا قليلاً جداً لكثرة الزائرين والزائرات .

وفي فصل الربيع كن يذهبن الى قرية « الكابري » فيتريضن في البساتين ويجلسن تحت اشجار الليمون والبرتقال . وكذلك كن يخرجن الى البرية للتنزه في مدينة عكا ، وكثيراً ما كنا ننتقل الى الزاوية في حيفا فنقضي هناك اسابيع او اشهراً .

وكان من عادة اهل عكا في ذاك الزمن ، انه إذا بنى احدهم بفتاة غريبة ان تنزل العروس واهلها ايام زفافها في احد البيوتات الكبيرة ، فتقام حفلة الزفاف للسيدات في ذلك البيت ، ولهذا ونظراً لمركز الزاوية ، فقد كانت تنزل فيها الكثيرات من اولئك العرائس حيث كنا نقيم لهن

حفلات ذات صبغة دينية تنشد فيها الاناشيد الصوفية ، ويجتمع فيها جمع غفير من السيدات من اهل المدينة والزائرات ، وفي مساء اليوم الاخير في ليلة القران تذهب العروس صحبة اهل زوجها الى داره محفوفة بالبركة والاكرام .

* * *

وقد رأيت ان اسرد اسماء بعض السيدات العارفات بالله ورسوله ممن تلقّين الطريقة الشريفة عن والدي رضي الله عنه ، وكان لهن شأن في الطريق وهنّ :

الشيخة مريم ، حرم العلاّمة الشيخ مصطفى أبي ريشه ، وقد مرّت عليها (أحوال طريق) بعد انتسابها اليها ، وجذبتها العناية الالهية لحضرة القرب ، وخُرقت لها العادات . وقد اشتهرت بصلاحها وتقواها ، وكانت من أكابر العارفات من اهل الله .

السيدة ام اسماعيل الخالدي الدمشقية ، شقيقة الشيخ سعيد الخالدي الذي أُبعد الى رودس ، صحبة والدي رضي الله عنه ، كانت عالمة فقيهة ، وقد أجازها سيدي الوالد باعطاء الطريقة للسيدات بعد ان تلقتها عنه ، وكانت تقرأ لهن درساً دينيّاً . تجردت في الزاوية

السيدة ام يحيي ، شقيقة الشيخ سعيد الخالدي تجردت في الزاوية

السيدة فاطمة الشهابية ، كريمة الامير حسين والدة الامير نعمان ، المعروفة باسم (فطّوم) الكبيرة تجردت في الزاوية راشيّا

السيدة سلمى الشهابية ، كريمة الامير حسين الشهابي وابنتها ليلى راشيّا

السيدة فاطمة اليوسف ، كريمة احمد باشا اليوسف وشقيقة محمد باشا دمشق

السيدة حفيظة اليوسف ، كريمة احمد باشا اليوسف وشقيقة محمد باشا

السيدة عائشة شاهين ، والدة احمد بك وصالح بك دمشق

السيدة وسيلة ابو الشامات ، كريمة الشيخ محمود ابي الشامات دمشق

السيدة مَروَة البيش ، حرم العارف الكبير السيد عارف ملص[1] دمشق

(١) من اكابر اخواننا السابقين المنتسبين لسيدي الوالد .

السيدة عائشة ام ابراهيم ايبش ، شقيقة دياب آغا دمشق
السيدة سارة ايبش ، شقيقة دياب آغا دمشق
السيدة عائشة مَدوَر ، شقيقة السيد عبد الكريم مدَور دمشق
السيدة زينب مَدوَر ، شقيقة السيد عبدالكريم مدوَر التاجر الكبير دمشق
السيدة ليلى لطفي ، كريمة الشيخ محمد صالح لطفي مقدم (صيدا) صيدا
السيدة ام خليل قدح ، حرم السيد سليم الحفار دمشق
السيدة الحاجة نفيسه كتّوعه ، كانت فقيهة اديبة شاعرة بيروت
السيدة خديجة ، حرم السيد عثمان بليق بيروت
السيدة وسيلة تَوسيز ، حرم الوجيه السيد عبد الرحمن العاقل
شقيقة والدتي . عكا
السيدة نبيهة توسيز ، حرم الوجيه السيد شحاده العفيفي ، شقيقة والدتي عكا
السيدة هند توسيز ، حرم الوجيه السيد حسن السعدي ، شقيقة والدتي عكا
السيدة خديجة السعدي ، كريمة السيد مصطفى السعدي ووالدة
توفيق باشا ابو الهدى عكا

* * *

واول من ذهب الى زيارة سيدي الوالد رضي الله عنه من دمشق وغيرها ، السيدات من آل شهاب ، سلمى ، وفاطمة ، وقوت القلوب ، وبديعة ، وسعاد ، ثم السيدات فاطمة اليوسف ، وشقيقتها حفيظة ، وكريمتها فتنة ومن بيروت خديجة حرم السيد عثمان بليق .

ومن الثابت المحقق ان العارفات بالله ورسوله من اخواتنا اللائي فتح الله عليهن وامدهن بمدد رسول الله ﷺ من ابنـــاء طريقتنا كثيرات ، لا يتسع المجال لسرد اسمائهن جميعاً ويكفي ان نعلم ان سيدي الوالد شهد ان في مدينة صفد اربعين عارفة .

* * *

بالمشهَد العـــالي السَّني دارت كؤوس الاصطفاءْ
والشمس لاحتْ تنثـــني في الكون من بعد الخفاء

* * *

شمس التّداني والوصولْ ردت فروعي للأصول [1]
سَل عنها اصحاب الرسولْ من آمنــوا بالمصطفى
لمّـــا تجلت في الوجود فكَّت عن العبد القيود
واستخلصت اهل الشهود والمبتلي نال الشفـــا
يا صاحب الجـاه العظيمْ قد جـاءك العبد السقيم
انت الرؤوف انت الرحيم انت المذكّى بالوفــا
انت الامـام المنتخَب[2] من عجمهـــا ثم العرب
هب انني اذنبت هبْ حسبي اعترافي وكفى
يا ايهـــا الهادي الأمين يا رحمـــة للعـــالين
من لي على عجزي معين سواك يا َمجلى الصفـــا
يا ربنـــا صلّ دوامْ فضـــلا وانعم بالسلام
على الذي جاء ختـــام للأنبيـــاء الشرفـــا
والآل والصحب الغُررْ منهم ابو بكر القمر
عثمانهم بعـــد عمر عـــليٌّ شمس الخلفـــا

* * *

مشاهد من مراتب الكمال

وكان رضي الله عنه رقيق الحاشيـة متواضعاً لطيفاً يجبر الخـــاطر ، ويعامل الجميع بلطفه المعهود .

كانت والدته رضي الله عنه تسمّى مريم ، وقد انتقلت الى رحمـة الله تعالى قبل مغادرته بلاد المغرب ، وكان يحمل لها اخلص الذكريات، وأسمى آيات الاحترام والتقدير والاعزاز ، فلما ولدت له شقيقتي السيـــدة مريم حفظها الله ، أراد ان يطلِق عليها اسم والدته ، لكنـــه فكر بزوج ولده السيد ابراهيم ، فقد توفيت لهما طفـــلة صغيرة (ابنة اشهر) تدعى مريم ، لذلك رأى ان يسمي شقيقتي خديجة ، وبعد ايام حملها على يديه ودخل بها

(١) من اناشيد مجالس القوم للشيخ عبده الحمصي الدمشقي
(٢) بالوراثة المحمدية

على زوجة ابنه ووضع الطفلة في حجرها وأستأذنها في ان تسمح له بأن يسميها باسم امه العزيزة عليه. فلم تتمالك المرأة ان تدعو له بطول العمر وحفظ ذاته الكريمة. ثم قالت: لقد جبرتَ خاطري، فعملك هــذا من أسمى صوَر الرحمة والانسانية في معاني المواساة وجبر الخاطر.

* * *

وعلى أثر وفاة اخي السيد محي الدين، وُلدَت له بعد موته طفلة دُعيت أنيسة (هي سيدتي العارفة بالله ورسوله انيسة اليشرطية) ولم يترك اخي عقباً غيرها، فكان سيدي الوالد رضي الله عنـــه يحوطها بصنوف العطف والرعاية، ولما كان مريدوا والدي رضي الله عنه يقدّسون ذكرى الراحل الكريم، الشاب المحبوب من الجميع، كانوا يقدّمون لابنتــه انيسة الملابس الحريرية الموشّاة بالفضة، والثياب الثمينة التي تأتيها من وزراء الآستانـة، وغيرهم من الاخوان. وكان في بيتنا فتيات فقيرات ويتيمات في مثل سنها من أترابها، فكان رضي الله عنه يسمح لها ان تلبس الثوب المهديّ اليهـا ثلاثة ايام فقط، وبعد ذلك تلبسه كلٌّ من الفتيات الصغيرات ثلاثـة ايام، ثم يُعطى لامرأة فقيرة محتاجة تبيعه وتنتفع بثمنه. وهكذا كانت معاملته لي فيما يختص بما يأتيني من الهدايا، فهي مِلْكٌ للجميع لا لابنة الشيخ ولا لحفيدته، أما الهدايا التي كانت تصل الى الزاوية فتوزّع عـــلى الجميع على قدم المساواة.

* * *

وكان رضي الله عنـه يحضر دروس تعليمي القرآن الكريم، ليفسر لي الآيات بالطريقة التي يسهُلُ عليّ فهمها، فيحدثني عن سبب نزولها وما لهـا من أثر في التشريع والتاريخ، وما هو حكمها في المعاملات والعبـادات والتصوُّف، يشرحها بطريقة مختصرة مفيدة، تصلح لان يُبنى عليها اساس مستقبلي العلميّ والفكري، في الثقافة الاسلامية والتصوف، وســلوكي في طريق الله جلّ وعلا. ولكثرة رحمته وعدله ومواساته للجميع، أمر ان

تجلس الفتيات الصغيرات اللائي يعشنَ في الزاوية في درس تعليمي القرآن الكريم، ليفدن منه كما أفيد رغم كونهن يذهبن الى المدرسة، وانا لا أذهب اليها؛ فكن يجلسن معي جنباً الى جنب ليسمعن حديثه، وكانت المعاملة لنا سواء.

وعندما كنت ألعب مع أترابي من الفتيات الصغيرات وهو جالس لا يمنعني من ذلك، ويأمرني ان اعامل الفقيرات منهن معاملة الند للندّ، وان اصطحبهن معي في العربة في نزهتي اليومية، ثم هو يلاطفهن ويقدم لهن صنوف الحلوى وبعض النقود.

وكان رضي الله معنيًّا بي أي اعتناء، كان يدرك انه شيخ كبير، وانني طفلة صغيرة وقد ينتقل الى جوار ربه قبل ان اصل الى مراحل التعليم والشباب، لهذا كان يريد ان يوجّهني لناحية العلم والتصوف والعبادة، ويعمل على ان تنتقش تلك الصور الصوفية الرائعة في ذهني الى الابد، فكنت اقضي اوقاتي بصحبة اهل العلم والفكر والرأي والادب.

وقد عهد برعايتي وتربيتي الى شيخ تقي ورع، من المتجردين يدعى «الحاج سليم بليق» من اهل بيروت، ولهذا الرجل قصة طريفة اذكرها هنا: فقد كان رحمه الله من طلبة العلم الشريف في بيروت، وكان شديد الانكار على اهل التصوف، فلما تشذّل والده وأخواه، تألم كثيراً وفاتح والده بالأمر، ثم رحل الى الحجاز لتأدية فريضة الحج، وليعيش بعيداً عن أبيه واخويه، وظل مجاوراً في المدينة المنورة عند قبر النبي ﷺ سنتين، وأدى فريضة الحج مرتين، وفي أواخر السنة رأى النبي ﷺ في منامه، فقال له: يا سليم إن كنت تريد رضاي فاذهب الى عكا لعند الشيخ علي نور الدين اليشرطي الحسني. وسرعان ما رجع اليه وأخذ الطريقة الشاذلية، وتجرّد في الزاوية وتزوج ورُزق أولاداً وهو متجرد، وعاش حياته كلها هناك. وقد أحبّه سيدي الوالد رضي الله عنه وشهد له بالصلاح والفلاح والامانة، فعاش خادماً أميناً لشيخه، متفانياً في حبه، وكان

يحفظ القرآن الكريم عن ظهر قلب ، ويتقن علوم التجويد ، وهو من العارفين الواصلين لحضرة القُرب ، وبعد انتقال سيدي الوالد رضي الله عنه الى دار البقاء ، عاش في بيتنا الى ان توفاه الله .

وكنت يوم عُهد اليه برعايتي وتربيتي في الربيع الثاني من عمري ، فكان يحملني على يديه او في عربة الاطفال الصغيرة ، فيطوف بي في البرية او يذهب بي الى شاطيء البحر ، ثم هو يأخذني معه الى مجالس العلم والمذاكرة ، وحلقات الدرس كيلا يفوته شيء منها . وهكذا نشأت بين العلماء الأفاضل ، فلما بدأ ذهني يتفتح الى نور العلم ، وكنت في السنة الخامسة ، اصبحت مجالسة العلماء محببة إليّ ، بل كنت أفضلها على اللعب مع أترابي الاطفال ، إذ كانوا يقصّون عليّ قصصاً ممتعة لذيذة . هنالك أمر سيدي الوالد رضي الله عنه ان أجلس في حلقات الدروس الدينية الخاصة والعامة مستمعة لافيد منها ، فكنت اجلس (متربعة) على الارض بجانب والدي رضي الله عنه فرحة مبتهجة بقربه ، وكان يصعب علي فهم تلك الدروس العالية ، على ان والدي رضي الله عنه كان يشرح لي الشيء الكثير السهل البسيط منها في البيت ، على انني لطول المدة بدأت أتفهم المعاني ، والاصطلاحات والاشارات شيئاً فشيئاً ، ونشأتْ بيني وبين بعض اولئك العلماء الفضلاء مودة وصحبة ، دامت الى ما بعد انتقال والدي رضي الله عنه الى دار البقاء طوال ايام حياتهم .

وكان رضي الله عنه يُنشّئني نشأة صوفية ويربيني تربية طريقة ، فمنذ ان بلغت الربيع الخامس من العمر ، وأنا أُصلي الاوقات الخمس ، وأقرأ الوظيفة معه وأتلو الاوراد ، وكذلك كان يوقظني لأصلي معه قيام الليل في السحر . وعندما سألته جدتي والدة أُمي ، ماذا تفهم هذه الطفلة من قيامها في الليالي الباردة أجابها : أريد ان تنطبع هذه الصورة في ذهنها الى الأبد .

وعندما كان رضي الله عنه يذهب وبصحبته الحاج سليم الموكّل بتربيتي

الى صلاة الجمعة والعيدين في المسجد ، كنت أرافقهما الى هناك إذ لم أكن أتخلى عن صحبة سيدي الوالد رضي الله عنه ، فكنا نصلي وراء الامام ، وكان يحلو لي ويسرني كثيراً ان أصعد الى السدة وأصلي مع المؤذنين . فقد كان كبير المؤذنين الشيخ عبد المنعم المشلاوي من إخواننا ، ثم هو رئيس فرقة المنشدين في زاويتنا ، وكان صاحب صوت جميـــل ساحر ، فكنت أقف للصلاة بينه وبين الحاج سليم ، وبعد الانتهاء كنا نعود معاً الى الزاوية فينشد لي بعض الأناشيد .

وكان والدي رضي الله عنه يغضب كثيراً إذا اخطأت بعمل له مساس بالدين او بعاطفة إنسانية ، وبعد التوبة والانابة أحصل على رضاه ذلك لأني كنت رغم طفولتي أحس وأشعر وأعتقـــد ان والدي ليس كغيره من الآباء ، وانه من اولياء الله الصالحين ، وكنت جد فخورة بذلك ، فاذا تحدثت عنه فبالتقديس والاحترام .

حدث ان ذهبت يوماً مع الحاج سليم الى شاطيء البحر وكان صائمـاً لله تعالى ، فلما مالت الشمس الى الغروب ، قال هلمي بنا لنعود ، فابيت عليه ذلك وبكيت ، فخضع مرغماً وبقينا الى ما بعد صلاة العشاء الأخيرة ، وعندما رجعنا الى البيت وجدنا الباب مقفلاً من الداخل على غير العادة ، فنادينا الشيخ محمد الرّودسلي الموكل بفتح الباب فأجاب : لقـــد أمرني شيخنا بان لا أفتح لك .

وكنت صغـــيرة فجزعت اشد الجزع وقلت للحاج سليم : الى اين اذهب ؟ فجاءت أختي الكبيرة السيدة عائشة فأدخلتني ، فلما قبلت يـــد والدي رضي الله عنه وأعلنت توبتي ، قال : ألا تعلمـين ان الحاج سليم صائم لله ، ولا يجوز ان يبقى الى الآن بلا طعام ، إذ هـــذا مخالف لأوامر الشرع الشريف . وقد يكون جائعاً ، فإذا لم تكوني انت تشعرين بآلام غيرك ومن يصحبك كشعورك بنفسك وبآلام نفسك ، فلا أريدك ان تكوني ابنتي .

وكانت لوالدتي قريبة وهي طفلة يتيمة من عمري فأرادت والدتي ان تكون الطفلة تِرْبِيَ ، فأبيت وقلت لها : هذه الطفلة سريعة الغضب ولن أحتمل مداراتها ، فغضبت والدتي وإذ بسيدي الوالد يدخل علينا ويسألني ، ما الخبر ؟ فقصصت عليه الأمر فقال : ما كنت أظنك ترفضين عملاً إنسانياً كهذا وأنت ابنتي ، أريد منك ان لا تدعيها تشعر بأثر الحرمان في الحياة بسبب فقدها لوالدها ، فرضيت وعشنا معاً الى ان تزوجت .

وكان رضي الله عنه يعوّدني على فعل الخير وتوجيهي للعمل الصالح منذ الطفولة ، فحدث ان كانت أسرة فقيرة تسكن امام الزاوية في عكا ، تتألف من أب مقامر وزوجة وأطفاله ، وكان الرجل سكيراً عربيداً متلافاً ، وكانت ابنته خديجة تأتي فتلعب معي ، ورأيتها يوماً تبكي وتقول : إن أسرتها لم تذق الطعام منذ يومين ، وان والدها لا يعني بأمرهم فطلبت منها ان تتبعني الى البيت وان تحضر وعاء ، فجاءت وأخاها الأكبر وتبعاني فملأنا لها الوعاء بالطعام وحمّلتها خبزاً يكفي الأسرة كلها ، ورآني والدي رضي الله عنه فناداني وسألني عما أفعل ؟ فأخبرته فدعا لي بالخير والبركة وشجعني ، ثم قال : هذا لا يكفي ، يجب ان تتكفلي انت بالانفاق على هذه الأسرة ، فتقدمي لها ما تحتاجه من مأكل وملبس طوال أشهر السنة ، فكنت آخذ النقود وأقدمها لهم بنفسي ، وبقيت على تلك الحالة الى ان انتقل والدي رضي الله عنه الى جوار ربه .

لقد كان بامكانه ان ينفق على الاسرة كما يفعل رضي الله عنه مع غيرها من الاسر المحتاجة وان يرسل اليهم ما يحتاجون اليه ، لكنه وكل إليّ أمر ذلك العمل ليغرس في قلبي حب الخير ومساعدة المحتاج .

وكذلك كان ينشئني على العزة والكرامة واحترام النفس ، فاذا طلبت منه أمراً ما على ان لا يتعدى ذلك الطلب حدود الآداب الاسلامية ، والشرع الشريف كان الايجاب ، وإذا رجوته او سعيت لديه لاحد إخواننا كان رجائي عنده مقبولاً ووساطتي نافذة .

وكان رضي الله عنه يغضب اشد الغضب إذا نادى المريدون احد اولاده او احفاده بيا سيدي . ويقول لا يضر ابناء الشيخ إلا المريدون ، نادوهم باسمائهم فقط ، لكنه كان يعلم علم اليقين انه سيتركني وشقيقتي طفلتين صغيرتين لا حول لنا ولا قوة ، فكان يقدمني لا كابر إخواننا ، العلماء والفقهاء ، ولإخواننا العارفين ليجعل بيني وبينهم مودة ورحمة واخوة بالله ، ثم هو ليغرس في نفوسهم الحب والاحترام لنا ، فينبت ويزدهر على مرور الايام . وليشد عضدنا بالعطف الاخوي الروحي الذي لا ينفصل ابداً ، فالمودة ليست بحاجة الى القربى ، اما القربى فهي دائماً ابداً باشد الحاجة الى الود الصحيح ، ولذلك لم يكن يغضب إذا ناداني احد المريدين بيا سيدتي ، بل كان يكتفي بالابتسام ، وقد تعطف رضي الله عنه عليّ بقوله لاخينا الشيخ عبد الرازق القاضي واخيه ابي سعيد امام جماعة من إخواننا « انا ملء قلب فاطمة » اي ان حبه يملأ قلبي ، وهذا فخار لا يعدله فخار ان يشهد لي بصدق حبي الذي هو رأس مالي في الطريق .

اما هؤلاء الكبراء بالله من رجال الطريق ، الذين قرّب والدي رضي الله عنه بيني وبينهم بالاخوة الروحية منذ طفولتي ، فكانوا لي اهلًا وعشيرة بعد انتقاله الى جوار ربه ، وكان وجودهم أنساً لي في جميع مراحل حياتي وهذا كنز من العواطف الفياضة باسمى المعاني الانسانية ، خصنا الله بها رحمة منه كما قال تعالى في كتابه الكريم في سورة الكهف في قصة موسى والخضر عليهما السلام : بحق اليتيمتين : « وكان تحته كنز لهما وكان ابوهما صالحاً فأراد ربُّك ان يبلغا اشدّهما ويستخرجا كنزهما رحمةً من ربك »

وكان رضي الله عنه يعطف على من يلوذ بي ، او يختص بخدمتي ، ويعاملهم بالعطف والعناية والرعاية ، فاذا حضر اخوة الحاج سليم بليق [1] الى الزيارة ، كان يرسلني معه لاستقبالهم عند نزولهم من الباخرة في ميناء عكا ، او نذهب الى حيفا ، اما اذا كان سفرهم بطريق البر فكنا نخرج

(١) الرجل الذي يقوم على تربيتي .

الى البرية لاستقبالهم ، وكثيراً ما كان يوصيني بالحاج سليم خيراً فيقول : (هذا ابوك وله عليك حقوق التربية) وكان هذا الرجل الصالح الورع موضع ثقته في كل شيء ، وقد زوجه ابنة خالة سيدتي الوالدة ، وكان يكسوه من ثيابه الخاصة .

حدثني اخونا بالله السيد ابو سعيد القاضي ، فقال : كنتُ ايام طفولتك مغرماً بك شديد التعلق ، وكان شيخنا رضي الله عنه لا يسمح لاحد غير الحاج سليم بليق ان يحملك او ان يتولى رعايتك ، فكان الرجل الوحيد الذي يشرف على تربيتك ، في كل شيء ، وكان بيني وبينه أخوّة بالله فكان يثق بي ويسمح لي بأن أحملك ، ولم يعترض حضرة والدك على ذلك ، وذات يوم قال لي شيخنا رضي الله عنه (إياك ان تخالف فاطمة) قلت سمعاً وطاعة ، وبعد ايام بينما كنت أسير في الزاوية وانت فوق ذراعي إذا به رضي الله عنه يناديني ، وحين هممت ان ألبي النداء ، قلت لي (قف مكانك لا تذهب) فبقيت واقفاً في مكاني لا أتحول عنه ، فنظر إليّ واقترب مني قائلاً (لقد ناديتك ألم تسمع ؟) قلت بلى ، لكنني أطعت امر سيدتي فاطمة ، ألم توصني بذلك ؟ فسر من قولي ودعا لي بالخير والبركة .

* * *

وكان في زاويتنا متجرد ، خفيف الظل يدعى سعيد من آل الحنبلي في دمشق ، كثيراً ما اضحكني بنكاته ، وكان يرافقني في نزهتي اليومية وانا صحبة الحاج سليم ، عدا الأيام التي كنت أرافق فيها سيدي الوالد ، فقد كنت شديدة التعلق به لا أنفصل عنه إلا بحكم الاضطرار ، وافضل صحبته اعني صحبة والدي رضي الله عنه على نزهاتي جميعاً ، وحدث ان رافقته يوماً الى قرية الكابري ، فركبنا العربة وبصحبتنا الحاج سليم ، وإذا بأخينا الحنبلي يرانا فيهرع راكضاً ، وراء العربة ، ويتعلق بها وهي تسير بنا ويقف وراء النافذة ، وكان بين حين وآخر يطل علينا من

النافذة ويشير إليّ ، وبعـــد ان خرجنا الى العربة التفت والدي فرآه يتحدث إليّ ، فقال له : « ماذا تفعل هنا ؟ » قال : انني أتحدث الى سيدتي ، واضحكها فقال والدي : « وقوفك على هذه الحالة ، خطر عليـك ، تعال وادخل العربة ، ثم اضحكها » فدخل الرجل وقضى معنا ذلـك اليوم ، وكان سيدي الوالد حفيّاً به إكراماً لي .

* * *

وكان رضي الله عنه عطوفاً رحيماً بي وبشقيقتي ، ورغم الفرق الكبير في السن بيني وبين اخي السيد إبراهيم ، كان والدنا يؤلف بين قلبينـــا بحكمته الرشيدة ، وكنت إذا طلبت شيئـــاً وبكيت جرياً على عادة الأطفال كان يطلب اخي ويقول له : فاطمة تريـد كذا ، فخذها اليك علها ترضى ، وكان اخي بدوره يخف لتلبية رغباتي إكراماً لأبيه ، فهو لم يكن يخالفه ابداً ، فكان يعاملني بمنتهى العطف والاحترام . وفي بعض الأحيان كان يأخذني معه الى حيفا ليبتاع لي الدمى التي كنت ألهو بها .

وكنا إذا صعدنا الى قرية ترشيحا للاصطياف ، حملني اخي على ذراعه وهو يمتطي فرسه الكريم ، إذ كان ماهراً في ركوب الجياد معـدوداً في الفرسان ، هذا رغم كثرة المتجردين والاخوان الذين كان بامكانهم ان يفعلوا ذلـك وينوبوا عنه به إكراماً لأبي . وإنه لم يكن ليرضى ان يركبني امامه ، بل كان يرفعني على ذراعه اليسرى مدة ثلاث ساعات ، وهو على تلك الحالة ، الأمر الذي كان يضطره الى طلب المـاء الساخن ليضع به ذراعه ، كي تلين شرايينها حال وصولنا ، فكان حبي له وتعلقي به يزداد على مر الأيام .

ازواجه

واولاده رضي الله عنه

ازواجه رضي الله عنه واولاده

●

كان سيدي الوالد رضي الله عنه عطوفاً رحيماً بأهله ، وقـــد تزوج بأربع نساء : زوجتين في بلاد المغرب وزوجتين في فلسطين . وكانت اولى زوجاته السيدة راضية الباجي من أشراف بنزرت ، وقد ولدت له ابنته البكر السيدة عائشة ، ثم توفيت تاركة ابنتها في حضانة جدتي رحمها الله ، وكان قد تم طلاقها قبل وفاتها ، ثم بنى بعدها بالسيدة « فافا » وهو اسم تصغير (لفاطمة) ، (وعلى هذا درج اهل المغرب) .. وهي من آل « الكهيَّة » العائلة المثرية جداً في بلاد تونس ، ومنها جاءه اخي إبراهيم وأختي « خوجية » .

وكنت ذكرت في احد فصول الكتاب ان سيدي الوالد يوم ان اعتزم القيام بسياحته المعروفة قبل انتقاله الى المشرق ، خيّر زوجه بين انتظار عودته او ذهابها اليه إذا ما استقر في مكان ما في المستقبل ، او طلاقها ، (لأنه يشفق على شبابها وحالها) فاختارت الطلاق ، وكان ان تركت ولديها في حضانة شقيقتها الكبرى بعد رحيل والدنا الى الشرق ، وتزوجت رجلاً من اهل تونس .

وبعد ان حضر رضي الله عنه الى بلاد الشام وأقام في ترشيحا ، اقترن بالعارفة بالله ورسوله العابدة السيدة خديجة توسيز ، كريمة احمد بك توسيز وهو من مماليك مصر الفارّين من — محمد علي باشا الكبير — . وكانت السيدة المذكورة ارملة ليعقوب بك المصري ، المعروف آنذاك بسعة ثرائه

ومكانته في الهيئة الاجتماعية .

وللسيدة - خديجة - قصة تتصل بالتاريخ ، إذ كان والدها احد اعوان « عبد الله باشا » والي (عكا) ومن ذوي النفوذ الكبير في فلسطين ، وكانت لها والدة وثلاثة إخوة ذكور ، فلما فتح « إبراهيم باشا » مدينة (عكا) بعد حصارها ، كان ان قتل والدها ونفى بقية الأسرة الى بلاد (الأناضول) . ومن هناك بدأوا يكتبون الى صديق والدهم الحميم « يعقوب بك » ليسعى لهم عند ذوي الأمر كي يلجئوا اليه في مصر . وبعد ثلاث سنوات تكلّلت مساعيه بالنجاح ، فجاءوا اليه وحلّت الأسرة في داره ، ثم بنى بالسيدة « خديجة » ، وعلى اثر هذا الزواج انتقل بأهله الى (عكا) واستوطن فيها ، وأخذ يتعهد إخوة زوجه ويقوم على تربيتهم حتى تخرّجوا من معاهد (الآستانة) وشغلوا وظائف رفيعة في فلسطين .

وتُوفي « يعقوب بك » في (عكا) ، دون ان يترك ذرّية ، فورثت عنه زوجه ثروة كبيرة ، هذه الثروة التي بذلتها في سبيل الله وخدمة الطريق وأبنائه على عهد سيدي الوالد رضي الله عنه ، ذلك لأنها بعد زواجها من سيدي الوالد ، تلقّت الطريقة الشاذلية عنه وقامت في الخدمة على الوجه الأكمل . وكان لها أثر بيّن في تلك النهضة الروحية المباركة ، وقد رزقها الله من ابي بولدَيْن هما اخواي السيدان : « محي الدين » و « جمال الدين » وقد توفي الثاني وله من العمر سنتان ، وعاش السيد « محي الدين » الى ان بلغ الخامسة والعشرين من عمره ، وتوفي بعد ان ترك بنتاً واحدة هي سيدتي « انيسة » اليشرطية . وبعد ثلاث عشرة سنة من وفاة ولدها تُوفّيت ، وكان ان تضاعف جهادها في سبيل خدمة الطريقة بعد وفاة وحيدها اعتقاداً منها ان خدمتها زمن ولدها كانت لنفسها وأما خدمتها بعد وفاته فهي خالصة لوجه الله تعالى .

* * *

والدتي

بعد وفاة السيدة « خديجة توسيز » اقترن رضي الله عنه بوالدتي ، وهي العارفة الكبيرة المحققة الواصلة الى الله ، والدالة عليه ، السيدة « رتيبة توسيز » كريمة السيد احمد بن السيد مصطفى توسيز ، شقيق السيدة خديجة زوجة ابي المتوفاة .

وقد نشأت والدتي في الزاوية في رعاية عمتها على التقى والصلاح والتصوف ، وفي جو يفيض بالأسرار الالهية والأنوار الذاتية ، والسمو الروحي ، فكانت صوّامة قوّامة ، عابدةً زاهدة ، تمتاز بشخصية صوفية وشعور ديني عميق اكتسبتها من طول صحبتها لوالدي رضي الله عنه ، فقد اخذت عنه الشيء الكثير ، وتخلّقت باخلاقه المحمدية ، وتحققت بمعارفه وأنواره الذاتية فجمعت بين جمال الخَلق والخُلق ، والصفات الانسانية الرفيعة ، وكان تعلقها وحبها واحترامها لسيدي الوالد من قِبَل العقائد الدينية المستقرّة في القلوب ، لذلك رأيناها مثلًا أعلى للتضحية ، والنبل ، وإنكار الذات ، في خدمة الطريق وأهله ، حيث كان وما يزال لها الأثر الفعّال في قلوب ابناء طريقتنا الذين خصّهم الله بالتلقي عنها ، او الاقتداء بها ونيل شرف صحبتها .

وقد عاشت طوال ايام حياتها قائمة بالواجب المقدس في خدمة والدي والزوايا والفقراء بهمة عالية بالله ، على أكمل وجه بما يرضي الله ورسوله ، فحازت كمالات الطريق ، ونالت رضا سيدي الوالد وبركته الدائمة .

وكان حبها للأسرة الشرطية ، ولأهلها واخواننا وكافة مخلوقات الله تعالى حباً إنسانياً مجرداً عن الحروف والحظوظ الدنيوية مقروناً بذلك التسامح والتسامي ، ولم يسبق ان عاش اخوتي واولادهم واحفادهم مع والدنا في بيت واحد إلا على عهدها ، وكانت معاملتها لهم ورعايتها ايام منقطعة النظير .

ويوم ان جاء اخي الشيخ ابراهيم وأسرته من بلاد تونس الغرب ، حضنت ابنتيه السيدتين ناجية وخيرة الله لأن والدتها مغربية لا تستطيع تنشئتها على تقاليد اهل هذه البلاد ، وحتى بعد ان جئت وشقيقتي الى عالم الوجود لم تكن تميزنا عنهما بشيء ، ولم يكن بيننا ثمة فرق ابداً ، وكذلك كانت معاملتها لأولاد اختي الكبيرة واحفادها .

واني لاذكر هذه الحادثه على سبيل المثال ، سبق ان قلت ان كل ما كان يقدم إليّ من الهدايا كان ملكاً لجميع الفتيات الصغيرات اللائي يعشن في الزاوية ، وذات يوم جاء رجل من اخواننا (من بلاد اليمن) واحضر لي عقداً جميلًا اهداه اليّ بمناسبة العيد السعيد ، ورجاني ان احتفظ به لنفسي اكراماً له ، فسررت جداً وقررت ان احتفظ بالعقد لنفسي مهما كلفني الامر ، وجعلت اردد قوله ، وعلمت بالامر حفيدة اختي فبكت وطلبت عقداً مثله ، وكان من المتعذر ذلك ، وبكيت لأني اريد العقد لنفسي لا يشاركني فيه احد ، فنادتني سيدتي الوالدة ، وقالت لي : يا فاطمة الا تريدين ان تنعمي برضا والدك ورضا اختك الكبيرة ورضاي ؟ قلت بلى ، قالت ان اخذت العقد لنفسك ستتألم صديقتك وحفيدة اختك فيجب ان تتنازلي عنه : وبعملك هذا اكون سعيدة بك ، وهكذا كان ولم اتحل بالعقد قط .

على هذا النسق المثالي الرفيع ، سارت بمعاملتها افراد الاسرة البشرطية إذ لا يوجد واحد منهم من ذكر او انثى إلا ولها عليه فضل يذكر ظاهراً باطناً ، وحتى بعد انتقال سيدي الوالد الى الرفيق الاعلى ، كانت الام الرؤوم لهم جميعاً ، وكان بيتها مفتوحاً لكل من احتاج اليه منهم ، كما كان على عهد سيدي الوالد ، وكذلك كان بيتها مفتوحاً لاهلها ولاخواننا جميعاً .

وكان اخي الشيخ ابراهيم قد تزوج مرة ثانية بعد انتقال والدنا الى الى جوار ربه ، فعطفت على ازواجه واولاده واحفاده وغمرتهم بحبها

وحنانها ، وخاصة ولده السيد محمد الهادي الذي احبته وحبته خالص الود بالرعاية والعناية والحنـان ، منذ كان طفلاً صغيراً الى الان ، وهو وجميع افراد الاسرة البشرطية يحمدون لها تلك العناية الفريدة بهم بالتقدير والتعظيم والاحترام .

وقد ولدت لسيدي الوالد غلاماً ذكراً سمّاه (محمد جلول) وهو اسم الولي الصـــالح الذي سبق ان بشر جدتي بوالدي قبل حملها به في تونس الغرب ، ولكن الولد توفي وعمره سنة واحدة .

وُولدتُ بعده ، وكان في بيتنا يومئذ سيدة صالحة مسنة حملت بشرى ولادتي اليه ، فسألها رضي الله عنه عن رأيها بتسميتي فقالت سمّها (فاطمة الزهراء) تيمنـــاً باسم سيدتنا الزهراء بضعة المختـــار رضي الله عنها وهكذا سمّاني .

ثم ولدت شقيقتي مريم ادامهـــا الله وحفظها من كل سوء ، فدعاها والدها باسم والدته الصالحة ، ذلك الاسم الحبيب والمحبب اليه .

ومناقب سيدتي الوالدة ادام الله حياتها معروفة معلومـة لدى الجميع لا يختلف فيها اثنان ، فكل من رآها احبها وكل من صحبها افاد من علومها اللدنية ومواهبها الروحية ، ومن دواعي فخري انهـــا ملهمتي في وضع هذا الكتاب ، ويعود لها الفضل الاكبر بتصوّفي وتصوّف شقيقتي وتوجيهنا لناحية العـــلم والسلوك في الطريق ، فقد ادت رسالتها الاموية على الوجه الذي يرضاه سيدي الوالد قدس الله سره .

اختي السيدة عائشة

كانت أختي السيدة عائشة هي الابنة البكر لوالدنا ، وقد وُلدت في مدينة – بَنْزَرْت – في بلاد المغرب ، فلما اعتزم سيدي الوالد ، القيام بتلك السياحة في سبيل الله تعالى ، كانت يومذاك في الربيع السابع من عمرها وقد توفيت والدتها ، ولم يكن لها جدّة او عمّة او خالة تكفلها ، فأشفق

والدها عليها ولم يتركها في بيت احد ابناء أعمامه أو عمومته ، فحملها الى – مصراطة – دون ان يخبر احداً من اهله وذويه ، لقد ذهب بها الى زاوية شيخه وعهد بها الى سيدي الشيخ – احمد عبد الوارث الحسني – الذي كان واسطة اخذه الطريق ، وزوجة هذا الشيخ الجليل ، هي كريمة شيخ والدي قدس الله سره ، وقد كانت هي تقدر سيدي الوالد حق قدره وتحترم تفانيه في حب شيخه وأولاد شيخه ، فسلّمها الطفلة المسماة باسمها ، وأوصاها بها خيراً ، وبعد رحيل والدنا كان الشيخان لها امّاً وأباً ، حيث اهتما بتنشئتها نشأةً دينيةً صوفية ، وكان الشيخ يلقي عليها دروساً في الفقه والحديث والتصوُّف ، ثم اعطاها الطريق ، ولقنها الاسم الأعظم ، وهكذا تجرّدت اختي في زاوية شيخ والدها ، كما تجرّد والدها من قبل ، فلما بلغتْ مبلغ الشباب زوّجها الشيخان من الشيخ – محمد التاج الحَسني – ويوم ان ارسل اليها والدها يستدعيها اليه ، كانت قد وضعت طفلا دعته كريمة سيدي الشيخ المدني قدس الله سره – محمداً البشير – ، وهو اسم احد اخوتها الذكور .

وهكذا رحلت اختي وزوجها ومعها طفلها الرضيع السيد محمد البشير الى الشرق ، وبعد سنة كاملة من اقامتهم في الشرق توفي زوجها ، وكانت ما تزال في ريعان الشباب ، فتقدّم لطلب يدها الامير مصطفى الجزائري الحسني ، شقيق الامير عبد القادر الجزائري المعروف . وقد أولدها غُلاماً (دعاه باسم اخيه تيمناً به) وعاش الغلام حتى ادرك الشباب ، ثم توفي وهو في حلقة الذكر ودفن في – عكا – .

وعاشت اختي خمسة وتسعين عاماً ، قضتها في طاعة الله تعالى . وقد مرت عليها احوال وجد وهيام بالله ، اثناء سيرها في الطريق ، وتكلمت بالحقائق ، ونظمت الشعر الصوفي ، وكانت من اكابر العارفين بالله ورسوله . فلما حضرتها الوفاة نظمت هذين البيتين :

يا أهيل الحمى لقد طال شوقي اليكمُ

فارقت روحي الجسد حين شامت سناكمُ

وبعد ذلك بدأت تذكر الله باسم المد ، ثم تشهدت واسلمت الروح وهي في حالة استغراق كلي بالله .

اخي السيد ابراهيم

كان اخي السيد « ابراهيم » ، قويّ البنية ، ربع القامة ، عريض المنكبين ، ابيض اللون ، جميل الوجه ، دمث الاخلاق ، متسامحاً كريماً ، رضيّ النفس ، مطمئن القلب ، عطوفاً شفوقاً ، تقياً ورعاً ، صوّاماً قوّاماً ، عارفاً محقّقاً ، وعلى جانب عظيم من اللطف والايناس والتواضع .

تصوّف وتحقق على يدي والدنا بعد مجيئه الى عكا ، وقد امره والده ان يتجرد في زاوية ابيه ثلاث سنوات ، كان يعيش فيها مع الفقراء المتجردين كواحد منهم .

وُلد في مدينة (بنزرت) في بلاد تونس الغرب ، وتزوج هناك من ابنة خالته ، وفي تلك الاثناء جاء الى الشرق لتأدية فريضة الحج وزيارة ابيه ، ثم رجع الى بنزرت ، فلما احتلت فرنسا تونس الغرب ، كتب اليه والده يأمره بالهجرة ، فانتقل مع اسرته الى عكا .

وقد تحدث إليّ عن بعض حوادث وقعت له ، ايام طفولته وشبابه في بلاد المغرب ، ومما قصه عليّ هذه الحادثة : قال : « لما بلغت مبلغ الشباب ، طُلبت الى الخدمة في الجندية بمدينة (بنزرت) ، كان هذا على عهد الحكومة العثمانية ، وكنت يومئذ اعيش في بلاد الغرب ، ووالدي رضي الله عنه في بلاد الشرق ، وكانت العادة ان يدفع اولياء المكلفين الميسورين عن اولادهم ، بدلاً نقدياً لقاء إعفائهم من هذه الخدمة ، ورأيت آباء الشباب من اهلي وأهل أمي مصممين على دفع – البَدلات – عن اولادهم ، ولم اجد من يهتم بشأني ، فأحسست اني غريب في موطني ،

بين اهـــلي وعشيرتي ، وذات يوم خطر لي ان اخرج الى البرية لزيارة ضريح الشيخ الحشّاني رضي الله عنه ، وبينما كنت اسير لا وقد غربت الشمس وبدت طلائع الليل ، إذ بي افاجـأ بفارس يلبس الثياب البيضاء ، ويمتطي جواداً مطهماً ، وهو يقترب مني ، ثم يناديني باسمي : يا ابراهيم ، ماذا تريد ؟ فحادثته بأمري ، فقال : عد الى بيتك وغداة غد سينظر في امرك . قال هذا وتوارى عني ، وأنا دهش مما سمعت ورأيت ، فعدت ادراجي الى البيت ، وقلبي مفعم بالأمل .

وفي صباح اليوم الثاني ، ذهبت الى مقرّ الجندية ، وقمت انتظر ما سوف يفعل الله بي ، ومضت ساعات ، واخيراً اذا بالقائد يبعث من يناديني ، وحين دخلت عليه ادناني وقال : (كان لآل يشرط فرمان شاهاني يُعفى بمقتضاه افراد الأسرة من الخدمة في الجندية الاجباريـة ، وكان العمل بموجبه قد أوقف منذ خمسٍ وعشرين سنة ، واليـوم عادت وصدرت الينا الاوامر بالرجوع اليه ، لذا انت وجميع شباب الاسرة قد شملكم العفو) وما كاد الشباب من اسرتي يتلقون الخبر ، حتى هتفـــوا وصاحوا : هذا ببركة ابيك يا ابراهيم . اه

وقد عاش اخي بعد ابيـــه ثلاثين عاماً ، تولى فيها مشيخة الطريقة ورعاية الفقراء فقام بالواجب في كل ما يرضي الله ورسوله واباه .

وقد مرت عليه احوال وجدٍ في الطريق بعد انتقال والدنا الى جوار ربه ، فكان كثيراً ما يجلس في مقام ابيه متوجهاً بالذكر ، فاذا اشتد معه الحال ، ينهض واقفاً يذكر الله جهراً مجهداً نفســـه ، وكثيراً ما التف حوله اخواننـــا الفقراء محلقين بالذكر وهو باق على تلك الحالة ، لا يستطيع احد ان يخرجه من الحلقـة ، وكانت سيدتي الوالدة تخشى عليه ، حيث سبق قبل سنين ان اسلم الروح ابن اختي الامير عبد القادر الجزائري في حلقة الذكر [1] وكنت طفلة صغيرة لا اتجاوز السنة التاسعة

(١) هو ابن الامير مصطفى الجزائري شقيق الامير عبد القادر الجزائري المجاهد الكبير .

من عمري ، فكانت تأمرني ان انزل اليه ، فادخل الحلقة وامسكه بيدي واقول له ، محمد رسول الله ، وعندها يتوقف الذاكرون ، فاخرج واياه ثم اذهب به الى داخل المقام عند الضريح الشريف واجلسه هناك الى ان يعود الى حالته الطبيعية ، وسبب انقياده إليّ وهو على تلك الحالة ، ان والدنا رضي الله عنه قال له في احدى المناسبات (لا ترد لأختك فاطمة كلاماً) وكان اخي مطيعاً لوالده ، لذلك لم يكن يرد لي طلباً قط ، وكانت معاملته لي ولشقيقتي مريم ، رغم الفارق الكبير بالسن بيننا وبينه معاملة الند للند مقرونة بالعطف والاحترام .

ولما كنت استقبل رجال طريقتنا الشريفة (في بيتنـــا) ، ومنهم رجـــال العلم والرأي والأدب وأنا يومذاك في مقتبل العمر ، لم يعترض طريقي ، بل كان يشجعني ويفخر بذلك ، وكثيراً مـا كان يستقبلهم في الزاوية ثم يصعد معهم إليّ فيجلس معنـا . لقد كان حبي له وتعلقي به عظيماً ، زد على ذلك اني لم اعرف لي اخاً غيره ، فقد توفى الله اخوتي الذكور قبل ولادتي ، فلما انتقل الى رحمة الله تعالى دفن في زاوية ابيه وترك لي اللوعة والحزن من بعده .

اخي السيد محيي الدين

كان اخي السيد محيي الدين زهرة فوّاحة من زهور الحياة الشذية جمع بين الجمال والعبقرية والتصوف والفروسية ، فكان من احسن النـــاس وجهاً وقواما ، كان طويل القامة رياضي الجسم [1] يميل الى النحـــافة متناسب الاعضاء قوي البنية خفيف الحركة نشيطـاً ، ابيض اللون عريض الجبين بين عينيه عرق اخضر يظهر عند الغضب او التعب ، وجهه جميـل باسم متهلل وعيناه خضراوان جميلتان بلون الزمرد الصافي ، تحيط بهما اهداب طويلة وفوق رأسه شعر اشقر متماوج . لطيف الروح والمعشر ، خفيف

(١) وكان بطلاً في السباحة والرماية ، ومعدوداً في الفرسان عند اهل زمانه .

الظل متوقد الذهن ذكي الفؤاد عاقلاً مفكراً ، وقد كاد ان يكون له شأن في دنيا العلم والادب وفي عالم الوجود الصوفي ، لولا ان فاجأه القدر فانتقل الى رحمة الله تعالى في حياة والده ، وهو في ميعة الشباب وزهرة العمر ، فكانت خسارة ابناء الطريقة الشاذلية والاسرة اليشرطية بفقده عظيمة لا تقدر .

تلقى العلوم عن كبار رجال العلم في الشريعة والحقيقة في هذه البلاد وصحب والده ولازمه وتلقى عنه وسلك في الطريق مسلك التحقيق على يديه ، وتأدب بآداب القوم وتعلم ما يلزمه من علوم الدنيا ، فكانت ثقافته عالية راقية . ورغم شبابه وجماله ومكانة ابيه وثراء امه التي لم يكن لها غيره ، كان مهذباً رقيقاً انساناً بكل معنى الكلمة ومريداً سالكا لله في طريقه القويم ، يعيش في زاوية ابيه كأحد المتجردين فيها ، وكل ما كانت تخصه به والدته من مأكل وملبس كان يتقاسمه معهم ، ويحيى حياة بسيطة بعيدة عن الغرور والكبر والعجب ، حياة صوفية مثالية .

فلما حضرته الوفاة كان في حالة شهود للذات بالذات في الذات واستغراق كليّ بالله ، الى ان اسلم الروح بين يدي والده العظيم ولسانه رطب بذكر الله .

شقيقتي السيدة مريم

شقيقتي اصغر مني سناً ، وهي لا تعرف اباها من حيث حكم الظاهر ، فقد انتقل الى الرفيق الاعلى وهي صغيرة جداً ، لكنها تعرفه معرفة تامة بالايمان والايقان بولايته الكبرى ، وبتحقيقها ومعارفها وشهودها ورقيها في طريق الله تعالى ، ثم هي اشبه اولاده به خَلقاً وخُلقاً ، لقد ورثت عنه الفقر ، والذكاء والتضحية وإنكار الذات في سبيل الله تعالى ، وتمتاز شخصيتها بالتسامح والرحمة والجود والكرم ، ولها لسان صدق في علوم القوم ، ثم هي تتذوق الأدب وتحفظ الشيء الكثير من الشعر

الصوفي وغيره .

لقد نشأنا معاً وكأننا روح واحـــدة ، وشخص واحد في ميولنا واذواقنا واتحادنا في محبة والدنا ، وتقديس ذكراه ، وسلوكنا في طريق الله ، ولكنها دائماً وابداً هي السباقة في كل ما يرضي الله ورسوله .

سيدتي انيسة اليشرطية

لما كان حديثي عن ازواج والدي واولاده لا عن احفاده ، ارى ان الواجب الروحي في الطريق ، يفرض عليّ كتابة كلمة عن هذه العابدة الزاهدة العارفة الواصلة الى الله ، نظراً لمكانتهـــا في الطريق ، ولمنزلتها عند سيدي الوالد رضي الله عنه ، ولما لها عليّ من حقوق التربية .

لقد توفي والدها السيد محي الدين وهي طفلة صغيرة ، فكفلها جدها وجدتها وعاشت[1] الى ان بلغت السنة العاشرة ، وهي لا تعرف لها اباً واماً غير سيدي الوالد وزوجه . وقد رعاها رضي الله عنه بعين عنايته فنشئت على التقى والصلاح والمعرفـــة والتحقيق وحب فعل الخير ، وقد ورثت عن جدتها ثروة كبيرة انفقت معظمها على المحتاجين من إخواننا ، ومن أهل مدينة — عكا — ولها فضل يذكر بتعليم جماعـــة من إخواننا الشاذليين في الأزهر ، وفي الجامعات على حسابها الخاص . ومناقبها ومآثرها كثيرة ، وبذلها في سبيل الله تعالى كثير احتساباً لوجهـــه الكريم ، لا لطلب شهرة او جاه .

وانها لمن كبيرات العارفات بالله ، تزوجت من ابن عمتهـــا السيد — حسن — اليشرطي ابن اختي « خوجية » المتوفاة في — بنزرت — . ورزقت بأربعـــة اولاد توفاهم الله وهم في اعمار متفاوتة . فاحتسبت وصبرت بفضل تجلي التمكين الالهي على قلبها الكبير .

***

وقبل ان اختم حديثي عن ازواجه رضي الله عنه اقول : سبق ان ذكرت في احد فصول الكتاب ، ان سيدي الوالد رضي الله عنه ، كان

زاهداً حسّاً ومعنى ، كلما اقبلت عليه الدنيا بذلها في سبيل الله تعالى .

لقـد ورث عن ابويه ثروة كبيرة ، في بلاد تونس الغرب ، فخرج عنها الى الله ورسوله ، ما عدا النذر اليسير الذي عاش فيه اخوتي هنـاك بعد رحيله الى الشرق .

وهنا في بلاد الشام ، ورث عن زوجه السيدة خديجة توسيز ، ربع مالها بعد ان انفقت معظمه في خدمة الطريق ، وابنائه وانشاء الزوايا ، كما قدم اليه مريدوه ثروة طيبة ، اوقف قسماً كبيراً منها لزاوية ترشيحا وآخر لزاوية عكا ، وأمر قبل انتقاله الى دار البقاء ان يرد ما تبقى منها بعد انتقاله الى جوار ربه الى اخواننا ، لينفق في مصالحهم الخاصة ، حيث كان من الزاهدين في حطام الدنيا ، ولم يلتفت اليها قط ، وكثيراً مـا كان يقول (نحن ما جئنا الى هذه البلاد لنعمر احجاراً ، جئنا الى هنا لنعمر قلوباً) وقال : « نحن نهرب من الدنيا وهي تلحقنا » .

على ان جماعة من اكابر اخواننا الصادقين في محبة شيخهم نظروا (بعد انتقاله رضي الله عنه الى جوار ربه) في أمر طفلتيه القاصرتين ، فوجدوا ان ما ورثه عن زوجه لا يكفي لمعيشة اولاده ، ولذلك عقدوا اجتماعاً في بيت السيد عبد الفتاح السعدي في عكا ، وكان من بينهم السيد مصطفى سعيد السعدي ، والشيخ عبد الرازق القـاضي ، والشيـخ عبد الله الجزار مفتي عكا ، وغيرهم من اكابر رجال الطريق ، وقرروا ان يبقى ما تبقى من تلك الثروة التي امر رضي الله عنه بردها اليهم بعد انتقاله ، ويصير الى اولاده بعد ان تبين لهم ان ذلك لحق وواجبٌ عليهم ، تجاه اولاد شيخهم الذي كان سبب هدايتهم ووصولهم الى حضرة القرب فكان ذلك .

وكذلك كان شأنه رضي الله عنه في امر التولية على الزوايا المنتشرة في هذه البلاد إذ لم يجعل التولية لاولاده من بعده ، وإنمـــا اختص كل اهل بلدة او قرية بالتولية على الزاوية التي هي فيهـــا ، ولم يجعل تلك الزوايا مرتبطة بزاوية (عكا) بل لكل واحدة استقلالها التام ، ولحق

رضي الله عنه بربه وهو على تقيَّة بيضاء في كل ما يرضي الله ورسوله ، بعد ان عاش في زاويته كأحد اتباعه ، وكانت وفاته قدس الله سره في يوم الاربعاء ١٦ رمضان سنة ١٣١٦ ودفن في زاويتـه في عكا ، وضريحه يزار فتحج اليه الوفود من سائر الاقطار واقاصي الارض .

* * *

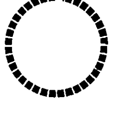
تاريخ انتقال حضرة سيدنا المعظم « نظم الشيخ مصطفى ابو ريشة »

توارى عليُّ الشانِ عنّا برسمِـــهِ ولكنه ما غاب حِسّاً ولا معنى
فصورة مجلاهُ وإن غاب رسمهـــا عن العـــين لم تبرح بأشكالها مُعنى
فناداه رضوانٌ لحضرة قربـــه مِن الله في الفردوس يُزلفه الحسنى
فما كلُّ قربٍ إن تؤرّخ كقربه دنـا فتدلّى قابَ قوسين او ادنى

٣٢٧ ٦٤ ٥٢٤ ١٠٣ ٢٢٦ ٦٥٧

*

١٣١٦



منح روحية

في مراتب الطريق

نقطة الباء التي منها بدا ١ كل سرٍّ للبها مستوجبِ
ألفُ الميم التي قد أدرجَت شرقَتها بعد الخفا بالمغرب
ثم بعد المكث جاءت تنجلي بعليّ القدر سرّ اليثربي
سبق العلمُ بها من أزلٍ حكمةٌ بالغة بالسّبب
وسرَتْ فينا حياةً لم تزل تُنعش الروح بطيب المشرب
بين إيمانٍ وإسلام أتت عينُها تُعرب رمز الكتب
لبنةٌ فضّية قد زانها عسجد الشرع الشريف الأنسب
يا إمام الوقت يا من فضلهُ بالندى أحيي الزمان (المجدب)
ختم الدوْرَ ولم يبق سوى بسطُ بسطٍ ظاهر كالكوكب

مراتب في الطريق

كان رضي الله حين يعيّن أحد المريدين مُقدّماً على الفقراء من أهل مدينته او قريته حسب التقاليد المعروفة عند القوم — تُكتب له إجازةٌ ممهورة بتوقيعه وختمه الشريف ، يأذن له فيها باعطاء الطريق وتسليك المريدين وتولي امور الفقراء ، وتعليمهم امور دينهم ، وإقامة الاذكار فيهم وقراءة بعض الدروس الفقهية لرفع مستوى ثقافتهم الروحية حسّاً ومعنى . وهذه نصوصٌ لثلاث إجازاتٍ أثبتها هنا كما هي طبق اصولها .

اجازة من والدي رضي الله عنه

إلى العلاّمة الكبير الشيخ حسين الحسني البغدادي — مفتي دير الزور —

(١) نظم خضر احمد الفحاوي .

حمداً لمن جعل وَرَثَةَ حبيبهِ سبباً لغرس حُبّهِ في الجَنان ، ومدّ لهم موائد الرضا على بساط الأنس في دار الجنـــان ، وتوّجهم بتـاج الاصطفاء فضلّا منه « وامتنان » ، وخلع عليهم خلعة الشهود ، منسوجة بلُحمة الرضوانِ ، وسقاهم بكأس الصفا ، كأساً بالمسك مختوم مـــن رحيق القابلية ، بِمُحْكَمِ وما منا إلا وله مقامٌ معلومٌ . وصلاةً وسلاماً على الحضرة المُمِدّةِ لما كان وما يكون ، السارية في كل ذرّةٍ مـــن صُوَر حسنه الزاهي المصون ، وعلى آله واصحابه مَنْ نحوَ نحوَ هاتيك الخيام . شموس سماء الاهتداء ، أولي العزم والاحترام .

وبعدُ ، فلما كان الاشتغال في الطريقة ، من اهم الامور ، تداولهـا السادات في غابر الدهور ، ولازموا تلاوة اورادها الشريفة ، حتى حازوا على اسرارها المنيفة ، فلاح لهم في السير امور عظيمة ، وثبتوا على ذلك بقلوبٍ على الحق عاكفةٍ مستقيمة ، وساروا بها سير السائر المجدّ ، إلى أنْ عرّفهم الله الهزل من الجد . وقـاموا بلذائذ اللذات ، للذّات بالذّات في الذّات . واقتبسوا من انوار صاحب الامداد الاقدس ، والفيض المديد الرفيع المقدّس ، نبراساً يهتدون به في حندُس ليل الجهـــل الداج ، فيفضي بهم الى اعظم منهاج . فيصير باطنهم متمسكاً بالحقيقة الحقيّـة ، وظاهرهم مملوكاً للشريعة المحمدية .

وكان من جملة من جرى في حلبة هذا الميدان ، وسار في الجِـــدّ والجهد زمناً طويلًا ، ثابت الجنان ، ولدنا القلبيّ الشيخ حسين بن محمـد الحسنيّ البغدادي ، قد اخذ عني طريقتنا الشريفة الشاذليـــة التي هي من كل سوء برّية ، وأجزتُه بأورادها مع قراءة الوظيفة المنيفة ، وأمرتـــه بإعطاء هذه الطريقة وتلقين أورادها لكل من رامها وأرادها . وأوصيتـه بالتقوى ، والمنهج الأقوى ، وقد اخذتُ هذه الطريقة من حضرة سيدنا الاستاذ الأكمل ابي عبد الله محمد بن حمزة ظافر المدني ؛ وهو اخذها عن شيخه الشريف الحسني أبي احمد العربي الدرقاوي ، وهو عن شيخه علي

العمران الملقّب بالجمل ، وهو عن شيخه العربي ابن احمد بن عبد الله ، وهو عن ابيه احمد بن عبد الله ، وهو عن قاسم الخصّاص ، وهو عن عبد الرحمن الفاسي ، وهو عن محمد بن عبد الله الكبير والد سيدنا احمد ، وهما عن يوسف الفاسي ، وهو عن عبد الرحمن المجذوب ، وهو عن شيخه علي الصهناجي ، وهو عن إبراهيم الفحّام ، وهو عن احمد زرّوق ، وهو عن احمد بن عقبة الحضرمي ، وهو عن يحيى القادري ، وهو عن علي بن وفا ، وهو عن والده محمد بحر الصفا ، وهو عن داود الباخلي ، وهو عن احمد بن عطاء الله الاسكندري ، وهو عن ابي العباس المرسي ، وهو عن الامام علي ابي الحسن الشاذلي ، وهو عن عبد السلام بن مشيش وهو عن عبد الرحمن المدني ، وهو عن القطب تقيّ الدين الفُقَيْر ، وهو عن القطب فخر الدين ، وهو عن القطب نور الدين ابي الحسن ، وهو عن القطب تاج الدين ، وهو عن القطب شمس الدين السيواسي ، وهو عن القطب زين الدين القزويني ، وهو عن القطب ابي إسحاق إبراهيم البصري ، وهو عن القطب ابي القاسم احمد المرواني ، وهو عن القطب ابي محمد سعيد ، وهو عن القطب سعيد ، وهو عن القطب محمد فتح السعود ، وهو عن القطب سعيد القزويني ، وهو عن القطب ابي محمد جابر قدّس الله اسرارهم ، وهو عن اول الأقطاب سيدنا الحسن رضي الله تعالى عنه ، وهو عن ابيه سيدنا علي بن ابي طالب كرّم الله وجهه ورضي عنه ، وهو عن سيد الأولين والآخرين سيدنا ومولانا محمد ﷺ وشرّف وكرّم وعظّم ، والحمد لله رب العالمين .

تحريراً في ٢٠ شوال سنة ١٣٠٦ هجرية

اجازة من والدي رضي الله عنه

إلى الشيخ محمد سكيك بن الشيخ محمود سكيك باعطاء الطريقة الشاذلية

حمداً لمن قرّب من استخلصه لحضرة انسه ، واشهده بعين العيان جمال

قدسه ، ورفع من أصطفاه ارفع الرتب ، ومنحه الشهود والعرفان والادب ، وكشف عنه حجب الاستار ، وأفناه عن نفسه وسائر الاغيار ، وصلاةً وسلاماً على من علت به شمس المعرفة اعلى ارتقاء ، وعلى آله واصحابه الذين فازوا بالجنة دار البقاء .

وبعد ، فقد أذنتُ لولد القلب والروح الشيخ محمد العالم الفاضل ، ابن الشيخ محمود سكيك ، في الطريقة المدنيّة الشاذلية ، وقيام الذكر وقراءة الوظيفة والاوراد ، واعطاء الطريقة لمن اراد ، وان يجيز من هو اهلٌ باعطاء الطريقة ، حسبما اجازني سيدي العارف بالله ورسوله ، وحيد زمانه ، وقطب عصره وأوانه ، ابو عبد الله سيدي محمد بن حمزة ظافر المدني الحسني (إلى آخر اسماء ساداتنا اقطاب السلسلة الشريفة) وأنا رقّ جنابه وخادم احبابه .

تحريراً في ٤ ذي القعدة سنة ١٢٧٥ للهجرة

اجازة من والدي رضي الله عنه
إلى الشيخ يوسف الخطيب من قرية – برجا –

نحمدك والحمد منك واليك ، ونشكرك وشكرنا في الحقيقة راجع اليك ، والصلاة والسلام على رسولك المصطفى القائم لك بين يديك ، وعلى آله نجوم الاهتداء ، لمن رام ان يهتدي اليك .

اما بعد ، فلما كانت طريقتنا العلوية الشاذلية اليشرطية منهاجاً للسالكين متصلًا سندها بالتواتر الصحيح لرسول رب العالمين ، كما هو مسلسل مشهور بالصحيح ، وأمرٌ محقق عند اهل الترجيح ، توارثه سادات كرام ، وأئمة اعلام ، ذِكْرهم بين الانام شهير ، وشمس فضلهم لا تخفى على بصير ، وكان من جملة من أخذ عني الطريقة ، وتحلّى بفضلهم العميم ، وسلك بها على طريقها القويم ، ولدنا الفاضل الأديب الشيخ يوسف الخطيب ، من اهالي وسكان قرية « برجا » ، قد أقمته مقدماً على عموم اولادي الفقراء بالقرية

المذكورة ، وأمرته بتقوى الله ؛ واسأل الله ان يوفق اموره ، وأذنته باعطاء طريقتنا الشاذلية ، لمن رأى فيه الاهلية ، بعد التوبة والانابة ، وان يلقنه اورادها المعلومة ، ويقرأ بإخوانه الوظيفة الشريفة في اوقاتها الواضحة ، ويقيم الذكر فيهم في الليالي الشهيرة اللائحة . وأوصي ولدي المذكور بالعمل بما في الكتاب المسطور والتمسك بالسنة ، واقوال السادات الأئمة . وأسأل ربي ان يفتح عليه ويجري الخير على يديه ، وهو حسبي ونعم الوكيل ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم .

تحريراً في ٢٥ شوال سنة ١٣١١ للهجرة .

وذكر الشيخ - مصطفى نجا - مفتي - بيروت الاكبر في كتابه - كشف الاسرار - فقال : كتب إليّ شيخنا علي نور الدين اليشرطي الحسني يقول :

كل طريقة تخالف الكتاب والسنة فهي زندقة وباطلة ، فدُم يا ولدي على ما انت عليه ولا تأخذك في الله لومة لائم ، ومن الآن اوصيك وانهِضُ همتك ، ان تكون باذلاً النصيحة لاخوانك ، وحرّض كافة اولادي الفقراء على اتباع الكتاب والسنة ، والعمل بما يرضي الله ويرضي رسوله ﷺ ، وعرفهم عن لساني ، انه لا وصول الى الله تعالى إلا باتباع اوامره واجتناب نواهيه ، وان كل من تعدى الحدود الشرعية لا نعرفه من طريقتنا .

* * *

وذكر الشيخ - مصطفى - في كتابه ايضاً ، ان حضرة شيخنا كتب هذه الرسالة الى بعض اخواننا من اهل العلم والفضل خارج - بيروت - .

بلغني ان فلاناً فسدت احواله ، وخرج عن الميزان الشرعي ، فاعلموا واعلموا الجميع ، انه مطرود من طريقتنا هو وكل من وافقه على فساده وافعاله المخلة بالشرع الشريف . واوصيكم ان تزنوا احوال الفقراء على الكتاب والسنة ، وكل من رأيتم منه مخالفة ، فأنتم مأذونون بطرده ،

ولا تعطوا الطريقة إلا لمن وجدتم فيه الأهليـــة ، ورأيتموه متمسكاً بالشريعة الطاهرة المرضية .

من رسائله رضي الله عنه الى بعض اخوانا

صورة عن كتاب من والدي الى – توفيق بك – سر خزنة السلطان عبد الحميد الذي أملاه على الشيخ – عبد الرازق القاضي – .

ولدنا القلبيّ ،

بعد السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، والتوسل لحضرة السيد الكامل ان يتعطف عليكم بفيض فضله الاقدس ، حققكم الله جل وعلا بمقامـــات العرفان ، وكشف لكم من جود إحسانه عن مقام الشهود والاحسان ، ووفّق اعمالكم على منهج القرآن ، وحفظ احوالكم بسر قوله : تبارك الذي نزّل الفُرْقان ، وجمع قلوبكم على تقوى الله ، ومتّعكم بحب رسول الله ، الذي أُنزل عليه « قُلْ إن كُنتُم تُحِبُّون الله ، فاتبعوني يُحبِبْكُمُ الله » ، فأوصيكم بالالفة والمحبة ، والمحافظة على حقوق الاخوة والصحبة ، امتثالاً لأمر سيدنا الاعظم ، القـــائل : التوسل بالحب اعظمُ مِن كلّ وسيلة وأسلم ، محمد عليه الصـــلاة والسلام ، فافهم مَن نحن بِمدَدِه سائرون وعلى حُبه مقيمون . الحب اساس الطريقـة ، والشريعة مفتـاح الحقيقة ، وذكر الله عظـيم ، والفكر صراط مستقيم ، وسلب الارادة طريق قويم ، فصاحب الذّكر سائر ، وصاحب الفكر حائر ، وسالب الارادة مُراقِب ناظر ، وصاحب الحب طائر ، فاعملوا على المحبة ، واتقوا بها كلّ نائبة تكفيكم دنياكم وسلامة دينكم ، وكفى قوله ﷺ « يُحشر المرءُ مع مَنْ أحَبّ » داوموا على اوراد الطريقة ، وتذاكروا بذكر الله ورسوله يرزقكم بفضله الحقيقة ، والتحقيق بعلم تجليّات اسمائه وصفاته ، ويلهمكم كتابه وآياته ، وتنالوا سعادة الدارين .

في ٧ شوال سنة ١٣١٠ هجرية

* * *

من وصاياه وحكمه

رضي الله عنه

من وصاياه رضي الله عنه

قال رضي الله عنه ونفعنا به : الحاضر يعلم الغائب ، رُبّ مبلغ اوعى من سامع ، ان مبنى طريقتنا الشريفة واساسها الأعظم ، معرفة الله تبارك وتعالى باسمائه وصفاته وافعاله واحكامه ، وسائر شئوناته ومراتبه ، الظاهر بها ظهوراً تامًّا ، باعطاء كل ذي حق حقه ، من انواع كمالاته اللائقة بكل مرتبة من مراتبه ، وان الوقوف بمقام الجمع المطلَق ، وتضييع احكام المراتب المعيَّن بها — اي الجمع المعبر عنه بمقام الطمس والعماء — جهل وضلال ، وخروج عن دائرة الحق المتعال ، فيجب على الفقير الصادق ، ان يخرج من ظلمة ليل الجهل ، الى صبح الفَرق ، وان يعطي كل ذي حق حقه من المراتب والاحكام ، كي تفتح له خزائن الأسرار ، من خلف سُرادِقات الحجب والاستار ، وان كان مشهده الوحدة المطلقة ، يعطي ان هذا عين ذاك ، لكن يجب العكوف من حيث امرك مولاك ونهاك ، وإلا تلاشت المراتب والاحكام ، وأبطلت حكمة إرسال الرسل الكرام ، عليهم الصلاة والسلام ، وانهدمت قواعد الدين ، وضاعت هداية المرشدين ، واسترسلت الغفلة في قلوب الجاحدين المعاندين ، وكل من نادى في وحدته العمياء ، خسر الدنيا والآخرة ، حيث يشهدون الفرق جمعاً ، وهم يحسبون انهم يحسنون صُنعاً ، اولئك الذين لا خلاق لهم في الآخرة ، ولا يكلمهم الله ولا ينظر اليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم .

فواجب الفقير الصادق في محبة شيخه ، الذي يعتقد فيه انه وارث

محمدي ، ونائب عنه ﷺ فيما بلغه عن ربه عز وجل ، بالوقوف على حدة بامتثال اوامره واجتناب نواهيه ، والاستسلام في ظواهره وخوافيه ، وكل من سار مع نفسه ، وسرح في مسارح شهواته عن معارج قدسه ، فقد نقض عهده وأوجب النكوص بعده ، ومرق من الدين ولم يشعر بحاله ، وغرق في مساقط اوحاله ، بزخرفة محاله ، فالفرار الفرار ، من هذه الاقذار ؛ الى اقتباس الأنوار من مشكاة الأسرار ، والخلاص من منازل الأوحال .

وقال رضي الله عنه :

الطريق محبة وصدق وحفظ اسرار الله ، ولا يجوز اعطاء الطريق لمن لا يحفظها ، فماذا نفعل بهؤلاء الذين يعطون الطريق للناس وفي ذات الوقت يتكلمون امامهم بالحقائق ، فالفقير الصادق لا يتكلم بالحقائق على غير اهلها ، إلا اذا كان متمكناً من العلوم الظاهرة ، خشية ان يخطىء في التعبير ، فيكفر دون ان يدري ، ولذلك يجب عليه ان يتوب عن اعطاء الطريقة لمن لا يحفظها ، فيما لو فعل ذلك ، ويتوب عن التحدث بالحقائق امام الناس .

* * *

وقال رضي الله عنه قبل انتقاله الى جوار ربه :

جئنا من بلادنا لنعرّفكم بالله ، وقد عرّفناكم به ، والله سبحانه موجود باق ، فتمسكوا بالله واعتصموا به ، ولا تغفلوا عن ذكره ، كونوا قلباً واحداً ، ونفساً واحدة ، ولا تغيّروا ولا تبدلوا ولا تتفرقوا ، وكونوا على ما انتم عليه . امتثلوا ما امرناكم به ، واجتنبوا ما نهيناكم عنه ، لا تقولوا نحن غائبون عنكم ، اننا حاضرون ، ناظرون اليكم ، لا تقولوا ، اننا لا نراكم ، بل والله نراكم ونعلم احوالكم كلها .

بعض احاديث منه كلام والدي رضي الله عنه [1]

قال رضي الله عنه :

كل حكم من احكام الشريعة ، تحته كنز من كنوز الحقيقة ، ولا يُنال ذلك الكنز إلا باتقان ذلك الحكم الشرعي .

* * *

قال رضي الله عنه :

الموارد ترد على قلب الفقير من اربع جهات ، مَلَكيّ ، ورحماني ، ونفساني ، وشيطاني ، ومن لا يُصلّي ولا يقرأ الوظيفة والوِرْد ، لا يستطيع تفريق هذه الخواطر عن بعضها ، ومعرفة الصحيح منها من الفاسد .

* * *

قال رضي الله عنه :

أصل ماء البحر حلوٌ ، فلما طرأ عليه المَرَض ، صار مالحاً ، يلزمه استاذ ماهر يكرره ويرجعه الى اصله .

* * *

قال رضي الله عنه :

انظر الى من يقرأ القرآن ، كل انسان يقرأ في سورته ، فالوجود كله فُرْقانٌ ، فمن جاوز قرآنه فُرقانه كَمُلَ إيمانه وعرفانه .

* * *

قال رضي الله عنه :

الوجود هو الكتاب ، والانبياء سُوَرُهُ ، وأكابر المسلمين ، والكُفار آياته ، وعامة الخلق كلامه ، والوجود الناقص حروفه ، والمجموع هو الله ،

* * *

(١) من كتاب مجموعة احاديثه وحكمه ومواعظه رضي الله عنه – تحت الطبع – .

قال رضي الله عنه :

مراتب الوجود اربعة : جماد ، ونبات ، وحيوان ، وانسان : اقواهم شهوداً بالله ، المرتبة الجمادية ، فهي لا إرادة لها ولا تتحرك بنفسها ، فاذا ُوضع حجر في مكانٍ ما الف عام ، ولم تنقله يد ولم تزحزحه الامطار ، لا يتحرك بنفسه ، ومن بعدها تأتي المرتبة النباتية ، وهي اخف شهوداً بالله من الجمادية ، لأن لها قابلًا يطلب الماء ويحركها الهواء ، ومن بعدها تأتي المرتبة الحيوانية ، وهي اخف شهوداً من النباتية لأن لها إرادة تأكل وترد الماء ، اما الحجب الكلية فعلى المرتبة الانسانية ، مع انها من اكمل المراتب حسناً ، كما قال تعالى في كتابه العزيز : (لقَدْ خَلقْنَا الانسَانَ في أحْسَنِ تَقْويمٍ) ولكن ما يزال الانسان في إرادته وانانيته في اسفل سافلين .

* * *

قال رضي الله عنه :

الطّور لا يمكث زمانين ، والانسان مجموعة اطوار ، فهو في كل لحظة في َخلق جديد ، فاذا كان هذا الطور يعطي الحياة يعقبه آخر في الخلق الجديد ، كما ان الانسان ُوجد من عدم ، فهو نسبة عدمية حكمية مقدرة ، وحقيقتك علم بحقيقة علم الله .

* * *

قال رضي الله عنه :

النّحلة ترعى من كافة الزهور ، ترعى الحلو والحامض والمر ، ومن صفاتها ان ينقلب غذاؤها عسلًا ، فهي تأتي الى زهرة « النّوفل » ، وهذه الزهرة تتفتح في الصباح ، وتطبق عند الغروب ، فتأتي النحلة وتأخذ منها قدر كفايتها وتطير ، اما النحلة التي فيها ُرعونة ، فيحلو لها البقاء في

الزهرة الى ان تغرب الشمس فتطبق عليها الزهرة وتموت النحلة من شدة رعونتها .

* * *

قال رضي الله عنه ؟

العلم الالهي مطلق ، والعقل والادراك مقيّدان ، فاذا قوي العلم الالهي عليهما انطلقا بانطلاقه ، وان هما قويا عليه تقيد تحت دائرة العقل والادراك .

* * *

قال رضي الله عنه :

ما زال العبد يذكر الله ، حتى يستولي الاسم عليه (أي اسم الله الأعظم) ومتى استولى عليه الاسم انطوت العبديّة بالربيّة ، وظهرت عليه صفات الرب ، ولذّة الرب تغيّب العبد عن وجوده حسّاً ومعنى .

* * *

قال رضي الله عنه :

متى استولى الجمع في باطن الفقير ، تتفجر ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه ، وتظهر الاسرار والانوار ، وعلى هذه الحالة كان من قُتل وعُذّب في مقام الجمع ، أما صاحب الفرق الثاني ، فهو يسري في الممكنات سريان الماء في العود الاخضر .

* * *

قال رضي الله عنه :

قارىء القرآن مناجي الحق ، قارىء القرآن ترجمان الحق ، والقرآن حضرة الجمع .

* * *

قال رضي الله عنه :

الطريق كالجوهر المكنون في صندوق ، والمفتاح الذّكر (أي ذكر

الله) وأسنان المفتاح كفُّ الحواس عن المخالفة

* * *

قال رضي الله عنه :

للطريق اربعة اركان ، محبة ، وذِكر ، وفكر ، وتسليم ، وأهم هذه الاشياء المحبة الالهية ، لأنها قطبٌ تدور عليه الدوائر ، فمتى احببته ذكرته ، ومتى ذكرته فكرت فيه ، وسلمت امرك اليه ، ثم تلا قوله تعالى (فلا وربِّكَ لا يؤمنون حتى يُحكِّموكَ فيما شَجَرَ بينَهُمْ ويُسَلِّموا تسليماً) .

* * *

قال رضي الله عنه :

الذِكر يغسل القلب من جميع المخالفات ؛

اذكروا الله بالتوحيد ، يذكركم بالتأييد ، اذكروا الله بالشكر ، يذكركم بالمزيد ، اذكروه بالطاعة يذكركم بالنعمة ، اذكروه بالمحبة ، يذكركم بالقُربِ .

قال رضي الله عنه :

الكشف الذي اصطلح عليه الأولياء على ثلاث مراتب : الأول يكشف لهم عن صور الأنبياء ، والثاني يكشف لهم عن ارواح الأنبياء ، الثالث يكشف لهم عن روحانية محمد صلوات الله وسلامه عليه ، فيضع في قلوبهم نور التّوحيد الذاتي .

* * *

قال رضي الله عنه :

محمد الفرد الجامع الفاتح الخاتم من البداية الى النهاية ، لا يفارق المؤمن ولا نفساً ، لو انكشف الغطاء لرآه عياناً .

* * *

قال رضي الله عنه :

لما خلق الله الوجود ، قال : ما الذي يحتاج اليه هذا ؟ ، ثم وضع

له سمعاً من سمـــع محمد ، صلوات الله وسلامه عليه ، وبصراً من بصر محمـــد ، صلوات الله وسلامه عليه ، محمـــد وذوقـــاً مـــن ذوق محمد .

* * *

قال رضي الله عنه :

النفس مخلوقة من الشهوة والمـادة والطبيعة الحيوانية ، والروح مخلوقة من عالم الأمر ، والذي يقويها (الذكر والصلاة والطاعة) فتدخل في عالم الملكوت وتظهر في عالم الأنوار وتكتشف المغيّبات .

* * *

قال رضي الله عنه :

النفس بيتُها الشرع ، والروح من عالم الأمر ، والقلب بيت العزّ .

* * *

قال رضي الله عنه :

ان الله ليتجلى على احبابه كما تتجلى الشمس الارض ، هي في السماء الرابعة ويسطع نورهـــا على الارض ، أفيجوز للارض ان تقول : انا الشمس ؟ ! ! كلا هذا لا يجوز وشتان ما بينهما .

* * *

قال رضي الله عنه :

حرف الالف حين امتد للكسر رزقه ربي النقطـة ، ولذلك تقدمت الباء على جميع الاسماء بقول : بسم الله الرحمن الرحيم .

* * *

قال رضي الله عنه :

الحب على ثلاثـــة اقسام : حب طبيعي ، ينفصل في عالم المُلك ، وحب روحاني ، ينفصل في عالم الملكوت ، وحب حقيقي ، لا ينفصـل لا في عالم الملك ، والملكوت ، ولا في عالم الجبروت .

قال رضي الله عنه :

احبّوا الله باطاعة رسوله صلوات الله وسلامه عليه تختمر محبته في قلوبكم ، وينتفع بها كل من يحتاج الى الغذاء الروحي ، احبوا الله حبًّا يُغيبكم عن وجودكم حسّاً ومعنىً فتصبحوا في ملكوته حاضرين ، فالحب الالهي قديم ، وهو أوّل ما برز من الكنز ، وليس للحب نهاية ، فهو دائم باقٍ بمظهره المحمدي .

* * *

قال رضي الله عنه :

الماء الذي نزل من السماء ، قُسِم على أربعة اقسام : الماء الذي نبع من قلب محمد ﷺ ، فهو عين ماء السماء ، والماء الذي نبع من قلوب صحابته رضي الله عنهم ، فهو عين ماء السماء ، ولكن خالطه غبار الارض والماء الذي تفجّر من قلوب المجتهدين ، فهو ماء يُستعمل ويؤخذ منه قدر الكفاية ، واعبد ربك حتى يأتيَك اليقين ، أما الذي نبع من قلوب الخوارج وأشباههم ، فهو سمٌّ زعاف لا يجوز استعماله .

* * *

وقال رضي الله عنه في تفسير الآية الكريمة :

(وجَعَلْنا مِن الماءِ كُلّ شيءٍ حيٍّ) المراد هنا ماء الحضرة المحمدية ، الذي نبع منه ما كان وما يكون ، لا مياه البحار والامطار وغيرها ، فقد يقع الانسان في حفرة ماء او يغرق في البحر ، او تجرفه السيول فيموت .

* * *

وقال رضي الله عنه في تفسير الحديث الشريف :

(حبّب إليّ من دنياكم : النساء والطيّب ، وجعلت قرة عيني في الصلاة) [1] قال : النساء صوَر الممكنات والطيب ما ظهر منها ، والصلاة

---

(١) الحديث اخرجه احمد في سنده والبيهقي في السنن .

الشهود فيها . وفي رواية ثانية ، قال : النساء ظواهر الممكنات ، والطيب ما طاب منها ، والصلاة الشهود فيها .

* * *

قال رضي الله عنه :

جهد الانسان ان لا يجعل قلبـــه محلاّ لصوَر الخواطر ، لقوله تعالى في كتابه العزيز (إن المسَاجد لله فلا تدعوا مَع الله أحَداً) .

* * *

وقال رضي الله عنه :

إذا ورد على الفقير وارد ، يجب أن يزنـــه بميزان الشرع ، فان وافق الشرع يقبله وإلا فليرفضه .

* * *

قال رضي الله عنه :

الفقير هو الذي لا يسمـــع ولا يبصر ولا يتكلم إلا بما يرضي الله ورسوله ﷺ .

* * *

قال رضي الله عنه :

رأس مال الفقير دينه ، فاذا اضاع رأس ماله فبماذا يشتغل ؟ ! !

* * *

قال رضي الله عنه :

إذا اراد الفقير ان يتكلم بالمواعظ والزواجر فليضع نفسه امامه ويتكلم .

* * *

قال رضي الله عنه :

إذا استطاع الفقير ان يأتي بالسند فليتكلم وإلا فليسكت .

* * *

قال رضي الله عنه :

من اخذ بالمجمل هلك ، الفائدة بالتفصيل .

* * *

قال رضي الله عنه :

آخر ما يخرج من قلوب الصدّيقين ُحب الرآسة .

* * *

قال رضي الله عنه :

إذا بغى العبد وارتكب المخالفات ، تحذّره جميع الأسمـــاء الالهية ويتوعده الاسم الديان ، وعداً شديداً ويقول له : سوف ترى .

* * *

قال رضي الله عنه :

لا وصول الى الله إلا باتبـــاع اوامره واجتناب نواهيه ، وكل من تعدى الحدود الشرعية لا نعرفه من اهل طريقتنا .

* * *

قال رضي الله عنه :

كل من يخالف الشريعة لا انا منه ، ولا هو مني ، ولا اعرفه ولا يعرفني ، كل من يخالف الشريعة انا برىء منه في الدنيا والآخرة .

* * *

وقال رضي الله عنه :

إني بريء في الدنيا والآخرة من كل من يخالف الكتاب والسنة .

* * *

قال رضي الله عنه :

قلب الشيخ دائمـــاً دوماً مستغرق بذكر الله وانوار رسول الله ، لا تلفته حاجة من حاجات الدنيا إلا قلب المريد الصادق .

* * *

المريدون

شروق الانوار في الاعيان الثابتة في العلم

قـال راوي السندِ　　ناقـلًا عـن سيدي [1]
منتهى سَير الرجالْ　　شرعنـــا المحمـدي

★

شرعنا اهلَ الهوى　　يَمْحُو اوهام السِّوى
إنّ عرش الاستوا　　منـه وسعُ العـددِ

★

ديننا حُبٌ وودٌ　　ما لنا في الكون ضد
نصبح اليوم لغـد　　كأبٍ مـع ولدِ

★

نحن حزب المصطفى　　نحن اصحـاب الوفا
نحن اخوان الصفـا　　غُصَّـةُ المعربـــد

يتساءل الكثيرون ويدهشهم سرعة انتشار طريقتنا الشريفة في هـــذه البلاد ، بعد انتقال سيدي الوالد رضي الله عنه من المغرب الى المشرق ، إذ لم يمر على وصوله إلى – عكا – اكثر من عامين ، حتى كانت الطريقة الشاذلية منتشرة في – سورية – أي سورية ، ولبنــــان ، وفلسطين ، وشرقيّ الاردن .

والجواب على ذلك ان ليس هذا غريباً ، فعلوم هذه الطريقة واصولها ومبادئها وأئمتها المعتبرون ، وأشياخها ورجالها المخلصون ، وحال اهلهـــا المقربون ، كل ذلك كان يقضي بسرعة انتشارها ، وكان حتماً على أهل الخصوصيَّة من أهل هذه البلاد ، الذين انتسبوا الى شيخنا رضي الله عنه ،

(١) من اناشيد الاذكار للشيخ السيد نصوحي الجابري

وسلكوا في طريقه القويم ، انّ يجتمعوا به ، وكان هذا الاجتماع مقدّراً لهم من عالم الارواح قبل وجودهم في عالم الاشباح . فكان منهم السالكون ومنهم الواصلون الذين لم يقفوا مع شهود الانوار، بل نفذوا الى نور الانوار ، منهم من ظهر بظهوره الشريف ومنهم من تبرقع بالخفاء .

ويرى السادة الصوفية رضوان الله عليهم ، ان قوّة الظهور ورفعة المقام في ولاية صاحب الوقت ، ليست بكثرة الاتباع من العوامّ والسذّج ؛ فهولاء سريعوا الاجابة في كل شيء ، وإنما هي بجذب قلوب جماعة من اكابر علماء الشريعة في عصر ذلك الوليّ الى الطريق ، حتى قال بعضهم : ليست المشيخة بتسليك خمسين رجلاً ، بل بتسليك عالمٍ واحد ، إذ لا يخفى ان قوّة السادة العلماء لا يستهان بها ، فإذا جمعوا بين العلم في الظاهر والباطن انتفع بعلمهم خلق كثير ، وكانوا رُكناً من اركان التصّوف .

ومن لطائف المِنن على سيدي الوالد رضي الله عنه ، أن ولايته عامة جامعة لسائر الطبقات والأجناس . وقد اكرمه الحق بقوّة الظهور ، فجذب اليه قلوب نخبة من أكابر علماء عصره الأعلام أخذوا عنه وانتسبوا اليه ، وكان لهم أثر بيّن في خدمة الطريق واهله . لقد محق الله افعالهم بافعاله ، وأوصافهم باوصافه ، وذاتهم بذاته ، وحمّلهم اسراره فكانوا من اكابر العارفين الواصلين .

وكان اول من اخذ عنه رضي الله عنه من علماء الشريعة في هذه البلاد ، علماء — عكا — ثم نخبة من اكابر علماء — القدس الشريف — حيث كان رضي الله عنه قد ذهب اليها على اثر وصوله الى — عكا — لزيارة الحرم الأقصى ، ثم رجع الى — عكا — وهناك تعرف اليه هؤلاء السادة الذين اخذوا عنه وثبتوا على ما عاهدوا الله عليه ، وقاموا بالواجب على الوجه الاكمل في خدمة الطريق واهله ، فجاهدوا بعلمهم ونفوذهم وبذل اموالهم في سبيل نشر طريقتنا الشريفة ، وساهموا في بناء

زاوية – ترشيحا – وزاوية – عكا – القديمة ، ثم زاوية – عكا – الكبيرة (وهي المعروفة اليوم) واوقف احدهم الشيخ محمد علي النقيب الحسيني نقيب الاشراف ، بيتاً في القدس لاجتماع اخواننا فيه ، ورصد آل البديري وآل الدباغ بيتاً آخر ، جعلوه زاوية . ولبعض هؤلاء السادة قصائد وموشحات واناشيد صوفية ، وكلام عالٍ في علوم القوم (نورٌ عَلى نُورٍ ، يَهدي الله لِنوُرهِ منْ يَشَاءُ) فقد انعم الله على الشيخ خالد المحتسب الخليلي ، فنظم عدة قصائد وموشحات واناشيد صوفية رائعة ، ومنظوماته معروفة مشهورة بين اخواننا تنشد في حلق الذكر وفي مجالس انس القوم بالله .

لطيفة

في ذات يوم اجتمع اخواننا في القدس ، فقال احدهم للشيخ خالد : ان كنتَ فانياً في شيخك حقّاً كما تدعي فانظم لنا قصيدة تتضمن قافية كل بيت فيها اسم شيخنا (علي) وتلوا على مسمعه الآية الكريمة (قُلْ هَاتوُا بُرهانَكم إن كنتم صَادِقينْ) فنظمها قبل ان يغادر مجلسه وهذه هي :

دهِشَت بمطلعه الورى فتنوّعتْ أزهار كرم الحقّ إذ بانت عَلِي
تجلو محاسنها بكل وديعةٍ هيفاء إذ كلّ المحاسن من عَلِي
تبدو ببارق ثغرها كمهندٍ قد سُلّ من غِمد وصال به علي
بلطافةٍ وبرّقة وسماحةٍ ونداوةٍ تمتدّ من فحوى علي
أروي حديث القوم عنها مُذ ، عنا قلبي بانّ حديثها تعني علي
قد كنت في ظل البراقع مُدرجاً فيض الحقيقة ابدعتني من علي
قد آن لي ان استفيق بكأسه من خمرةٍ كرميّةٍ زدني علي
عَلّي أُصان بشربها عن وهمها وأرى جميع شؤونها تبدو علي
وأكون منه على كمالٍ في الملا متجملاً بصفات ذاتك يا علي

بكرائم الانعـام فيضاً ُمنَّ لي   وبرِقّـَـة التحقيق حقـّقني علي
يا ذات كلّ ُمحَقـّقٍ وحقيقةٍ   وحياة كل مليحةٍ كنْ لي.علي
طاب الحديث به وطاب مدامه   والشرب يحلو من اياديك علي

★

من قصيدة مطولة نظمهـا مريد سيدي الوالد الشيخ يعقوب البديري المقدسي :

عاينتُ تصريف الشؤون به بدا   عـالي المحامد معدنُ الاحسانِ
اكرم به من يشرطي زان الملا   بمحاسنٍ إذ كان اصل معـاني
هوَ طالمـــا اهدى الانام بهديه   إذ قد ظهرنا عينه بعيـــاني
هذا هو الفرد الذي ضاءت به   اكواننا من قبل بدء أوان
نالت به فتحَ القديم ببـــاطنٍ   فأبت شموس جمالهـــا تجفـاني
قد آن للانسان ُيدعى كاملًا   وبنور نور الدين نلت امـــاني

أسماء بعض اخواننا العلماء في القدس وخليل الرحمن (١)

العلامة الجليل : الشيخ محمد علي النقيب الحسيني — نقيب الاشراف في مدينة القدس .

العلامة الجليل : الشيخ حـامد البُدَيري ، مقدم الطريقة الشاذليـــة اليشرطية في القدس .

العالم الفاضل : الشيخ يعقوب البديري المقدسي .

العالم الفاضل : الشيخ ابراهيم البديري المقدسي .

العالم الفاضل : الشيخ ابراهيم الدّبّاغ المقدسي .

---

(١) وقد رأيت ان اكتفي بذكر اسماء طائفة من علماء الشرع الشريف الذين تلقوا عنه الطريقة الشاذلية اليشرطية ، إذ لا سبيل الى ذكر العلماء المنتسبين اليه جميعاً ، رضي الله عنه .

العالم الفاضل : الشيخ محمد علي بدارو المقدسي .

★

العالم الفاضل : الشيخ خالد المُحْتسب الشاعر الصوفي الكبير – خليل الرحمن – .

العالم الفاضل : الشيخ مصطفى الخليلي – خليل الرحمن – .

العالم الفاضل : الشيخ عبد الرحمن الشريف – خليل الرحمن – .

العالم الفاضل : الشيخ حسين الشريف – خليل الرحمن – .

★

وكان العلامة الكبير الشيخ – موسى البديري – يوم ذاك صغير السن ، لكنه تلقى الطريقة الشاذلية فيما بعد عن عمه الشيخ – حامد البديري – الذي كان مُقدَّماً على الفقراء ، أي نائباً عن سيدي الوالد رضي الله عنه ، مجازاً منه باعطاء الطريقة الشاذلية وتربية المريدين والسير بهم في مقامات الشهود والعرفان . وقد انتفع به خلق كثير فكانوا من العارفين الواصلين .

ثم تشذَّل جماعة من أكابر علماء الشرع الشريف في دمشق وهم :

العلامة الجليل : الشيخ اسعد حمزة ، كان مأذوناً من سيدي الوالد باعطاء الطريقة الشاذلية ، وآل حمزة الكرام من اشراف المسلمين في دمشق ، اختصوا بنقابة الاشراف ، وبالافتاء الشرعي فيها .

العلامة الجليل : الشيخ سعيد الاسطواني ، تولى منصب القضاء الشرعي في دمشق ، في حكم الدولة العثمانية . وآل الاسطواني ، اختصوا بالقضاء الشرعي فيها .

العلامة الجليل : الشيخ عبد الرزاق الاسطواني ، القاضي الشرعي في بيروت على عهد العثمانيين .

العلامة الجليل : الشيخ رشيد سنان ، استاذ مدرسة – عبد الله باشا

العظم – لطلبة العلم الشريف في دمشق . قرأ عليه
جماعة من اكابر علماء العصر .

العلامة الجليل : الشيخ ابو النصر الخطيب ، معروف في الاوساط العلمية .

العلامة الجليل : الشيخ سعيد الغبرا ، معروف في الاوساط العلمية .

العلامة الجليل : الشيخ سعيد الخالدي الدمشقي ، أبعِدَ مع سيدي
الوالد الى جزيرة – رودس – .

العلامة الجليل : الشيخ بهاء البيطار ، من اكابر علماء – الميدان –
في دمشق .

العلامة الجليل : الشيخ محمود ابو الشامات ، الذي كان مقدماً على
الفقراء في دمشق ومجازاً من سيدي الوالد باعطاء
الطريقة وتربية المريدين ، وله تآليف عديدة في التصوف وغيره

العلامة الجليل : الشيخ مصطفى ابو ريشة ، مفتي – البقاع – . وقد
تولى منصب القضاء الشرعي في المدن الكبيرة .

وبعد ، فقد حدثني العالم الفاضل ، العلامة الكبير ، والشريف الحسني الادريسي المغربي الشيخ محمد العربي العزوزي امين الفتوى ، في الجمهورية اللبنانية ، ان العلامة الكبير الشيخ امين سويد الدمشقي ، كان قد تلقى الطريقة الشاذلية ، عن سيدي الوالد ، على انه لم يأخذها عن والدي مباشرة ، بل بواسطة احد الشيوخ من مريدي سيدي الوالد العلماء ، فاستأذنت منه ان اثبت ما ذكره في كتابي هذا فأذن لي بذلك .

– تابع اسماء اخواننا العلماء في دمشق وحمص –

العالم الفاضل : الشيخ محمد العجلاني ، وآل العجلاني من اشراف المسلمين
في دمشق .

العالم الفاضل : الشيخ عبد القادر الاسطواني .

» » : الشيخ محي الدين اللحام

» » : الشيخ سعيد الايوبي .

العالم الفاضل : الشيخ سعيد الحافظ العطار
» » : الشيخ سليم الخطيب البقاعي
» » : الشيخ عمر البازرباشي ، مفتي حاصبيا
» » : الشيخ احمد رمضان المغربي
» » : الشيخ احمد العرابي المغربي ، كان مقدماً على اخواننا المغاربة في الشام
» » : الشيخ محمد الشريف المغربي
» » : الشيخ علي الطقطاق الحرستاني . من قرية حارستا شقيق الشيخ محمد
» » : الشيخ سليم الطيب
» » : الشيخ مصطفى الترك ، من حمص .

وتشذل في بيروت علماء آخرون وهم :

العلامة الجليل : الشيخ احمد الأغر ، الذي تولى منصب الافتاء الشرعي في حكم الدولة العثمانية وفي احدى المرات تولى ثلاث مناصب في آن واحد : القضاء ، والافتاء الشرعي ، ونقابة الاشراف ، وهو منسوب الى سيدنا الحسن السبط رضي الله عنه .

العلامة الجليل : الشيخ مصطفى نجا ، مفتي بيروت الأكبر ، تولى منصب الافتاء الشرعي على عهد سلاطين آل عثمان ، وبقي فيه الى ان توفاه الله في حكم الدولة الافرنسية في بيروت فكان يدور مع الحق حيث دار ، وزمانه ليس ببعيد عنا ومناقبه مشهورة معروفة لدى الجميع ، فقد كان مثلاً اعلى لأهل العلم في كل ناحية من نواحي الحياة ، وكان مجازاً من سيدي الوالد رضي الله عنه باعطاء الطريقة

الشاذلية لمن يشـــاء ، وتسليك المريدين فيها . وله مؤلف نفيس في علم التصوف ، وله قصائد ومدائح نبوية صوفية تنشد في حلق الذكر .

العلامة الجليل : والمربي الكبير ، الشيخ احمد عبـــاس الأزهري ، ابو الأحرار ومؤسس الكليـة العثمانية التي سميت فيما بعد باسمه ، وقد رُشّح لمنصب الافتـــاء الشرعي في بيروت وكان مجازاً من سيدي الوالد باعطاء الطريقة الشاذلية وله مدائح وموشحات رائعة مدح فيها والدي وهي في غاية الابداع الصوفي .

العالم الفاضل : والأديب الشـــاعر الكبير ابو الحسن ، الشيخ قاسم الكستي ، وقد مدح سيدي الوالد بقصيدة مطولة .

العالم الفاضل : الأديب الشـــاعر الشيخ عمر نجـــا ، شقيق مفتي – بيروت – الأكبر .

العالم الفاضل : الشيخ سعيد الجندي ، وهو من احفاد الصوفي الكبير صاحب الأناشيد المشهورة الشيخ امين الجندي .

العالم الفاضل : الشيخ محمد بليق ، كان مأذوناً من سيدي الوالد باعطاء الطريقة الشاذلية .

العالم الفاضل : الشيخ سليم الأغر ، نجل الشيخ احمد .

العالم الفاضل : الشيخ عبد المجيد الأغر ، نجل الشيخ احمد .

* * *

وتشذل في مدينة – حلب – جماعة من علمائها وهم :

العلامة الجليل : الشيخ اسماعيل اللبابيدي ، الولي الصالح الكبير . قرأ عليه جماعة من الأكابر ، واجازه سيدي الوالد باعطاء الطريقة وتربية الفقراء .

العالم الفاضل : الشيخ احمد اللبابيدي ، نجل الشيخ اسماعيل ، وقد

اجازه والدي باعطاء الطريقة ، بعد انتقال ابيه الى رحمة الله .

العالم الفاضل : الشيخ الحاج صديق الجابري من وجوه ، واشراف مدينة حلب .

العالم الفاضل : والشاعر الصوفي المبدع ، الشيخ نصوح الجابري ، صاحب الاناشيد والقصائد التي تنشد في حلق الذكر ، وكان مقدماً ، مأذوناً من سيدي الوالد باعطاء الطريقة الشاذلية .

العالم الفاضل : الشيخ عبد الحميد الجابري ، كان مجازاً باعطاء الطريقة ، وكان مقدماً بعد اخيه .

العالم الفاضل : الشيخ محمد البادنجكي .

العالم الفاضل : الشيخ طاهر البادنجكي .

العالم الفاضل : الشيخ محمود الملا .

العالم الفاضل : الشيخ خالد الحبال .

العالم الفاضل : الشيخ مصطفى هلال .

العالم الفاضل : الشيخ مصطفى كنعان ، تجرد في زاوية – عكا – على عهد سيدي الوالد .

العالم الفاضل : الشيخ عبد الله الانطكاي .

العالم الفاضل : الشيخ عبده البلاط .

* * *

وقد تشذل جماعات من اكابر العلماء من بلاد مختلفة منهم :

العلامة الكبير ، والعالم النحرير الشيخ حسين الحسني البغدادي ، كان شيخ رواق اهل بغداد في جامع الازهر الكبير بمصر ، وبعد اخذه طريقتنا الشريفة تجرد في زاوية ترشيحا . ثم اذنه سيدي الوالد ان يذهب الى دير الزور لينفع الناس بعلمه الظاهر والباطن في تلك البلاد . قرأ عليه وتخرج على يديه كثير من علماء عصره وهو معروف مشهور وقد عينته

الحكومة العثمانية مفتياً في دير الزور ، وكان من اكابر اولياء الله الصالحين .

العلامة الكبير : الشيخ محمد السليماني ، من اكابر علمـــاء الاكراد الاعلام في بلادهم ، غاب في جذبة الهية بعد اخـــذه الطريق ، ثم رجع الى صحوه التام .

العلامة الكبير : الشيخ محمود سكيك ، من اكابر علماء غزّة العريش ، تجرد في زاوية ترشيحا ، الى ان توفاه الله .

العلامة الكبير : الشيخ اسماعيل احمد الخطيب ، الشهير بالطوباسي . من قرية طوباس في جبل نابلس ، تجرد في زاوية عكا وكان مقدماً فيها .

* * *

ومن فيض الله الاقدس ، انه لم يتولّ عالم من العلماء منصب الفتوى الشرعية في – عكا – منذ ان دخلها شيخنـا رضي الله عنه ، إلى وفاة المفتي الاخير الشيخ عبد الله الجزّار ، إلا وكان من مريدي والدي الذين اخذوا عنه وساروا في طريقته ، واعترفوا بذلك الفضل وبتعشقهم لذاته الكريمة وهم السادة :

العلامة الجليل : الشيخ قاسم العرابي ، مفتي عكا ولوائها .

العلامة الجليل : الشيخ علي ميري ، مفتي عكا ولوائها .

العلامة الجليل : الشيخ عبد المجيد السعدي ، مفتي عكاولوائها .

العلامة الجليل : الشيخ عبد الله الجزّار ، مفتي عكا ولوائها .

والشيخ عبد الله الجزّار هو المفتي الاخـير في تلك المدينـة ، إذ لم يتولّ بعده احد من العلماء منصب الافتـاء الشرعي في – عكا – وهو الذي صلى على جثمان الملك فيصل آل الحسين ملك العراق في – حيفا – فقد توفي ذلك الملك في – اوروبا – ونقل جثمانه بالطائرة الى – حيفا – وصُلي عليه فيها ثم نقل الى العراق .

* * *

وتشذل في عكا وبعض بلاد فلسطين جماعة من العلماء وهم :

العالم الجليل : الشيخ سعيد السعدي ، من عكا

العالم الجليل : الحاج عبد الله السعدي ، تولى منصب القضاء الشرعي وكان مجازاً من سيدي الوالد رضي الله عنه باعطاء الطريق وتسليك المريدين فيها من عكا .

العالم الجليل : الشيخ ابراهيم البقاعي ، تولى منصب القضاء الشرعي قرأ عليه مفتي عكا الشيخ علي ميري قبل ذهابه الى الأزهر من عكا .

العالم الجليل : الشيخ محمود ابو العلا ، تولى منصب القضاء الشرعي من عكا.

العالم الجليل : الشيخ محمد اللاّز . كان مجازاً من سيدي الوالد باعطاء الطريقة وتربية المريدين من عكا .

العالم الجليل : الشيخ محمود السعدي من عكا .

العالم الجليل : الشيخ علي المشلاوي من عكا .

العالم الجليل : الشيخ محمد العرابي ، مفتي عرابة وولده الشيخ امين .

العالم الجليل : الشيخ احمد الخماش من نابلس .

العالم الفاضل : الشيخ محمد سكيك من غزة العريش .

العالم الفاضل : الشيخ صالح سكيك ، الاديب الشاعر ، من غزة العريش.

العالم الفاضل : الشاعر الموهوب ، الشيخ محمد الصرطاوي ، انتقل الى رحمة الله وهو في مقتبل العمر ، ولو مد الله في أجله لكان له شأن في عالم الأدب الصوفي ، جبل نابلس .

* * *

اخواننا العلماء في صفد

العالم الفاضل : الحاج احمد الحاج عيسى الشريف الحسني ، عيّنه والدي مقدماً على الفقراء ، فكان يعطي الطريقة الشاذلية ويربّي المريدين .

العالم الفاضل : الشريف الحسني الشيخ سليم الحاج عيسى المفتي .

العالم الفاضل : الشريف الحسني السيد محمد القلاّ.

العالم الفاضل : الشيخ عبد الغني النحوي .
العالم الفاضل : ولده الشيخ محمد النحوي .
العالم الفاضل : الشيخ حسن النحوي .
العالم الفاضل : الشيخ موسى الخضرا ، كان مقدماً على الفقراء ، ومجازاً من سيدي الوالد رضي الله عنه ، باعطاء الطريق وتربية اتباعها . وولده الشيخ سليم .
العالم الفاضل : الشريف الحسني المغربي ، السيد محمد الدلسي .
العالم الفاضل : الشيخ عبد الغني محي الدين .
العالم الفاضل : الحاج محمد صالح صبح .

* * *

اخواننا العلماء في ترشيحا

العالم الفاضل : الشيخ محمد الصالح قاضي ترشيحا .
العالم الفاضل : الشيخ العارف المحقق سيدي احمد عبد الرحمن .
العالم الفاضل : الشيخ عبد الرازق الصالح ابن قاضي ترشيحا .

* * *

اخواننا العلماء في صيدا

العالم الفاضل : الشيخ محمد صالح لطفي ، عيّنه سيدي الوالد مقدماً على الفقراء ، يعطي الطريقة ويربي المريدين . وولده الشيخ عبد الحليم .
العالم الفاضل : الشيخ محي الدين الاسكندراني ، قام في سياحة لنشر الطريقة الشاذلية .
العالم الفاضل : الشيخ محي الدين حشيشو . تولى المقدمية بعد وفاة الشيخ محمد صالح لطفي .
العالم الفاضل : الشيخ حامد حشيشو تجرد في زاوية عكا .
العالم الفاضل : الشيخ احمد حشيشو وقد تجرد في زاوية عكا .

العالم الفاضل : الشيخ يوسف الخطيب ، من قرية - برجا - التابعة لصيدا .

وظهر في - صيدا - رجل كبير من اخواننا من اهل الله ، هو سيدي الشيخ محمد الساعاتي . وقد خُرقت له العادات ، وهو معروف مشهور بين اخواننا . وكان فيها العارف الكبير المجاهد في سبيل الله ، الذي تجرد في الزاوية ، وصحب سيدي الشيخ احمد عبد الرحمن في إحدى رحلاته لنشر الطريقة في دمشق وضواحيها والبقاع ، سيدي الشيخ محمد جديبة الصيداوي .

* * *

ولم يتلق هؤلاء العلماء الطريقة الشاذلية عن سيدي الوالد رضي الله عنه جماعات ، بل أفراداً ، منهم من تشدّل على أثر وصوله إلى عكا ، ومنهم من أخذ عنه في مدة إقامته في ترشيحا ، او في رودس . ومنهم من تلقّاها عنه بعد رجوعه الى عكا واقامته الدائمة فيها .

* * *

اليشرطيهْ قومٌ عليّهْ لا يشهدون الا الله[1]
والكلُّ مجلاه

الحب منهم والعشق عنهم والشوق فيهم يرضي الله
والقصد رؤياه

ان لاح وقتا فالكل موتى او قام فيهم ذكر الله
فالكل أوّاه

أو لاح جودا يطوي الوجودا
خرّوا سجـــودا لاسم الله
والعقل قد تاه

هم في الجمال وفق الكمال ظل الجلال عند الله
في حضرة الله

---

(١) نظم الشيخ سعيد الحافظ العطار - احد مريدي سيدي الوالد .

حازوا الصفاء نالوا الهناء　　إذ يشهدون نور الله
فالفـرد مرآه
هـذا العَليُّ اليشرطيُّ　　من فيـه يجلا مجلى الله
والحب أبـداه
فهو الامام وهو الختام　　قد جاء يهدي خلق الله
كي يعرفوا الله
يا ربي صلي على الاجلّ　　طه المصـــلي الى الله
والحق أعطـاه

* * *

طرائف لأكابر العلماء

ومن اكبر العوامل الفعالة في انقياد هؤلاء السادة إلى التشذل في ذلك العصر الذهبي للطريق ، أن جماعات من أكابر العلماء في هذه البـلاد ، كان يدفعهم شدة الانكار على اهل التصوف ، لرؤية سيدي الوالد رضي الله عنه ، فيذهبون الى ـ عكا ـ أو ـ ترشيحا ـ ، وهناك يتغير معهم الحال فيتشذلون على يديه ، ثم يعودون الى بلادهم ، وهم من أشد الناس تفانياً في حبـــه ، وتعشقاً لذاته الكريمة .

وقد وقعت لبعضهم حوادث طريفة جذبتهم الى طريقتنا ، منها ان جماعة من اكابر علماء الشريعة في ـ دمشق ـ ، كانوا من اشد الناس انكاراً على اهل التصوف ، وطعناً بهم . من هؤلاء العلماء العلامـة الكبير الشيخ سعيد الغبرا . كان هذا العـــالم الكبير يقرأ درساً في الفقه في ـ جامع السنانية ـ في دمشق ، وعلى أثر اجتماعات اخواننا في ذلك المسجد ، واقامة حلق الذكر فيه ، حمل ذلك الشيخ الجليل على أهل طريقتنا حملة شعواء ، فـكان يبذل النفس والنفيس في سبيل القضاء على تلك الحركة الصوفيـــة

المباركة ، وجاهد كثيراً ، فلم يتمكن من ذلك . وأخيراً اعتزم السفر الى ـ عكا ـ لمقابلة سيدي الوالد رضي الله عنه ، والبحث معه في هذا الموضوع ، وكان قد اختار بعض أسئلة يلقيها عليه ليجادله فيها ، منها « كيف يجوز للمريد ان يقبّل قدمي شيخه ؟ إن هذا نوع من العبادة لا يجوز قطعاً » . لكنه حين ادرك ـ عكا ـ ودخل الزاوية ، ووقع نظره على والدي رضي الله عنه ، غاب عن كل شيء ، ولم يشعر إلا وهو مكب على قدمي سيدي الوالد يريد ان يقبلهما ، وسيدي الوالد يرفعه بيديه ويقول له : « ان هذا نوع من العبادة لا يجوز قطعاً » . لقد سمع منه السؤال الذي كان يريد ان يلقيه عليه ، دون ان يسأله . وهكذا تغير معه الحال وتشذل على يدي سيدي الوالد ، وسلك في طريقتنا سلوك العارفين بالله ورسوله . وغدا من عظماء رجالها المجاهدين في سبيل نشرها وخدمة اتباعها .

* * *

وكان الشيخ مصطفى نجا ، مفتي بيروت الاكبر ، وهو علَم من أعلام هذه البلاد في العِلم والنزاهة والاستقامة ، يشتغل بالتجارة قبل ان يتولى منصب الفتوى الشرعي في بيروت ، وذات مرة ذهب قاصداً مدينة « يافا » لأعمال تجارية له فيها ، فلما وصل الى « حيفا » قال له احد التجار : (ألا تريد ان تزور الشيخ اليشرطي في عكا ؟) فكان جوابه : (لا اريد) . ولما رجع الى بيروت ، رأى في تلك الليلة انه دخل على سيدي الوالد في مكان ما ، فوقف والدي رضي الله عنه ومد اليه يديه وهو يقول له : (أنا ما عندي غير لا إله الا الله ، محمد رسول الله) . وأصبح الشيخ مصطفى نجا فاذا هو معتزم الرجوع الى عكا لزيارة سيدي الوالد ، وما عتّم ان رحل اليها ، وهناك في زاويتنا ، علم ان والدي رضي الله عنه في ترشيحا فقصدها الشيخ مصطفى رحمه الله لتوه رغم مشقة السفر على ظهور الجياد ، وحين دخل الزاوية وجد سيدي الوالد جالساً في حلقة المذاكرة ، وإذ بوالدي يقف ويتقدم نحوه ويمد اليه يديه ويقول له : (انا ما عندي غير

لا إله الا الله ، محمد رسول الله) ، وعندها تقـــدم الشيخ مصطفى وألقى بنفسه على صدر والدي ، فتلقاه والدي بين يديه وضمه اليـــه وقال له : (انت ولدي وقرة عيني) .

حدثني الشيخ مصطفى نجا فقال : « لقد رأيت صورة والدك كما رأيته في الرؤيا » . وبعد ان تلقى الطريقة ، أجازه والدي باعطـاء الطريق ، وان يتولى امور الفقراء ، ويسير بهم في مقامات الشهود والعرفان ، فكان ركناً من اركان طريقتنا الشريفة .

* * *

حدثني مفتي عكا الشيخ عبد الله الجزار قـال : ومن كراماته رضي الله عنه، ما حدثني به صديقي العالم الفاضل الشيخ احمد الخماش (مــن نابلس) قال : كنت اقرأ درساً مــن التفسير في نابلس ، وفي كل يوم كان يحضر الدرس رجل حائك ، فبعد الدرس يقول لي : هل لهـــذه الآية تفسير غير ما ذكرت ؟ فأقول : لا ، فيقول : بلى لها تفسير غيره وهو كذا وكذا ويفسرها تفسيراً مقبولاً لا اعلم من اين اتى به ، فلما تكرر ذلك منه قلت له من علمك هذا ؟ قال : علمنيه شيخي الشيخ علي نور الدين اليشرطي الحسني الشاذلي ، وانت إن شئت ان تتعلم فخذ الطريقة الشاذلية عنه يحصل لك ذلك ، فلم اعبأ بكلامه . ثم في الليلة التي تلي ذلك النهـار رأيت في نومي كأن ذلك الحائك دخل عليّ البيت الذي انا فيـــه ومعه شيخ آخر لا اعرفه ، وبمجرد دخولهما من الباب سطع نور في الحجرة حتى ملأها ، واقبلا اليّ وأنا نائم ، فقال الشيخ للحائك : امسكه ، فمسك احدهما بيدي والآخر برجلي ورفعاني عن الأرض ، وصـارا يخضاني كالقربة في ايديهما ، ولم يزالا كذلك حتى احسست نفسي كالعجين في ايديهما ، ثم وضعاني ورفعـاني مرة اخرى ففعلا كذلك حتى احسست بنفسي كاللبن الجامد في ايديهما ، ثم وضعاني ثالثة فأحسست بنفسي كالماء المتموج في ايديهما ، فقال الشيخ : كفاه ، ووضعاني وذهبا ، وفي اليوم الثاني حينما قرأت الدرس عـــلى

عادتي جاءني ذلك الحائك وقال : مبارك ، قلت : اي شيء ؟ قال : سبحان الله اما حضرت هذه الليلة مع شيخنا اليشرطي اليك ثم قص عليّ قصة المنام ، وقال لي الشيخ احمد الحاش المذكور : فاعتقدت بالشيخ وتوجهت اليه الى عكا واخذت الطريقة عنه وانتفعت به نفعاً عظيما ، ورأيت صورته في اليقظة كصورته في المنام من غير فرق » ..

* * *

وكان الشيخ محمود ابو الشامات ، طفلًا صغيراً يحبو في بيت أبيه في دمشق ، وذات يوم تركته والدته مع جدته لأبيه وذهبت لزيارة اهلها وصعدت الجدة الى سطح البيت لعمل ما ، فأخذته معها وشغلت عنه بعملها فسقط من سطح الدور الثاني الى الدار دون ان يصرخ ، وتفقدته الجدة فلم تجده فأسرعت تهبط الدرج الى صحن البيت فوجدته مستلقياً على قفاه يضحك ، فحمدت الله على سلامته وأخفت الحادثة عن أبويه وعن الجميع . وحين بلغ مبلغ الشباب كان من طلبة العلم الشريف في دمشق ، وكان بدء عهد انتشار الطريقة فيها ، فتشرف بأخذها ثم اعتزم زيارة سيدي الوالد رضي الله عنه في ترشيحا ، ولم يفاتح والده بذلك لعلمه انه سوف لا يسمح له بالسفر ، ولم يكن معه نقود لنفقات السفر واجرة الدابة فخرج من دمشق يمشي على قدميه ، وما كاد يبتعد عنها قليلًا حتى قابله رجل يمتطي فرساً ، فسأله عن وجهته فأخبره الشيخ محمود عن حقيقة حاله ، وعندها نزل الرجل عن الدابة ورجاه ان يمتطيها ففعل الى أن اوصله الى القرية التي سيبيت فيها فتركه . وفي صباح اليوم الثاني قابله في الطريق وأركبه الفرس الى القرية الثانية ، وبعد ذلك تابع الشيخ محمود سفره على الاقدام الى ان وصل الى ترشيحا ، فلما دخل الزاوية وقبّل يد شيخنا رضي الله عنه قال له سيدي الوالد : (انت ولدنا ومحسوب علينا منذ طفولتك ، وعندما سقطت من سطح الدور الثاني في بيت أبيك ، تلقيتك بيديّ ولم أدعك تصل الى الأرض ، وبعد عودتك الى دمشق سل جدتك عن الحادثة

تخبرك) . وحين رجع الشيخ محمود الى بيت ابيه ، قابله والده في حـــالة غضب شديد ، فتلطف الشيخ محمود بحديثه لأبيه ، فجعل والده يسأله عن الشيخ وعن ما سمعه عنه ، فذكر له ما قاله سيدي الوالد رضي الله عنه عن حادثة سقوطه عن سطح البيت ؛ فنادى والده امـــه وسألها فقالت : (نعم ، لقد سقط الغلام وأخفيت عنك الامر) . وعندهـا التفت الى ولده الشيخ محمود وقـال له : (لن أمنعك عن زيارة شيخك . هكذا الشيوخ وإلا فلا) .

وبهذه المناسبة نظم الشيخ محمود ابو الشامات هذه الابيات فقال :

يا خِتام الوقت يا سِرّ النبي   يا عليّ القـدر يا نعم الولي
يطلب الاحسان عبدٌ منكمُ   من كمين السّرّ بالسّرّ الخفي
بشّروا فاليسر من عاداتكمْ   عاملوا المسكين بالحسن الوفي
يغتذي من ثديكم مَن جاءكم   لا خفاكم سادتي حالُ الصبي
يُمْنُكُمْ قد عمّ انواع الورى   من مكينٍ في بطونٍ او جلي
(يأخذون) الكلُّ منكم حقهم   شاهدوا أو ساروا في قلبٍ عمي
يجهل الجسم جسيم الاخذ عن   ذاتكم والروح تدري مَنْ علي
يسأل الخلق ، ومن تعني بذا ؟   قلت : روحي ، بل وأمي وأبي
يشرطيٌّ مغـربيٌّ حَســنيٌّ حُسيــني تونسيٌّ شاذلي
يرتجي محمودُ فوزاً بالرضـــا   وجميع الحزب في بحرٍ ملي

* * *

وكانت مدينة دمشق من اهم مراكز السادة الشاذليـــة اليشرطية في هذه البلاد ، بعد ان ذهب اليها العارف بالله ورسوله سيدي الشيخ احمد عبد الرحمن ، مقدم ترشيحا الذي فتح الله عليه بالعلم اللدني ، وكان واسطة دخول معظم اخواننا في دمشق وضواحيها والبقاع في طريقتنا الشريفة

هذا العارف المحقق الواصل الى حضرة القرب من عظماء رجال طريقتنا المجاهدين في سبيل الهـداية والمعرفة ونشر الطريقة الشاذلية والعاملين على

رفع مستوى ثقافة ابنائها واتباعها .

لقد ذهب الى دمشق لبث الدعـــوة الى التصوف تحت لواء الطريقة الشاذلية ، فكان اول من ذهب يدعو الناس الى طريق الله من الشيوخ المقدمين بعد وصول سيدي الوالد رضي الله عنه الى هـذه البلاد ، وقد جعل إقامته في دمشق ، وكان يرافقه في إحدى رحلاته سيدي الشيخ محمد جديبة الصيداوي .

ثم تبعه فيما بعد ، اشياخ آخرون فذهب سيدي الشيخ مصطفى الحلبلي الى حلب وضواحيها ، وقـــام سيدي الشيخ محي الدين الاسكندراني الصيداوي ، بسياحة طويلة ، فكان يطوف في المـــدن والقرى لنشر مبادىء الطريق .

وقد ازداد إقبال الخلق على التشرف بأخذ طريقتنا والانتساب اليها ، فكانت دمشق مركزاً لاجتماع اخواننا ، وكان فيها رجال واي رجال ، من ابناء طريقتنا من اهلها ، ومن قرى الغوطة والبقاع الذي كان يومئذ في حكم الدولة العثمانية تابعاً لولاية الشام ، فكان يجتمع فيها حشد كبير منهم ، ومن اهل حلب وحمص وحمـــاه ودير الزور ، وضواحي حلب وجبالها ، من اخواننا الذين يمرون عليها اثناء زيارتهم ترشيحا وعكا .

كانوا في بادىء الامر يجتمعون في الجامع الاموي ، يقيمون حلقة الذكر بعد صلاة الجمعة وفي جامع سنّان باشا كانوا يقيمون حلق الذكر ليلة الجمعة ، فلمـــا كثر المريدون أنشئت زاوية – البلطجيّة – وتولى فيها المقدمية سيدي الشيخ محمود ابو الشامات بإجـازة من والدي رضي الله عنه ، فأصبح اجتماعهم فيها في ليلة الجمعة من كل اسبوع ، ولما كانت المواصلات ليلًا متعذرة يومذاك في – دمشق – ، لبعد المسافـات بين بيوتها ، كان لاخواننا فيها ثلاث مراكز ، ويطلق عليهم ثلاثـة اسماء : اهل المدينة ، وأهل الميدان ، وأهل الصالحية ، ولكنهم كانوا جميعاً يحضرون الاجتماع الكبير في ليلة الجمعة في زاوية – البلطجية – .

وكانت القوافل التي تسير بين — دمشق — و — عكا — و — ترشيحا — و — صفد — ، تنقل المريدين بطريق البر لزيارة شيخنا رضي الله عنه ، في — ترشيحا — او — عكا — بطريق — صفد — التي كان معظم علماء الشريعة فيها قد تشذل لقربها من — ترشيحا — فكانوا بذلك من السابقين الاولين في الطريق ، وبمرور القوافل السيارة عليها كان اخواننا يجتمعون فيها ، فيأنسون ويتذاكرون ، ويذكرون الله . المريدون يتذاكرون بالعلم ، والمتوسطون بالآداب والعارفون بالهمم ، وكان لا بد ان تمر القافلة على بعض القرى للراحة او للمبيت فيها ، وهناك كان ينزل الفقراء يصلّون ، ويرتلون آي الذكر الحكيم ، ويتلون الاوراد ، ويقيمون حلق الذكر ، وينشدون اناشيدهم الصوفية بنغمات ندية ساحرة تترك في نفوس اهل تلك القرى اثراً طيباً ، وميلاً الى التشذل ، لما يرونه في اخواننا من تقوى وصلاح وصيام وقيام وهيام ، وذكر وفكر وانسانية عامة ، وديموقراطية اسلامية ضمن حدود آداب الشرع الشريف ، واخوة ، بالله وقلوب صافية صفية تجتمع على محبة الله ورسوله .

ويوم ان عبّدت الطريق بين بيروت ودمشق وسار فيها (الدّلي جانس) وهي عبارة عن عربة كبيرة كانت تجرها عدة جياد — تحوّل بعض اخواننا من اهل دمشق وحمص وحماه وحلب وجبالها ، ودير الزور عن السفر بطريق صفد ، فكانوا يأتون الى بيروت ومنها الى صيدا ، او يعبرون البحر في البواخر الصغيرة التي كانت تسير بين طرابلس وبيروت وصيدا وعكا وحيفا ويافا ، مرتين كل اسبوع ، وهكذا كان يجتمع شمل اخواننا الذين انعم الله عليهم ، والفت الطريقة الشريفة بين قلوبهم ، قال الله تعالى في كتابه العزيز « لو أنْفَقْتَ ما في الارضِ جميعاً ، ما الّفتَ بين قلوبهم ، ولكنّ الله الّفَ بينَهُم » بالود الصادق فغدوا وكأنهم نفس واحدة وقلب واحد وروح واحدة ، بصدق توجههم الى الله تعالى ، وكذلك كان حال جميع اخواننا في سائر المدن والقرى التي تشذل

معظم اهلها .

لطيفة

في أثناء تجريد سيدي الوالد في زاوية شيخه في « مصراطة » في بلاد الغرب ، كان الشيخ محمد الفاسي متجرداً هناك ، فكان أخاً لوالدي في الطريق ، وذات يوم دخل عليهما شيخ والدي وقال لهما : (ستجتمعان يوماً في الشرق في بيت الرجل الصالح) . ومرت الاعوام ، وقام كل واحد منهما في سياحة ، ثم تقابلا على غير موعد في منزل السيد محمود ابي راضي شاكر في بيروت الذي تشذل على يد سيدي الوالد . وكان هو الرجل الصالح .

* * *

ومن نعم الله على قرية « حارستا » التابعة لدمشق ، ان ظهر فيها رجل من اخواننا من أولياء الله تعالى ، يدعى الشيخ محمد الطقطاق ، كان هذا الشاب العابد الزاهد العارف الواصل في ابتداء أمره من طلبة العلم الشريف في دمشق ، ثم تشذل وجاءه الفتح المبين بعد ان سار في طريقتنا سير الجِدّ ، وقد اهتدى بهدْيه خلق كثير من اهل تلك القرية وغيرها ، وخُرقت له العادات في حياته وبعد وفاته . وقد انتقل الى رحمة الله تعالى في حياة شيخنا رضي الله عنه ، وأثنى عليه شيخنا الثناء الجميل حيث قال لوالده ولشقيقه الشيخ علي : (ظهر فرع منا وانطوى فينا) . وللشيخ محمد المذكور مؤلَّف نفيس في تفسير سورة « يوسف » عليه السلام ، وله كلام عال في علوم القوم ، وكان واسطة دخول الشيخ سعيد الاسطواني في الطريق . فقد كانت للشيخ سعيد أراضٍ زراعية وأشجار زيتون في حارستا فكان يذهب اليها ، وهناك اجتمع بالشيخ محمد فأعجب به وانجذب اليه والى طريقتنا الشريفة ، فكان ذلك العلامة الكبير من ابنائها البررة المخلصين .

شاعر الطريق

وظهر في دمشق شاعر صوفي كبير من ابناء طريقتنا المنتسبين لسيدي الوالد رضي الله عنه ، وهـو الشيخ عبد القادر الحمصي الدمشقي المعروف والمشهور بين إخواننا باسم الشيخ عبده الحمصي .

كان هذا الرجل مقرئاً ضريراً من حفظة القرآن الكريم ، يجيد علوم التجويد ويتقن علوم النغمات والالحان ، لكنه لم ينظم الشعر قبل تصوفه وانتسابه لطريقتنا قط ، فلما تشرف بأخذها ، جاءه الالهام بمـدد روحي فنظم الشعر الصوفي (اناشيد وقصائد وموشحات وقدود) . منهـــا موشحات على وزن الموشحات الاندلسية ، وقد وضع لاناشيده وموشحاته ألحاناً توافق المعنى كألحان الموشحات القديمة والاغاني الحديثة في ذلـــك العصر ، منها ما يُنشد في حلق الذكر ، ومنها مـا يناسب مجالس أنس القوم بالله ، ومنها ما ينشد بعد الانتهاء من حلق الذكر وهم جلوس شبه دائرة ، وتسمى هذه تجريدة . وقد مدح سيدي الوالد بمنظوماته الصوفية الرائعة وردد إخواننا هذه الاناشيد في كل مكان ، فكانت من العوامـل الجذابة الداعية الى التصوف . وقـــد ألّف قصة المولد النبوي الشريف واناشيدها ، فجاءت آية في المعاني الصوفيـــة والابداع الروحي والرقي الالهي واصطلاحات القوم . فهو شاعر الطريق ، في ذلك العصر الذهبي وقد وضعت في كتابي طائفة من اناشيده .

ابيات من تائيته

نعم ، أثبتتْ ليـلى عهودي ببيعتي   وقد ارجعتني بعد صحوي لسكرتي
ولمـــا رأتني لا أميل الى السّوى   دنتْ من فؤادي واستمرتْ بمهجتي
لليلي بها فجرٌ ، وفجري بها ضحىً   ويومي بهـا دهرٌ ودهري كلحظةِ
ومن فوق ذي علم يدق عن الورى   على انهـــا أني ، وليست بصورتي
تجلت على الأكوان حتى كأنهـــا   من الكون شمس للعيون الصحيحةِ

ظفرت بهـــا بين الحطيم وزمزمٍ ولمـــا اتيتُ البيت ضيّعْتُ حجتي
فمعقولةٌ عنـــد الأنام وان بدتْ ومشهودةٌ محسوسةٌ عنـد عزوتي
أموت فتجلى ، ثم احيـــا فتختفي ببرقعهـــا المعروف بالأحديّـــةِ
فيا طالب العرفان مني بيانهـــا ويا قاصـد التحقيق ، منها حقيقتي
فمشهودةٌ في كل عـــين بصورةٍ ومحجوبـــة عن كل عين بصورةِ
رجالٌ ، أعارتهم عيوناً رأوا بهـا وقوم سواهم ، قيّدوا بالمشيـــئةِ
ففي سورة الاسراء ، ثم إشـارةٌ بهـــا يكتفي ذو همة علويّـــةِ
فـلا النصح يدنيني إذا هي ابعدت ولا العذل يقصيني ، إذا هي ادنَتِ
نعم ، اسفرتْ حقاً عن السر والخفا فشاهدتُ نور الذات في كل ذرّةِ
فـــلا يحسب المغرور أني معلقٌ بليلى وسلمى ، بل بروحي ومهجتي
مقدسةُ الأوصاف عن وهم ريبـــةٍ منزهـــةٌ بالحسن عن كل صورةِ
هي الجسم ، والاعضاء والدم والحشا هي العقل مني ، والحواس وصبغتي
هي الملكُ ، والملكوت والصورة التي بلاهوتِ ناسوت الوصال استقلّتِ
وتلك لهـــا شأن بديعٌ وحضرةٌ بها قامت الأشياء في صنع حكمةِ
كعنوان نشوانٍ ، لذاتٍ تنزهتْ ونقطـــة باءٍ اظهرت كل آيـــةِ
بدت ، فاستضاء الكون نوراً وكان في ظروف عماءٍ ، في ظلام الهويّـــةِ
سريتُ بهـــا ليلاً من المسجد الحرا م الى المسجد الأقصى ، بقدس الحقيقة
ركبتُ بُراقَ الحب من آل يشرط وصاحبني جبريل ، روح المحبـــةِ
فشاهدتُ في معراج ذاتي عجائبـاً وعند سمـــاء الفتح اظهرت كنيتي
وحسبي سمـــاء الفرد يا حبذا الحمى وروحي بها دون الأنام اطمأنت

* * *

وبعد ان تحدث عن العرش والكرسي والحجُب ، قال في معـــارج الصلوات الخمس :

وعند اهتمامي بالرجوع معارجاً بها ارتقي في كل يوم وليـلةِ
ففي الصبح معراج الى الحضرة التي بها نارت الاكوان من بعد ظلمة

ومنها رشاد العالمين ان اهتدت　عليهـــا ولا نهجٌ سواها لِقبلتي
وفي الظُّهر معراج الى الرتبة التي　هي الماء حقـاً والوجود كثلجة
هي النفس روح والظلام لها ضياً　وكم لي بها من لذة فوق لذة
وتيه ابن عمران الكليم بسُوحها　وقد صار فيها كل حيٍّ وميت
وفي العصر بمعراج الى المستوى الذي　أفاض به حبي عـــلى كل ذرّة
وفي كهفه للعـالمين منـــازل　وفي ظـــله كل الانام استظلت
وفي المغرب القدُّوس معراج مقدسي　لذاتٍ تولت سر كل حقيقـــة
ملوك أولو الالباب تدعى عبيدها　وكلٌّ عظيم دونها كالبعوضـــة
فلله در النـــازلين بحيِّهـــا　صفاها اصطفاهم من جميع البرية
فحـازوا كمالات الوجود بأسرهـا　لِما في حِماهـا من كمالٍ ورتبة
ومعراج روحي في العشاء لحضرةٍ　أحاطت مع التنزيه في كل حضرة
هي الروح للأرواح والسر والخفا　هي المعدن المشهود في كل قطرة
دعاني غرامي أن أموت بها كما　دعاها الهوى قِدماً باحياء صورتي
تريد فنائي بل أُريد بقاءهـــا　فمني أرادت حيث منها ارادتي

* * *

من اناشيده

مـن قبل تعييني ، حققتُ تمكيني　والغيرُ عني احتجبْ ، من مبدإِ الدينِ
يا كوكباً في الملا ، يزهو على الناسِ　أسكرت اهل الهوى ، من نفحة الكاسِ
محيـــاك يحييني ، يـا محيَ الدينِ　عبدٌ اليك انتسب ، كمَّلته بالحينِ
روحي فدا ذا الجمال ، المُفرد البـاهر　من فيه طرفي غدا ، دون الورى ساهرْ
سرُّ البراهـــينِ ، كهف المساكينِ　مفتاح أهل الرتبْ ، ديني وتدويني
بالله يا ذا العلى ، المرشد الكامـل　عطفاً على ذا الفقير ، العاجز السائل
بالياء والسين ، عجِّل بتحسيني　جسمي ضناه النصب ، يا نون تكويني
سلمى سحيراً سقتني ، كأسهـا المفردِ　أصبحت غير الذي ، أهواه لم أشهدْ
فالجمع يفنيني ، والفرق يبقيني　والغَيْر عني ذهبْ ، للمعـدن الطينِ

شمس الكمال بدتْ ، من جانب الغربِ   عليها روحي اهتدتْ ، من عالم الغيبِ
بيضـــاء تدنيني ، ممّــن يرقّيني   قُم يا خليع الطرب ، واسمع تلاحيني

وقال في هذا المعنى في نشيد آخر :

سلمى البيـانِ   سقتني كأسها الباقي   عند التداني   وقد منّت بأطلاقي
يا ذا المعـاني   شربتُ الكأس والساقي   إبن المداني   من الأغيار يحميني
أصل ابتدائي   بدا من مشهد الحبّ   وباجتلائي   تعاهدنا عـلى القُرْبِ
يا أبن الصفاء   فقدّم لي من الشرب   خمر الفنـاء   وخلّ المـاء للطين
صـلاةُ ربي   مـــع التسليم للحشر   عـلى المربي   يا سين عمدتي فخري
من فيه قلبي   صَبًا للعرف والدين

وله أيضاً :

يا نبيّ الحسن آمنّـا بما   أعربت عيناك عنـد النَعَسِ
صِلْ بخالٍ أيّدَ الخـد كما   أيّد الروح بروح القُـــدس

★

يا خليل الروح يا موسى الفؤاد   يا سلـــيمانَ المزايا والنّعمْ
انت اليـــاسُ حيـاتي والمراد   انت لقمانُ شفـــائي والحِكم
يوسفَ الحسنِ الى كم ذا البعادْ   صار يعقوب اصطباري في عدم
ما كفى ايوب جسمي سقمًا   يا مسيح الوقت جُد بالملمسِ
عَلّ ان يحيى وجودي بعدما   خضِر الشعرِ غـــدا في يَبَس

★

يا رشيق القــــدّ يا غصنَ النّقا   يا قضيبـاً زانـــه لينُ القوامْ
سيفُ عينيـــك فؤادي مزّقا   كفَّ سيفَ اللحظ يا بدر التمام
بجبـينٍ فجرُه مــــذْ أشرقا   بان فرقُ الصبح من ليل الظلام
زُرْ مكاني يا حبيبي مثلما   زرت قلبي بنبـال النعسِ
أو فعلّني برشفٍ من لَمى   ثغرك النادي الشهيّ اللعس

★

مَنْ لصبٍّ قـاده صرف القضا   بحبـــال الذل للظـبي الأغرّ

اسعرْ القلب بنيران الغضـا بل بنار الوجـد أدهى وأمرّ
دهر عمري في هواه قـد مضى وانـا في حكمه اين المفر
حبه كان قضاءً مبرمـا في ثبوتي قبل بدء الانفس
تتغذى الروح منـه كلما لاح يزهو بالجمـال الاقدس

* * *

ونظم الشعر في مدينة – حلب – عدا الشيخ نصوحي الجابري شاعر آخر شـاب مهذب مثقف ، يدعى السيد حسن الحكيم ، كان يشغل وظيفة رفيعة بمعية الوالى العثماني في – حلب – . فبعد ان تشدّل جذبته الطريق الى حضرة القرب ، فغـاب عن صحوه وسكر في حضرة الله . وفي تلك الغيبة ترك وظيفته ، لكنه رجع الى صحوه التام . فطريقتنا طريقة صحو ، وهي طريقـة سيدي الشيخ الجنيد رضي الله عنه ، فاذا غاب الفقـير في سيره لا بد ان يعود الى مقـام الصحو ، اي الى مقام الفرق الثاني .

لقد نظم هذا الشاعر مجموعة من الاناشيد والموشحات ، وبعض قصائد وقدود صوفية ، في مـدح والدي ، وتحدث عن سلوكه في المقامات والأحوال . وقد نظم الكثيرون من اخوانـنا الشعر الصوفي مدحاً بسيدي الوالد رضي الله عنـه ، فتحدثوا باشعارهم عن تعشقهم لذاتـه الكريمة ، وعن سيرهم في طريق الله بمقامـات الشهود والعرفان ، وعن معارج الوصول الى الله عز وجل . على ان الكثيرين منهم لم يهتموا بعلوم اللغة والأوزان وفنون الشعر ، فجاءت تلك الأشعار آية في الابداع الروحي بالمعاني الصوفية واصطلاحات القوم ، اكثر من الاجادة بالعلوم والصناعة الشعرية . فهذه الاشعار نفحات إلهية ، وموارد ربانيـة ، ترد على قلب الفقير السالك والواصل . وقد نجـد هذا الابداع الروحي في شعر اخواننا السذّج الأميين ، وهؤلاء ليسوا بمتعلمين ؛ ولكن الله يرزق من يشاء بغير حساب .

ليلُ الظلام انجلى   من بعد ما جَنّ [1]
شرب المدام حلا   من إبنة الدنّ

★

أنا الهوى مذهبي   أخذته عن ابي
والهتك من مشربي   والعشق لي فن

★

يا سالباً مهجتي   يا سافكاً دمعتي
مهلًا أيا منيتي   فالرّفق احسن

★

لما حبيبي سرى   ليلًا لئلا يُرى
طلبت ان انظرا   فقال لي لنْ

★

لو ان ماء اللّمى   أذاق ما ألّما
وكلما كلّما   أحلى من المنّ

★

ما ضرلوفي الكرى   لوصله أنكرا
يا هل ترى أنكرا   أم سلوتي ظن

★

صلّ إلهي على   إكليل تاج العلى
والصحب مع من تلا   ما بلبل حنّ

* * *

من أناشيده وهو في حالة الجذب الالهي

سر إلى سامي المراتب   ذي العطايا والمواهبْ
صاحب الارشاد بدرٌ [2]   تهتدي منه الكواكب

(١) من اناشيد حسن الحكيم الحلبي بعد رجوعه الى الصحو التام .
(٢) صاحب الارشاد ، هو القطب الغوث ، اي سيدي الوالد رضي الله عنه .

سرّهُ في الكون يسري نـوره للعـين مُجلي
بحرهُ فيض التجـلي فيه انواع العجـائب

★

لذّ لي في الحب موتي إذ حيـاتي منه تأتي
طاب في المحبوب وقتي مذ نضت عني الحواجب

خبّروني أين نفسـي أين عقـلي أين حسّي
غبتُ عن يومي وأمسي لست ادري من اخاطب

وصـلاة الله منّـا على من قد جاء منّا
وعـلى آل تبعنـا وكذا من كان صاحب

✲ ✲ ✲

وبعد ، فأبناء الطريقة الشاذلية ، وأتباعها كثيرون . وقد دخل فيها خلق كثير ، ذلك لانها تجمع بين الطبقات والهيئات ، على ان ابناء الطريقة حقاً هم العارفون بالله ورسوله ، السالكون والواصلون والمحبون والمحبوبون من الله ، ولذلك نجد ان هؤلاء هم الاقلية بين عشرات بل مئات الالوف من المريدين في كل زمان ومكان ، لأنهم خواص الخواص . هـذا وقد كان لكل واحد من ابناء طريقتنا صدق توجهه الى الله تعالى فيما أقامه الحق فيه . هذا أُعطي لسان صدق ينفع الناس به ، وذاك أنعم عليه الله فكان واسطة دخول غيره في الطريق ، وآخر بذل أمواله في سبيل الله ، وثان تولى تعليم الفقراء أمور دينهم وسار بهم في طريق الكمال . ومنهم من فتح بيته كزاوية لاخواننا ، فكان ممن سبقت لهم من الله الحسنى . وهكذا فأبناء الطريقة ليسوا سواء في سيرهم ، فلكل واحد منهم مقام . ولله في خلقه رجال [1]

وهكذا نجد ان اخواننا السابقين المنتسبين لسيدي الوالد رضي الله عنه

(١) قسم السادة الصوفية الناس على ثلاث : عوام، وخواص، وخواص الخواص .

من غير العلماء ، كل واحد منهم كان جندياً من جنود الله في خدمة الطريق وأهله ، قام بواجبه على الوجه الأكمل ، وشأنهم لا يقل عن شأن اخواننا العلماء ، في الفقر والبذل والتضحية في سبيل الله ، والتفاني في حب الله ورسوله .

* * *

الخاتمة *

وبعد فقد سئل مولانا الشيخ ابو الحسن الشاذلي قدس الله سره ، فقيل له : (لم لا تضع كتاباً في الدلالة على الله وعلوم القوم فقال : كتبي اصحابي)[1] وقال سيدنا الشيخ تاج الدين بن عطاء الله الاسكندري رضي الله عنه : (سمعت شيخنا ابا العباس رضي الله عنه يقول : جميع ما في كتب التصوف عبرات من سواحل بحر التحقيق) اهـ . ولذلك اخذتني الخشية من الله ، والرهبة عند بدء تصنيف هذا الكتاب ، وقلت لنفسي ، أنّى لي ان احيط علماً بتلك المراتب الالهية الذاتية المستمدة من الحقيقة المحمدية ، ومن انا ؟ لست إلا عبدة لله ، مفتقرة الى تراب اقدام سادتي اهل الله رضي الله عنهم ، فكيف اتطفل على اعتابهم بالكتابة عنهم ؟!! على ان قبساً من انوار تلك المظاهر ، اضاء حياتي وكان يجذبني

«١» مولانا الشيخ ابو الحسن الشاذلي لم يؤلف كتاباً ، لكنه ترك لنا ثروة كبيرة منشورة في كتب التصوف ، حكم ووصايا ، واحزاب وادعية ، تؤلف في مجموعها كتباً عديدة رواها عنه مريدوه العلماء .

* كان العلامة الاستاذ احمد سامح الخالدي رحمه الله ، عميد الكلية العربية في القدس ، واحد اكابر علماء فلسطين وادبائها وزعمائها كان قد علم (قبل انتقاله الى رحمة الله تعالى) اني أصنف كتاباً عن سيدي الوالد ، والطريقة الشاذلية ، فتكرم وارسل إلي ترجمة ثلاثة وعشرين شيخاً من اهل العلم الشاذليين ، الذين ساهموا بتآليفهم في كتب التصوف والتفسير والحديث والفقه واللغة والنحو والشعر ، وكان لبعضهم دواوين شعرية . لقد نقل ذلك الأديب الكبير تلك التراجم عن كتب الطبقات ، ثم قدمها

الى الكتابة ، اينما كنت وحيثما حللت ، هنالك استخرت الله سبحانه وطلبت منه المعونـة وسألته ان يهديني الى الطريق المستبين ، وها قد تم بحول الله وقوّته لا بحولي وقوتي ، وضع هذا الكتاب ، وغدا لسان حالي كما قال الشيخ ابن الميلق رضي الله عنه :

لي سادة من عِزّهم اقدامهم فوق الجباه
إن لم اكن منهم فلي في حبهم عزٌ وجاه

وبالهام من الله وتوفيقه ، لم اجمع بين كلام السادة الصوفية وغيرهم ، ووجدتني اضع كل ما استشهدت به ونقلته عن كتب الادباء والمؤرخين والمستشرقين على الهامش ، والله اسأل وبنبيّه ﷺ اتوسل ان يتقبل ذلي

إلي متبرعاً دون ان اطلب منه ذلك ، فقد كان مفطوراً على حب نشر العلم ومساعدة الغير .

ولما كان موضوع كتابي لا يتسع المجال فيه لذكر هذه التراجم ، وان مـــا ذكرته عن اقطاب السلسلة الشريفة واشياخ الطريق كان فيه الكفاية ، على اني اعترافاً بفضل ذلك العالم الكريم اذكر ترجمة ثلاثة من اولئك العلماء .

(١) الشيخ ابو بكر بن عبد الله الشاذلي الصالح المعروف بالعيدروس ، مبتكر القهوة المتخذة من البن المجلوب من اليمن ، وكان اصل اتخاذه لها ، انه مر اثناء سياحته بشجر البن ، فاقتات من ثمره حين رآه متروكاً مع كثرته ، فوجد فيه تجفيفاً للدماغ ، واجتلاباً للسهر ، وتنشيطاً للعبادة ، فاتخذه قوتاً وطعاماً وشراباً ، وارشد اتباعه الى ذلك ثم انتشرت القهوة في اليمن ثم في بلاد الحجاز ثم في مصر والشام ثم في سائر البلاد ، واختلف العلماء في اوائل القرن العاشر في جواز استعمالهـــا ثم عادوا فأجازوها ، قال النجم الغزي ، واما مبتكرها (اي القهوة) صاحب الترجمة ، فانه في حد ذاته من سادات الاولياء وأئمة العارفين ، وقد الف كتاباً في علوم القوم سماه الجزء اللطيف في علم التحكيم الشريف ، ذكر فيه انه اخذ الطريقة ، عن الصوفي العارف بالله ، جمال الدين الدهماني ، المغربي الطرابلسي المالكي ، ثم ذكر سنده في الطريق الى شيخنا ابي الحسن الشاذلي رضي الله عنه « شذرات الذهب ج ٧ — ٣٩ » .

« ترجم له ، النجم الغزي في الكوكب ج — ١١٣ »

(١) السيد عبد الله بن عبد الله بن محمد بن احمد قاسم بن علوي بن عبد الله بن علي بن عبد الله باعلوي ، امام اهل زمانه في الزهد ، ولد في مدينة قسم ونشأ بها وحفظ القرآن ، ورحل الى تريم لطلب العلم وأخذ عن عبد الرحمن العيدروس والسيد حسين الحبشي ، وحذا حذوه في العزلة وقراءة كتب التصوف ، لا سيما الكتب الشاذلية والكتب الغزالية. ثم رحل الى مكة والمدينة وتوطنها اخذ عنه الجمال الشبلي ، وبلغ من فضله ، ان طاح بعض قناديل الحجرة الشريفة على القبر الشريف

وانكساري فهو خير مأمول واكبر مسئول ، وقد كان الفراغ منه في ٢٧ من شهر رمضان المبارك سنة ١٣٧٣ لهجرة نبينا محمد صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله واصحابه اجمعين آمين .

(قبر النبي صلى الله عليه وسلم) فاستشاروا السلطان محمد بن ابراهيم ، فأمر ان يتعاطى ذلك افضل اهل المدينة ، فأجمعوا على صاحب الترجمة ، فرفعوه على لوح ، وأنزلوه على القبر الشريف فرفع القنديل ، فوضع في خزانة السلطان توفي سنة ١٠٨٥ .

(المحبي ، خلاصة الأثر ج ٣ – ٦٨)

(٣) الشيخ علوان ، علي بن عطية بن الحسن بن محمد ابن الحداد الهيتي الحموي الشافعي الصوفي الشاذلي الامام العلامة الفهامة شيخ الفقهاء والاصوليين ، ومن سادات الاولياء العارفين ، سمع على شيوخه ، وأخذ طريق التصوف عن سيدي علي بن ميمون المغربي .

ومن تآليفه ، المنظومة الميمية ، المسماة بالجوهر المحبوك في علم السلوك ، وكتاب مصباح الهداية ومفتاح الدراية في الفقه ، وكتاب النصائح المهمة للملوك والأئمة ، وكتاب بيان المعاني في شرح عقيدة الشيباني ، وكتاب عقدة مختصرة ، ثم شرحها وسماها فتح اللطيف بأسرار التصريف ، على نهج رسالة شيخه التي في اشارات الاجرومية ، وشرح تائية ابن الفارض ، وتائية ابن حبيب ، وهو أشهر كتبه ، وكتاب مجالي الحزن في مناقب شيخه السيد الشريف ابي الحسن رضي الله عنه ، والنفحات القدسية في شرح الأبيات الششترية ، وهي التي نقلها سيدي احمد زروق في شرح الحكم العطائية ، توفي في حماه سنة ٩٣٦ هـ . « شذرات الذهب – ٢١٤ »

فهرست الكتاب

* * *

تصحيح اغلاط مطبعية

خطأ	صواب	سطر	صفحة
الشافعي	الامام الشافعي	٢٠	٩
قوانين الاشراف	قوانين الاشراق	٢١	٩
بدأ	بديء	٢٢	١٨
نهي صحبة	نهي عن صحبة	٢١	٢٢
يذكر الله	بذكر الله	١٩	٦٢
جلال الدين	جمال الدين	٢٣	٦٣
كذلك	لذلك	١٥	٧٨
الوثنا	الوسنا	٩	٧٩
يلبس الفقراء	يلبس ملابس الفقراء	١٨	٨٨
حينما	حيثما	١٧	١٠٠
القاصع	القامع	١٨	١٠٠
غابت	غارت	١٤	١١٤
شديدة الى	شديدة امتدت الى	٨	١٢١
يا ربة العرفان	يا نسخة الاكوان	١٧	١٣٣
وله الامر انعقد	وله الوقت انفرد	١٧	١٣٨
مدينة	قرية	٦	١٤٥
التكشّف	التكشّف	١٤	١٥٦
دأبت	دامت	١	١٧١
شمس القرب	شمس الغرب	١١	١٩١
ابو بكر الكثاني	ابو بكر الكناني	١٩	٢٠٥
المهتزّون	المهتزّون	١٤	٢٠٨
صميمة	صحيحة	٥	٢٩٣
اليتيمتين	اليتيمين	١٩	٣٠٧

سقط هذا الحديث من الطبع في منتصف سطر ١٠ صفحة ٢٧٢ وهو « فاذا جاء الرجل ورأيته كما ذكر لك فاذا يصير عندك ؟ : عين اليقين : »

1000 —


VETUS & NOVUM TESTAMENTUM
DEI SUB NUMINE VIGET
PRINCETON
UNIVERSITY
LIBRARY

